النسفي

ومنهجه في التفسير

تأليف الدكتورة

أميمة رشيد بدر الدين

دار النوادر®

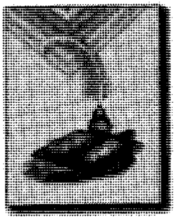

مشروع ١٠٠ رسالة جامعية سورية

٣٦

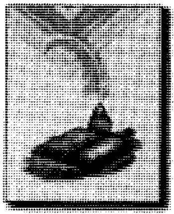

مشروع ١٠٠ رسالة جامعية سورية

٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدمت بها المؤلفة إلى جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، بإشراف أ. د. عبد الحفيظ السطلي، وناقشها أ. د. محمد الزحيلي، وأ. د. علي أبو زيد، وحازت بها المؤلفة درجة الماجستير، برتبة ممتاز، وذلك في ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

الرسالة الجامعية وثيقة تمثل شخصية مؤلفها المنهجية والفكرية، وهو المسؤول الأول عن كل ما يرد فيها من قضايا علمية، وحفاظاً من دار النوادر على ذلك لم تتدخل فيما ترى من المناسب تغييره أو التعليق عليه، حرصاً منها على عدم الإخلال بهذه الوثيقة، أو إبرازها خارج صورتها الحقيقية.

النسفي
ومنهجه في التفسير

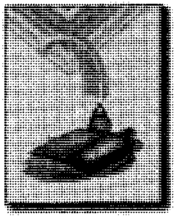

مشروع ١٠٠ رسالة جامعية سورية

٣٦

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَة

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

ردمك : ٤ - ١١ - ٤٨٢ - ٩٩٣٣ - ٩٧٨ : ISBN

9789933482114

يُمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بكافة طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي أو المسموع أو استخدامه حاسوبياً بكافة أنواع الاستخدام وغير ذلك من الحقوق الفكرية والمادية إلا بإذن خطي من الناشر

سورية - لبنان - الكويت

مُؤسَسَة دار النَّوادِر م.ف - سُورية * شَرِكَة دار النَّوادِر اللُّبْنانِيَّة ش.م.م - لُبنَان * شَرِكَة دار النَّوادِر الكُوَيْتِيَّة ذ.م.م - الكُوَيت

سورية - دمشق - ص. ب : ٣٤٣٠٦ - هاتف : ٢٢٢٧٠٠١ - فاكس : ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)

لبنان - بيروت - ص. ب: ١٤/٥١٨٠ - هاتف : ٦٥٢٥٢٨ - فاكس : ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)

الكويت - الصالحية - برج السحاب - ص. ب: ٤٣١٦ حولي - الرمز البريدي: ٣٢٠٤٦

هاتف: ٢٢٢٧٣٧٢٥ - فاكس: ٢٢٢٧٣٧٢٦ (٠٠٩٦٥)

www.daralnawader.com info@daralnawader.com

أسَّسَهَا سَنَة : ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م نُورُ الدِّين طَالِب المُدِير العَام وَالرَّئيس التَّنفِيذِي

مشروع ١٠٠ رسالة جامعية سورية

٣٦

إهداء

- إلى روح والدي الذي زرع ولم يحصد. . .
- إلى والدتي التي كافحت وما تزال تكافح. . .
- إلى أخي الذي كان وما يزال الأب والأخ والمعلم والمرشد والصديق. . .
- إلى أخواتي اللواتي تحملن الكثير من أجلي. . .
- إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذه الرسالة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي فضلنا بالقرآن على الأمم أجمعين، وآتانا به ما لم يؤتِ أحداً من العالمين، أنزله هداية عالمية دائمة، وجعله للشرائع السماوية خاتمة، ثم جعل له من نفسه حجة على الدهر قائمة ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء: ٨٨] والصلاة والسلام على من كان خُلُقَه القرآن ووصيته القرآن، وميراثه القرآن، القائل: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[١].

وبعد:

لمّا كان القرآن الكريم مَهْدَ الدراسات، فمن أجله نشأت الدراسات اللغوية والأدبية، ولإثبات إعجازه تطورت الدراسات البلاغية وتوسعت، وكان من الجدير بدارس العربية أن يعود لدراسة هذه الفنون ولَمْس جمالها في النص القرآني، والحياة في ظلال معانيه وجلاله لما فيه من ظلال أدبية، وفنون بلاغية، ودراسات لغوية لا يمكن للباحث أن يجدها في غيره، إضافة إلى ما فيه من أحكام فقهية وتعاليم دينية تهمّ دارس العربية كما تهم غيره، وأمام هذا فقد آثرت أن أتوجه بدراستي إلى القرآن الكريم لأعيش لحظات في نفحاته الطيبة وتعاليمه السامية، وقد وجدت أَنَّ

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم الحديث (٥٠٢٧) والترمذي في سننه، أبواب ثواب القرآن، باب ما جاء في تعليم القرآن، رقم الحديث (٢٩٠٩).

أَجْمَع عَمَلٍ لهذه الأمور ما ألفه المفسرون حول القرآن، فوقع اختياري على تفسير رجل من رجـال القرن السابع الهجري جمع هذه الأمور كلها، ففيه الأدب واللغة والبلاغة، كما فيه العظات والتوجيهات إلى جانب الأحكام الفقهية والآراء الكلامية فبدا الكتاب حياة كاملة فيها ما تشتهيه نفس الدارس وتلذ به، هذا الكتاب هو مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام عبدالله النسفي رحمه الله.

وقد جعلت هذه الدراسة في بابين:

*** الباب الأول ـ النسفي وكتابه التفسير ويقع في تمهيد وثلاثة فصول:**

الفصل الأول ـ حياته ونشأته:

وقد حاولت أن أدرس عصره إلا أنني لم أحظ بشيء يذكر في هذا الميدان، كما لم أحظ بما يشبع النهم ويشفي الغليل في دراستي لحياته، فقد ضنَّت علينا كتب التراجم التي اكتفت بذكره بمعلومات وافية عن حياته وأسرته ونشأته العلمية، مما جعلني ألقى صعوبة كبيرة في تلمس مظاهر حياته وسط هذه الشفافية والضبابية التي أحاطت به فجاءت حياته مختصرة موجزة كما كان عصره كذلك، ولعل السبب في هذا بُعْده عن الحياة السياسية في وقت كان سياسياً بحتاً.

الفصل الثاني ـ مؤلفاته وشروحها:

وقد وجدَتْ هذه المؤلفات من الحَيْفِ ما وجده صاحبها، فما زال معظمها مخطوطاً وقد أوقعني هذا في صعوبة أيضاً في دراستها والحديث عنها، استطعت الحصول على بعضها مصورة من جامعات خارج القطر كما وقفت على بعضها مصوراً بالميكروفيلم، ولا يخفى على أحد صعوبة هذا الأمر وقساوتـه، بينما لم أستطع الحصول على بعضها الآخر مما جعلني أقتصر على ما قيل عنها في ثنايا الكتب.

الفصل الثالث ـ التفسير بداياته وأوائل المفسرين:

وخصصت هذا الفصل لدراسة معنى التفسير وأوائل المفسرين لأضع النسفي في موضعه بينهم، ولأضع تفسيره أيضاً في موضعه بين كتب التفسير، وتفسيره كما سنرى جامع للتفسير النقلي والعقلي.

*** الباب الثاني ـ منهجه في التفسير وآراؤه، ويقع هذا الباب في ستة فصول:**

الفصل الأول ـ مبدؤه الفكري ورده على الفئات المخالفة:

وبدا هذا الأمر واضحاً في تفسيره وكاد يطغى على الجوانب الأخرى، وبه بدت شخصية النسفي المتميزة فبدا رجل كلام ضليع في هذا الفن، فكان كتابه بحق رداً على كشاف الزمخشري الذي ذاع وانتشر في ذلك الوقت.

الفصل الثاني ـ منهجه في علوم القرآن:

وفيه يبدو النسفي مفسراً نقلياً، فقد ذكر أسباب النزول والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ كما عني بالقراءات فكان عالماً بها ملتزماً بالقراءات السبع.

الفصل الثالث ـ منهجه اللغوي والنحوي:

وقد عني النسفي باللغة والنحو، وتعرض لمسائل كثيرة تعرض لها علماء اللغة قبله، وأعرب الكثير من ألفاظ القرآن وتحدث عن الرسم القرآني، وعرض رأيه في قضية ترجمة القرآن وقراءته بغير العربية، إلا أن آراءه هذه كانت كلها مختصرة موجزة.

الفصل الرابع ـ منهجه التربوي والأدبي والعقلي:

وفيه يستخرج النسفي الكثير من العبر والعظات، وينقد المجتمع أيضاً، كما عني بالأدب واستعان به في تفسيره لآيات القرآن فكان أديباً كما كان لغوياً بارزاً.

الفصل الخامس ـ منهجه البلاغي :

وهنا يبدو النسفي مقلداً، متـأثراً بالزمخشـري، وإن أضاف نظرات بلاغية أخرى لم يذكرها الزمخشري في كشافه.

الفصل السادس ـ النسفي بين البيضاوي والزمخشري :

والنسفي متأثر بهمـا ممـا جعـلني أضـع فصـلاً أخيراً أميز فيه نقاط التشابه والاختلاف بينهم، لأضع النسفي في موضعه بين هذين المفسرَيْن.

ولقد وجدت في دراستـي هذه مجموعـة من العقبات والصعوبات، فحياة النسفي غامضة وما قيل عنه إلا القليل كما كان عصره كذلك، مما جعلني أتلمس خطوط حيـاته من خلال ما قيل عنـه في ثنايا كتـب التراجم أو كتبـه المطبوعة أو المخطوطة، وكل ما وصلت إليه قليل لا يليق بشخصية متميزة كشخصية النسفي.

الأمر الثاني: أن معظم كتبـه ما زالت مخطوطـة وما طبع منها لم ينتشر إلا على نطاق ضيق وفي المكتبات العامة فقط، مما جعلني أضطر إلى الاطلاع على مخطوطاتها إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، أما العقبة التي وجدتها في تفسيره ذاته فهي أن تفسيره غير محقق وهذا ما دفعني إلى تخريج الأحاديث والآيات والأقوال الواردة فيه، خاصة وأنه في معظم الأحيان لا ينسب ما أخذه إلى صاحبه، وهو ما ظهر لي من خلال مقارنته بالكشاف، حيث نقل الكثير ولم يشر إلى أخذه عنـه، وقـد أشرت إلى هذا في حديثي عن مصادر النسفي في تفسيره، وكل هذا يجعل مهمتي ليست دراسة منهجيـة فحسب، بل هي أشبه ما تكون بتحقيـق للتفسير ودراسة للمنهج.

سائلة الله تعالى أن تكون دراستـي هذه مقدمة لدراسة هذا العالم الجليل، وإعادة مؤلفاته إلى الوجود، ووضعه في قائمة العلماء الذين شاعت أسماؤهم ومؤلفاتهم، كما أرجو أن تكون بداية لدراسة مؤلفاته المخطوطة ووضعها بين أيدي القراء، لما لها

من أهمية كبيرة وفائدة جمة في موضوعاتها المختلفة، ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أقدم الشكر الجزيل للسيد الأستاذ الدكتور عبد الحفيظ السطلي الذي تفضل بإشرافه على هذه الرسالة وكان لي خير مرشد، وتحمل عبء قراءتها ومراجعتها طيلة الفترة، وكان لي في توجيهاته وآرائه السديدة خير معين ومساعد لإتمام هذا العمل وتوجيهه وتقويمه، كما أتوجه بالشكر إلى كل من قدم يد المساعدة لي في هذا العمل برأيه أو بسعيه أو تشجيعه لي على المضي فيه، وأخص بالذكر السيد الأستاذ الدكتور علي أبو زيد جزاهم الله عني خيراً، أدعوا الله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه، وأن يجعله في عداد حسناتي يوم العرض عليه، وأن يكتب لي التوفيق في دراستي هذه، فهو حسبي ونعم الوكيل.

❑ ❑ ❑

البَابُ الأَوَّلُ

النسفي وكتابه التفسير

وفيه تمهيد وثلاثة فصول:

* تمهيد.
* الفصل الأول: حياته ونشأته.
* الفصل الثاني: مؤلفاته وشروحها.
* الفصل الثالث: التفسير بداياته وأوائل المفسرين.

البَابُ الأوَّلُ
النسفي وكتابه التفسير

تمهيد

قبل أن نشرع في دراسة النَّسَفي، ومنهجه في تفسيره ينبغي أن نقف قليلاً عند عصره وما دار فيه مما يعيننا على استجلاء صورة النسفي وما أثر في حياته وتفكيره.

والنَّسَفي عاش في إيذِج في عصر الاحتلال المغولي لبلاد ما وراء النهر، والمعروف أن المغول دخلوا هذا الإقليم سنة ٦١٦هـ، بينما تأخر[١] احتلال بقية أقاليم الدولة الخوارزمية حتى عام ٦٢٨هـ، بعد هزيمة جلال الدين أمامهم، وبهزيمته أصبح الطريق مفتوحاً إلى العاصمة العباسية بغداد التي سقطت على أيديهم عام ٦٥٦هـ، والناظر في تاريخ المغول وسياستهم في هذا الإقليم، يشهد الاضطراب والقلق اللذين عمّا البلاد منذ اللحظات الأولى لدخولهم إليها، إذ اجتاحت جيوشهم كما يقول الجويني: «العلم ومجتمع العلماء، وفتكت بهم ولا سيما في خراسان التي كانت مثابة العلم، ومجتمع العلماء، ويمكننا أن نسمي هذه الفترة بفترة قحط العلم، وفقدان الفضيلة»[٢].

بيد أن عصر المغول اتجه نحو العلم وإكرام العلماء وبناء المساجد بعد أن دخلوا في الإسلام[٣]، وأثّرت تعاليمه في نفوسهم، ولا سيما بعد وفاة جنكيز خان،

---

(١) تتمة المختصر: ٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧، والعبر: ٥/ ١١٠، ومؤيد الدين العلقمي: ص٨٢.

(٢) مختصر تاريخ العرب: ص٣٤٣.

(٣) مثل أرغون وغازان وتكودار أحمد وأولجايتو: انظر: مغول إيران بين المسيحية =

مما كان له أثر واضح في تحسن وضع العلم في البلاد نسبياً.

فقد أسلم غازان وصبغ حياته الخاصة بالصبغة[١] الإسلامية، ورفع المظالم عن طبقات الشعب طبقاً للشريعة الإسلامية، كما حارب ضروب الفساد كشرب الخمر، والبغاء والربا، والتفوه بألفاظ الكفر، وبنى المساجد الكثيرة، وحوّل البيع والكنائس والمعابد البوذية إلى مساجد، وحمى الحجيج، وأقام دور السيادات التي خصصت لإقامة أبناء علي ﷺ، كما أمر أهل الذمة بلبس الغيار[٢].

إلا أنّ هذا لا يعني أن البلاد عادت إلى سيرتها الأولى، وإلى ازدهارها العلمي الذي كانت عليه قبل دخولهم، فعلى الرغم من استعادة فارس ازدهارها العلمي تدريجياً، إلا أنّ بخارى وسمرقند لم تنتعش حياتهما العلمية قط، وظلت الدراسة العلمية فيهما مقتصرة على التصوف والفقه[٣].

ومع ذلك فلن نبحث في هذا العصر بحثاً مفصلاً، نكشف عن كل دقائقه وتفاصيله، فذلك طويل واسع، وما يهمنا هو معرفة شيء عن الحالة السياسية، ثم معرفة ما كان فيه من نزعات دينية كان لها الأثر الكبير في حياة النسفي، وفي تحديد آرائه الفقهية والكلامية.

فقد عُرف النسفي بتأييده لمذهب الجماعة، إذ ناصر آراء أبي حنيفة في الفقه، وآراء أبي منصور[٤] الماتُريدي في الكلام، وهذا ما يبدو واضحاً في آثاره

= والإسلام: ص١٢، ٣٤، ٣٧، ٥٢.

(١) مغول إيران: ص٤٧ ـ ٤٨، و٣٧.

(٢) مغول إيران: ص٥٢. وهي علامة تميز أهل الذمة من غيرهم فكانت علامة النصارى شد الزنار في أوساطهم، واليهود خرقة صفراء في عمائمهم.

(٣) مختصر تاريخ العرب: ص٣٣٩.

(٤) هو محمد بن محمد بن محمود إمام المتكلمين، ومصحح عقائد المسلمين، تفقه على =

ومؤلفاته كلها، وخاصة كتابه في علم الكلام عمدة العقائد، وكتابه الفقهي كنز الدقائق في الفقه الحنفي، ودارت مؤلفاته كلها وفق هذين التيارين اللذين برزا معاً في تفسيره بشكل واضح.

فقد ظهر في بلاد ما وراء النهر عدد من النزعات والخلافات الدينية، التي تفاقمت وكان لكل منها أنصاره الذين يدافعون عن نزعاتهم في كتبهم، مما أسهم في ظهور أثر تلك النزعات في العلماء وفيما يؤلفون.

ومن المعروف أنّ سكان بلاد ما وراء النهر اعتنقوا الإسلام منذ الفتح الإسلامي لها أيام الخلفاء الراشدين، وبقي الدين الرسمي في تلك البلاد في الفترات اللاحقة.

إلا أن ثمة خلافاً في وجهات النظر نشأ بين أبناء هذا الدين، بسبب الاجتهادات الفقهية بين فقهاء هذه الأمة وعلمائها، كتلك التي نشأت بين الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية، أو بسبب اجتهاد المتكلمين منهم، كتلك التي نشأت بين السنة والمعتزلة والشيعة، وكان للسلطة الحاكمة أثرها في دعم هذه الخلافات وتشجيعها، فالدولة السامانية مثلاً أيدت مذهب الجماعة، وشجعت الحركة العلمية في البلاد، وهذا ما ساعد على ظهور عدد لا يحصى من العلماء في شتى العلوم المعروفة، من فقه وتفسير، وحديث وأصول، قال أبو منصور الماتُريدي رحمه الله: «كان لهؤلاء (السامانيين) الأئمة الأجلاء فضل توحيد عامة البلاد إلى مذهب السنة، فأصبحوا أشد الناس تمسكاً به، وحرصاً عليه، إلى جوار مذهب أبي حنيفة، ومن ثم كانت

= أبي بكر أحمد الجوزجاني، عن أبي سليمان الجوزاني عن محمد، وصنف التصانيف الجليلة وله: التوحيد مطبوع، والتأويلات وهو مطبوع أيضاً، وكتاب أوهام المعتزلة والمقالات والرد على القرامطة ومآخذ الشرائع وغيرها وما زالت كلها مخطوطة. انظر ترجمته، الفوائد البهية: ص١٩٥.

السيادة هناك لهذين المذهبين الفقهي والعقيدي»[١].

كما كان للسلاجقة دورهم في دعم هذا المذهب وتقويته، وكان للمدارس التي أقاموها في هراة ونيسابور أهمية كبيرة في ذلك.

ثم قامت الدولة الخوارزمية، ودعا زعيمها علاء[٢] الدين خوارزم شاه إلى التشيع، وانتزع من أبناء هذا الإقليم قراراً بشرعية عزل الخليفة العباسي، والاعتراف باغتصاب العباسيين للخلافة من الشيعة، وتوجه إلى بغداد للقضاء على الخلافة العباسية هناك، بعد أن نصّب علاء[٣] الدين خليفة من أتباعه استمد منه سلطته الشرعية، إلا أن عاصفة ثلجية أهلكت جيشه، وحالت دون احتلال بغداد[٤].

هذه الخلافات المحلية توسعت فيما بعد واستدعت تدخل قوة خارجية معادية للمسلمين، قضت على الحضارة الإسلامية ـ كما رأينا في بداية حديثنا ـ وأحالت البلاد قفراً، وقضت على العلم والعلماء.

فبعد قيام الخلافات المذهبية في بغداد، دعا الوزير ابن العلقمي التتر للقضاء على الخلافة العباسية[٥]، وأطمعهم في ملك بغداد.

---

(١) التأويلات: ص١٢.

(٢) وهو: قطب الدين محمد، ولقب علاء الدين لقب والده، انظر: تاريخ الخميس: ٢/ ٣٦٨، العبرة: ٥/ ٦٩.

(٣) انظر: الدولة الخوارزمية والمغول: ص٣٧ ـ ٨١.

(٤) انظر: المختصر في أخبار البشر: ٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧، سيرة السلطان جلال الدين: ص٣٨٤، الدولة الخوارزمية: ص٢٠٥ ـ ٢٠٦، مؤيد الدين العلقمي: ص٧٨.

(٥) انظر: المختصر في أخبار البشر: ٢/ ٩٩، تاريخ الخلفاء: ص١٨٦ ـ ١٨٧، تاريخ الخميس: ٢/ ٣٧٦.

والنتيجة أن الدولة الإسلامية وعقائدها كانت تتعاقب بتعاقب حكوماتها، وكانت هذه الحكومات تحمل الناس على مذاهبها وترك ما سواها، فظهرت الخلافات واستمرت في هذا الإقليم حتى في العصر المغولي، وبدت آثارها واضحة في مؤلفات النسفي جميعها، حتى إنه جعل من تفسيره كتابَ ردٍ على خصومه من معتزلة وشيعة، أما كتابه عمدة العقائد ففيه توضيح لمذهبه الكلامي كما سنرى.

وعلى العموم فمذهب الجماعة انتشر بعد ضعف قوة المعتزلة، وتحول دعوتهم إلى دعوة فردية سرية، وبعد هدوء الشيعة في ثوراتهم إذ لم تساعد الظروف على استمرار ثورتهم رغم محاولة الخوارزميين، حَمْلَ الناس[1] على ذلك.

ولن نخوض في مبادئ هذه الفرق وأفكارها، فمثل هذا الأمر بات واضحاً للجميع، وكَثُرَ فيه التأليف وربما تحدثنا عن بعض آرائهم في حديثنا عن مبدأ النسفي الفكري، ورده على الفئات الأخرى، وهو الذي كان في عداد السنة والمدافعين عن آرائهم في ذلك.

ومن أبرز المبادئ الفكرية التي تمسك بها السنة، ودافعوا عنها، ورأينا صداها واضحاً عند النسفي كانت قضية تفسير القرآن بالمنقول، أما اجتهادهم في التفسير فكان محصوراً في الغالب ضمن قضايا بلاغية أو لغوية أو أدبية، وأن العقل البشري غير قادر على تصور الأمور الغيبية، وعليه أن يؤمن بها، وأن القرآن هو كلام الله لا مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر بالله كما قال السلف، لأن هذه المسألة وإثارتها بدعة، لم يقلها النبي ﷺ ولا صحابته، بل هو كلام الله، وهذا ما قاله الله في قرآنه[2].

(١) انظر: الدولة الخوارزمية والمغول: ص٣٧ ـ ٨١.
(٢) انظر: الملل والنحل للشهرستاني: ١/ ١٤٢.

كما أقروا بكتب الله ورسله، وإباحة ما أباحه الله، وتحريم ما حرّمه، وقبول ما صحّ من سنة رسول الله ﷺ، واعتقاد الحشر والنشر، وسؤال الملكين في القبر، والإقرار[١] بالحوض والميزان، كما اتفقوا على جواز رؤية المؤمنين الله يوم القيامة[٢]، وأقروا شفاعة ﷺ لعصاة المؤمنين، وبأن دخول الجنة بفضل الله[٣] ومنته، ولا يثبت عندهم من أسماء الله تعالى إلا ما أثبته الله لنفسه من أسماء وصفات، وما نقله الرسول ﷺ في أحاديث صحيحة، فمأخذ أسماء[٤] الله توقيفي، وكل الواجبات بالسمع، أما المعارف فبالعقل، وعلى الرغم من اتفاقهم هذا فقد وجدت بينهم خلافات ثانوية في وجهات النظر بعد ظهور أبي الحسن[٥] الأشعري وأبي منصور الماتُريدي رحمهما الله، وربما كان أصل هذه الخلافات يعود إلى الخلاف الفقهي بين أبي حنيفة والشافعي رحمهما الله، إلا أن هذه الخلافات ليست بذات خطر كبير.

ولما كان النسفي ينهج نهج الماتُريدية، ويقول بقولهم كان لا بدَّ من توضيح أبرز أفكارهم وآرائهم التي يدافعون عنها.

---

(١) انظر: الفرق بين الفرق: ص٣٣٣ ـ ٣٣٤، عمدة عقيدة أهل السنة ورقة ٢٣، عقائد النسفي: ص٣.

(٢) انظر: إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة: ص٩٢.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ٤/ ٢٢٨.

(٤) انظر: الفرق بين الفرق: ص٣٢٦.

(٥) هو علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري، مؤسس مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة، وتوفي ببغداد عام ٣٢٤هـ، له مقالات الإسلاميين، إمامة الصديق، انظر ترجمته في: البداية والنهاية: ١١/ ١٨٧.

الماتُريدية: وهي طائفة من أهل السنة، تبعت آراء واجتهادات أبي منصور الماتريدي، انتشر هذا المذهب في بلاد ما وراء النهر، على حين شاع مذهب الأشعري في خراسان والعراق والشام وأكثر الأمصار الأخرى، قال مصلح الدين مصطفى الكستلي: «المشهور من أهل السنة في خراسان والعراق والشام وأكثر الأمصار هم الأشاعرة، أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سالم بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله بن بلال أبي بردة بن أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ، وفي ديار ما وراء النهر الماتريدية أصحاب أبي منصور الماتريدي، تلميذ أبي نصر العياضي، تلميذ أبي بكر الجوزجاني صاحب أبي سليمان الجوزجاني، تلميذ محمد ابن الحسن الشيباني من أصحاب الإمام أبي حنيفة»[١].

وعلى الرغم من انتشار هذين المذهبين فقد كانت الغلبة لأتباع أبي الحسن الأشعري، الذي جمع مبادئ هذا المذهب في كتابه مقالات الإسلاميين، بينما تولى الإمام أبو منصور بيان مبادئ الماتريدية في كتابه التوحيد، وقام من بعده نجم الدين النسفي بجمع أهم مبادئ الماتريدي في كتابه المسمى عقائد النسفي.

فالماتريدية ترى أن الإيمان هو التصديق والإقرار به، والإقرار شرط إجراء الأحكام، أما الأعمال فهي طاعات، قال النسفي: «والإيمان هو التصديق بما جاء من عند الله، والإقرار به، فأما الأعمال فهي طاعات»[٢].

ولذا فالإيمان عندهم لا يزيد[٣] ولا ينقص، وما يزيد عند الإنسان هو

---

(١) التوحيد: ص٧ ـ ٨ (المقدمة) وهو منقول عن حاشية المولى مصلح الدين الكستلي على شرح العقائد النسفية للتفتازاني.

(٢) انظر: عقائد النسفي: ص٣.

(٣) انظر: عقائد النسفي: ص٣.

الطاعات، والإيمان[١] والإسلام واحد، وإذا صحّ للعبد التصديق والإقرار، جاز له أن يقول: أنا مؤمن حقاً، ولا ينبغي له أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله[٢] أما العالم فهو محدَث[٣]، والمحدِثُ له هو الله تعالى، الواحد القديم، الحي، القادر، العليم، السميع، البصير، المريد، قال أبو منصور الماتريدي رحمه الله: «ثم الدليل على أن للعالـم محدِثاً أنه ثبت حَدْثُـه بما بينّا، وبما لا يوجد شيء منه في الشاهد يجتمع بنفسه ويفترق، ثبت أن ذلك كان بغيره»[٤].

والتكوين صفـة لله تعالى أزلية، وهو غير المكوّن، والإرادة صفـة أزلية لله تعالى قائمة بذاته[٥]، ورؤية الله[٦] تعالى جائزة بالعقل واجبة بالنقل، وَرَدَ الدليل السمعي بإيجاب رؤية المؤمنين الله تعالى في دار الآخرة، فيُرى لا في مكان ولا على جهة من مقابلة أو اتصال شعاع، أو ثبوت مسافة بين الرائي وبين الله تعالى، والله خالق[٧] كل أفعال العباد من الإيمان والطاعة والعصيان، وهي كلها بمشيئة الله تعالى وإرادته وحكمه وقضائه وتقديره، وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها.

وعلـى ذلك فلا يجوز تكليـف العبد بما ليس في وسعه لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقـرة: ٢٨٦] وقـوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا

---

(١) انظر: عقائد النسفي: ص٣.

(٢) انظر: التوحيد مسألة ترك الاستثناء في الإيمان: ص٣٨٨، عقائد النسفي: ص٣.

(٣) انظر: عقائد النسفي: ص٢.

(٤) التوحيد: ص١٧.

(٥) انظر: عقائد النسفي: ص٢.

(٦) انظر: التوحيد: ص٧٧ ـ ٨٥، عقائد النسفي: ص٢.

(٧) انظر: عقائد النسفي: ص٢، عمدة عقيدة أهل السنة: ص١٨.

بِهِۦ﴾[البقرة: ٢٨٦] استعارة عن تحميل ما لا يطيق لا عن تكليفه، ولذا فالماتريدية ترى أنه: «لا يجوز أن يحمّله جبلاً لا يطيقه فيموت، ولا يجوز أن يكلفه بحمل جبل بحيث لو فعل يثاب، ولو امتنع يعاقَب، وقوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[البقرة: ٣١] مع عدم علمهم بذلك ليس بتكليف، بل هو خطاب تعجيز، كالأمر بإحياء الصور يوم[1] القيامة» والعقل عندهم آلة يُعرف بها حسن الأشياء وقبحها، ووجوب الإيمان وشكر المنعم، والمعرِّف والموجب هو الله تعالى لكن بواسطة العقل، كما أن الرسول معرِّف بالوجوب، والموجِبُ حقيقة هو الله تعالى، لكن بواسطة الرسول حتى قال أبو حنيفة رحمه الله: لا عذر لأحد في الجهل بخالقه، لما يرى من خلق السموات والأرض، ولو لم يَبْعَثْ رسولاً لوجب على الخلق معرفته بعقولهم[2].

أما العفو[3] عن الكفر فغير جائز عقلاً خلافاً للأشاعرة، والذكورة شرط للنبوة؛ لأن الأنوثة تنافي الاشتهار[4] ونتيجة لهذا الخلاف انقسم أهل السنة إلى ماتُريدية وأشاعرة، إلا أن هذين المذهبين ألّفا ما عرف بمذهب الجماعة، ووقفا معاً في الرد على الفئات المخالفة، وبدا أثر هذا الموقف واضحاً في تفسير النسفي. فقد تبنى مذهب أبي منصور الماتريدي، ورأى رأيه، وبث أفكاره في مؤلفاته الكلامية وفي تفسيره أيضاً.

---

(١) انظر: التوحيد: ص٢٦٣، عقائد النسفي: ص٢، عمدة عقيدة أهل السنة: ص٢٠.

(٢) انظر: التوحيد: ص٢٢٤، عمدة عقيدة أهل السنة: ص٢١.

(٣) انظر: عمدة عقيدة أهل السنة: ص٢٣، انظر: الملل والنحل للشهرستاني: ١/ ١٣٣.

(٤) انظر: عمدة عقيدة أهل السنة: ص١٧، انظر: الملل والنحل للشهرستاني: ٥/ ١٩، وتفسير البيضاوي: ص١٠.

وبهذا نكون قد وقفنـا على حقيقـة هذه الفئة التي كان ينتمي إليها النسفي، وأصبـح ميسوراً لنا أن ننتقل إلى حياتـه ودراسة مؤلفاته، وتفسيره بشكل خاص، لما في ذلك من ارتباط وثيق بين عصره وبين عقيدته وآرائه الفقهية والكلامية.

* * *

الفَصْلُ الأَوَّلُ

النسفي : نشأته وثقافته

نشأته :

هو عبدالله بن أحمد بن محمود النَّسَفي، أبو البركات، لُقِّب حافظ الدين، ونسب إلى مدينة نَسَف[1] فغلبت نسبته عليه. ولد النسفي في مدينة إيذج[2] إلا أننا لا نعرف سنة ولادته، ولكن العودة إلى تاريخ وفاة شيوخه تجعلنا نتلمس أوائل العصر الذي عاش فيه، وقد رأينا أن أسبقهم وفاة هو شيخه الكردري الذي توفي ٦٤٢هـ وهذا يعني أن ميلاده كان قبل ٦٤٢هـ وعليه نستطيع أن نخمّن تاريخ ولادته في العقد الثالث من القرن الهجري السابع تقريباً، مما يعني أنه عاش في فترة الاحتلال المغولي لبلاد ما وراء النهر، وأنه أدرك زمن أقباي خان[3] وخلفائه حتى كيوك خان[4].

وليس بين أيدينا تفاصيل عن نشأته وحياته، إلا أنه كان مشهوراً بالزهد

---

(١) وتسمى «قارشي» اليوم، ويسميها الفرس «نخشب»، والغالب عليها الخصب قال الهلبي: نخشب كثيرة الماء والثمار، وهي وبية وهي من أطراف بلاد ما وراء النهر، انظر: معجم البلدان ـ نسف ـ: ٥/ ٢٨٥، الروض المعطار: ص٥٧٩، تقويم البلدان: ص٤٩٠.

(٢) مدينة بين أصفهان وخوزستان كثيرة الزلازل، ويقال لها مال الأمير، وما زالت تعرف بهذا الاسم حتى اليوم، وهي مشهورة بقنطرتها، انظر: الروض المعطار: ص٣٥، آثار البلاد وأخبار العباد: ص٣٠٢ ـ ٣٠٣، معجم البلدان: ٥/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٣) حُكْمُهُ من سنة: ٦٢٤ ـ ٦٣٩.

(٤) حُكْمُهُ من سنة: ٦٣٩ ـ ٧٠٦.

والصلاح والتقوى، تفرغ للعلم والدراسة والبحث، وعرف اللغة العربية والفارسية قال: «وهذه الأسئلة كانت بالفارسية فنقلتها أنا بالعربية»(١).

والظاهر أنه تتلمذ كما تتلمذ غيره من أبناء عصره على شيوخ هذا الإقليم، ورحل إلى بغداد في نهاية حياته قال اللكنوي: «دخل بغداد سنة عشر وسبع مئة ووفاته في هذه السنة»(٢).

وذاع صيته في الآفاق قال اللكنوي: «كان إماماً كاملاً عديم النظير في زمانه، رأساً في الفقه والأصول، بارعاً في الحديث ومعانيه»(٣).

ونعته ابن حجر العسقلاني بـ «علاّمة الدنيا»(٤)، كما كتبت عبارات تقريظ في مقدمة كتبه المطبوعة والمخطوطة تشير إلى مكانته العلمية، ففي مقدمة كتابه اعتماد الاعتقاد «قال مولانا الصدر الإمام المعظم، الحبر الهمام المكرم، محي السنة، قامع البدعة، مبين الفروع والأصول، الجامع بين المعقول والمنقول، كاشف الحقائق، مظهر الدقائق، أستاذ الخلف بقية السلف، ظهير الملة الحقيقية، نصر الشريعة المصطفوية، حافظ الحق والملة والدين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، أبو البركات عبدالله النسفي غفر الله له ولوالديه»(٥).

وعلى هذا نرى أن النسفي ذو مكانة مرموقة كأبيه بين فقهاء عصره ومتكلميه،

---

(١) اعتماد الاعتقاد: ورقة ١٠٠.

(٢) الفوائد البهية: ص١٠١.

(٣) الفوائد البهية: ص١٠١.

(٤) الدرر الكامنة: ٢/ ٢٤٧.

(٥) اعتماد الاعتقاد: ورقة١، انظر: مقدمة كشف الأسرار: ١/ ٤، عمدة عقيدة أهل السنة: ورقة١، كنز الدقائق: ص١.

وقد عده ابن كمال باشا من طبقات المقلدين القادرين على التمييز بين القوي والضعيف، الذين شأنهم أن لا ينقلوا في كتبهم الأقوال المردودة والروايات الضعيفة، وهي أدنى طبقات المتفقهين وقال: «وبه اختتم الاجتهاد ولم يوجد بعده مجتهد في المذاهب»[١].

أسرته:

والحديث عن أسرة النسفي أمر شاق، غامض، فنحن لا نجد شيئاً عن أسرته هذه، إلا ما نلمحه في ثنايا بعض كتب التراجم التي تشير إلى مكانة والده العلمية والاجتماعية والدينية، ففي مقدمة كتابه كشف الأسرار كتب بعض النساخ: «قال مولانا الشيخ الإمام الصدر القرم الهمام، حافظ الملة والدين، ناصر الإسلام والمسلمين، وارث الأنبياء والمرسلين، مفتي الشرق والصين، أبو البركات عبدالله ابن الإمام الأجل الكبير السعيد، حميد الملة والدين، أحمد محمود النسفي»[٢].

هذه العبارة تشير إلى بيئة علمية دينية نشأ بها، وكان لها أهمية كبيرة في حياته، وفي نشأته العلمية فمال إلى اعتزال الحياة السياسية، والتفرغ للعلم والدراسة والبحث، وإلى الزهد والورع، فذاع صيته في الآفاق، وتابع سيرة والده الدينية، وورث مكانته العلمية حتى لقب بحافظ الدين كما رأينا.

وفاته:

اختلف المؤرخون في تحديد سنة وفاته، فذهب اللكنوي[٣] والبغدادي[٤]

(١) الفوائد البهية: ص١٠١ ـ ١٠٢، انظر: الحاشية.

(٢) كشف الأسرار: ١/ ٤.

(٣) انظر: الفوائد البهية: ص١٠١.

(٤) انظر: هدية العارفين: ١/ ٤٦٤.

وصاحب[١] الكشف إلى أن وفاته كانت عام ٧١٠هـ، أما ابن حجر[٢] العسقلاني فرأى أن وفاته كانت عام ٧٠١هـ، وذهب القاسم[٣] بن قُطْلوبغا إلى أنه توفي بعد عام ٧١٠هـ.

وبالتدقيق في هذه الآراء نرى أن قول من قال توفي سنة ٧١٠هـ هو الصحيح وهو ما نميل إليه، وتقويه الدلائل فقد ذكر القاسم بن قُطْلوبغا[٤] أن النسفي كان ببغداد سنة ٧١٠هـ، قال اللكنوي: «دخل بغداد سنة عشر وسبعمئة ووفاته في هذه السنة»[٥]، أما ما ذكره ابن حجر العسقلاني من أن وفاته كانت ٧٠١هـ، وما ذكره صاحب الكشف في موضع[٦] من أنه توفي ٧١١هـ فأظنه تصحيفاً للتاريخ الصحيح لوفاته.

وعليه نستطيع القول: إن النسفي توفي ليلة الجمعة[٧] في شهر ربيع الأول سنة ٧١٠ في إيذج ودفن فيها، وبذلك يكون قد عاش نحو ثمانين عاماً أمضاها في الدرس والفقه والتأليف.

شيوخه وثقافته:

إن الباحث في كتب التراجم والتاريخ لا يجد وصفاً مباشراً لتدرج النسفي علمياً،

---

(١) انظر: كشف الظنون: ٢/ ١٩٢٢ و١٢٧٤ و١٨٢٣ و١٨٦٧.

(٢) انظر: الدرر الكامنة: ٢/ ٢٤٧.

(٣) انظر: الفوائد البهية: ص١٠١، وقد نقل القول عنه من رسالته في الأصل في بيان الوصل والفصل.

(٤) انظر: تاج التراجم: ص٣٠.

(٥) الفوائد البهية: ص١٠١.

(٦) انظر: كشف الظنون: ص١٦٧٥.

(٧) انظر: الجواهر: ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١.

وإنما هي لمحات ومقتطفات يمكن أن تلقي الضوء على هذا الجانب من حياته، إذا ما ضم بعضها إلى بعض.

وأول ما يلفت النظر أن المصادر لم تذكر أكثر من ثلاثة شيوخ للنسفي، مما يحملنا على الظن أن ثمة شيوخاً آخرين، أغفلت الكتب ذكرهم فلم يصل إلينا شيء عنهم.

أما الثلاثة المذكورون فتربط بينهم رابطة واحدة، وهي انتماؤهم إلى أبي منصور الماتريدي في الكلام، وإلى أبي حنيفة في الفقه، فقد أشارت كتب التراجم إلى أن شمس الأئمة الكردري (شيخ شيوخه) أخذ عن صاحب الهداية[١] عن نجم الدين[٢] عمر النسفي، عن أبي اليسر[٣] البزدوي، عن أبي منصور الماتريدي، عن أبي بكر الجوزجاني[٤]، عن محمد[٥]، عن أبي حنيفة، ثم تتلمذ على الكَرْدَري شيخ

(١) هو أبو الحسن علي بن أبي بكر بن عبد الجليل برهان الدين المرغيناني (ت٥٩٣هـ)، انظر ترجمته في: تاج التراجم: ص٤٢، الفوائد: ص١٤١ ـ ١٤٣.

(٢) عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن لقمان، مفتي الثقلين، أبو حفص النسفي كان إماماً فاضلاً، أصولياً متكلماً مفسراً محدثاً حافظاً نحوياً، أحد الأئمة المشهورين بالحفظ الوافر والقبول التام عند الخواص والعوام. انظر ترجمته في: الفوائد البهية: ص١٤٩ ـ ١٥٠.

(٣) هو محمد بن محمد بن عبد الكريم بن موسى البزدوي، برع في العلوم فروعاً وأصولاً، وانتهت إليه رياسة الحنفية في بلاد ما وراء النهر ببخارى سنة ٤٩٣هـ، انظر ترجمته في: الفوائد البهية: ص١٨٨.

(٤) هو: أحمد بن إسحاق، كان عالماً جامعاً بين الفروع والأصول، وله كتاب الفرق والتمييز، وكتاب التوبة، أخذ الفقه عن محمد، انظر ترجمته في: الفوائد البهية: ص١٤.

(٥) محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني تلميذ أبي حنيفة من قرية حرستا، ولد بواسط ونشأ بالكوفة، مات بالري ١٨٩هـ. انظر ترجمته في: الفوائد البهية: ص١٦٣.

النسفي الثاني خواهرزادة الذي سنتحدث عنه بعد قليل، وحميد الدين الضرير[١]، ثم أخذ النسفي عن هؤلاء الثلاثة، وتأثر بآرائهم وأفكارهم ومنهجهم.

وعلى هذا فقد بدا واضحاً أن النسفي تتلمذ على[٢]: شمس الأئمة الكردري، وابن أخته خواهرزادة، وحميد الدين الضرير.

١ ـ شمس الأئمة الكردري[٣]:

هو محمد بن عبد الستار بن محمد العمادي الكَرْدَري، ولد سنة تسع وتسعين وخمس مئة، وكنيته أبو الوَجْد، أستاذ كبير قرأ بخوارزم، ورحل إلى ما وراء النهر، وتفقه بسمرقند، كما سمع التفسير والحديث، وأحيا علم الأصول والفقه، تفقَّه عليه خلق كثير منهم العلامة بدر الدين محمد بن محمود بن عبد الكريم الكردري، كان حنفي المذهب، وكتب رسالة ردّ فيها على الغزالي تشنيعه على أبي حنيفة، ولم تذكر المصادر من مؤلفاته غير هذه الرسالة. توفي ببخارى سنة اثنتين وأربعين وست مئة.

٢ ـ بدر الدين خواهر زادة[٤]:

هو محمد بن محمود بن عبد الكريم الكردري، ابن أخت شمس الأئمة، ربّاه خاله وتتلمذ عليه، توفي سنة إحدى وخمسين وست مئة.

---

(١) وهو شيخ النسفي أيضاً، انظر: الفوائد البهية: ص١٠١.

(٢) ذكر اللكنوي في الفوائد أسماء شيوخه قال: «تفقه على شمس الأئمة الكَرْدَري، وعلى حميد الدين الضرير، وبدر الدين خواهر زادة». انظر: الفوائد: ص١٠١.

(٣) انظر: ترجمته: الجواهر: ١/ ٨٤، الفوائد البهية: ص١٧٦ ـ ١٧٧ و٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٤) خواهر زادة لقب لاثنين من العلماء أحدهما محمد بن الحسين البخاري، وهذا، انظر ترجمته في: الجواهر: ١/ ١٣١، الفوائد: ص٢٠٠.

٣ ـ حميد الدين الضرير[١]:

وهو علي بن محمد بن علي، حميد الدين الضرير الرامشي، ولد في بخارى ولكن لم تعرف سنة ولادته، وانتهت إليه رياسة العلم في إقليم ما وراء النهر، فبرع في الفقه والأصول، والحديث، والتفسير، والجدل، والكلام، تفقه عليه عدد لا بأس به من العلماء، وترك مؤلفات[٢] جليلة منها: حاشية على الهداية في الفقه، وشرح المنظومة النسفية، وشرح الجامع الكبير، والمنافع في فوائد النافع.

توفي سنة ست وستين وست مئة، وصلى عليه الإمام النسفي في الصحراء، ووضعه في قبره بوصية له، وقد حضر الصلاة عليه قريب من خمسين ألف رجل.

أما ما ذكر في بعض[٣] المصادر من أن النسفي روى الزيادات عن العتابي، وأخذ عنه، فهو أمر لا يسلم بالنظر والتدقيق ولا يمكن التسليم به، فكتب التراجم تذكر أن[٤] العتابي توفي ٥٨٦هـ في بخارى، على حين أن النسفي ـ وكما رأينا في حياته ـ توفي سنة ٧١٠هـ، وهذا يقتضي أن يكون النسفي معمَّراً، وأن يزيد عمره على مئة وأربعين سنة، إلا أننا لا نجد في أي مصدر من مصادر ترجمته أنه كان معمراً، مما يجعلنا نستبعد قول من قال: روى الزيادات عن العتابي، اللهم إلا أن يكون قد رواها عن شيخه شمس الأئمة الكردري الذي رواها عن العتابي، لا عن العتابي مباشرة، فقد ذكر الإمام عبد[٥] القادر في طبقاته أن الكردري روى الزيادات عن العتابي.

---

(١) انظر ترجمته في: الجواهر المضيئة: ٢/ ٣٧٣، الفوائد البهية: ص١٢٥.

(٢) ما زالت جميع مؤلفاته مخطوطة.

(٣) انظر: الفوائد البهية: ص١٠٢، الجواهر: ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٤) انظر: الجواهر: ١/ ١١٤، كشف الظنون: ص٩٦٣.

(٥) انظر: الجواهر المضيئة: ١/ ١١٤.

تلامذته:

أغفلت كتب التراجم التي ترجمت له ذكر تلامذته الذين تتلمذوا عليه، وأخذوا عنه، فعلى الرغم مما قيل عنه، وأنه علامة الورى، مفتي الشرق والصين، وارث الأنبياء والمرسلين، لم نظفر إلا باسمين اثنين قيل إنهما من تلامذته الذين تفقهوا عليه، وهما:

١ ـ السغناقي[١]:

الحسين بن علي بن حجاج بن علي، لقب حسام الدين، إمام فقيه، جدلي، لغوي، تفقه على حافظ الدين الكبير محمد بن محمد ابن نصر البخاري، وعلى فخر الدين محمد بن الياس المايمرغي، وسمع من[٢] النسفي، وشرح الهداية وفرغ منها في ربيع الأول سنة ٧٠٠هـ، كما شرح التمهيد في قواعد التوحيد لأبي المعين ميمون بن محمد المكحولي، والكافي شرح أصول البزدوي[٣].

دخل بغداد، ثم توجه إلى دمشق حاجاً فدخلها سنة ٧١٠هـ، واجتمع بقاضي القضاة ناصر الدين محمد بن عمر بن العديم، وأجاز له جميع مروياته ومسموعاته، تفقه عليه قوام الدين محمد بن محمد بن أحمد الكاكي صاحب معراج الدراية شرح الهداية، والسيد جلال الدين الكرلاني صاحب الكفاية.

توفي سنة أربع عشرة وسبع مئة في حلب[٤].

---

(١) نسبة إلى سغناق بلدة في تركستان.

(٢) انظر: الجواهر: ٢/ ٣٦٧، الفوائد البهية: ص١٠٢، تاج التراجم: ص٣٠، الدرر الكامنة: ٢/ ٢٤٧، الجواهر: ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٣) ما زالت مؤلفاته مخطوطة.

(٤) انظر ترجمته في: الجواهر: ١/ ٢١٣، الفوائد: ص٦٢.

٢ ـ محمد بن محمد الجيلي:

لم أعثر على ترجمة له، إلا أنني وجدت في مفتاح السعادة أنه من تلامذة أبي البركات النسفي قال طاشكبري زادة: «ومن شروح المنار جامع الأسرار وهو شرح نفيس في الغاية، إلا أنا لم نعرف مصنفه غير أني رأيت في ذيل بعض النسخ أن اسمه محمد بن محمد الجيلي وأنه من تلامذة حافظ الدين النسفي»(١).

وبعد معرفة شيوخه وتلامذته، يمكننا أن نحدد العلوم التي برع فيها النسفي، والتي أخذها عن شيوخه، وحملها إلى طلابه، والتي تمثلت في علوم الفقه، والأصول، والكلام، والتفسير، والحديث، وقد ترك في كل فن من هذه الفنون مؤلفات جليلة ضمنت له الشهرة العلمية في عصره، وفي العصور اللاحقة.

مذهبه الفقهي والكلامي:

سلفت الإشارة إلى أن النسفي تابَعَ أستاذه الكردري في موافقة أبي حنيفة في الفقه، وهذا ما أكده جميع من ترجم(٢) له، كما أكدته كتبه(٣) الفقهية وبشكل خاص كنز الدقائق الذي جعله خالصاً في الفقه الحنفي، كما يؤكد حنفية مذهبه آراؤه الفقهية التي بثها في تفسيره، كلما تعرض لآية من آيات الأحكام وإن لم يشر إلى أبي حنيفة، بل أشار إلى رأيه الفقهي وخلافه مع الشافعي، وبالعودة إلى كتب الأحكام وجدنا أن كل ما تبناه هو مذهب أبي حنيفة، حتى بات من اليسير القطع بأنه كلما قال: خلافاً للشافعي، فهو يقصد رأي أبي حنيفة لا غيره، ومن أمثلة ذلك ما قاله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ

---

(١) مفتاح السعادة: ٢/ ٥٧.

(٢) انظر: الدرر الكامنة: ٢/ ٢٤٧، الفوائد البهية: ص١٠١.

(٣) انظر مثلاً: منار الأنوار وشرحه الكشف ـ المصفى، والمستصفى.

﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[البقرة: ١٧٨] قال: «والشافعي رحمه الله قال: لا يُقْتَل الحر بالعبد لهـذا النص، وعندنا يجري القصاص بين الحر والعبد بقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾[المائدة: ٤٥] كما بين الذكـر والأنثـى، وبقـوله عليـه الصـلاة والسلام: «المُسلمون تتكَافَأُ دِماؤُهم»[١]، وبأن التفاضل غير معتبر في الأنفس بدليل أن جماعةً لو قَتَلوا واحـداً قُتِلوا به، وبأن تخصـيص الحكم بنـوع لا ينفيه عن نوع آخر، بل يبقى الحكم فيه موقوفاً على دليل آخر»[٢].

وما قاله: «عنه» «وعندنا» هو رأي أبي حنيفـة كمـا أشـارت إلى ذلك كتب الأحكـام[٣]، وهـذا ما نراه أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾[البقرة: ١٩٦].

قال: «وعندنا[٤] الإحصار بكل منع، من عدو أو مرض. أو غيرهما لظاهر النص، وقد جاء في الحديث: «من كسر أو عرج فقد حل»[٥]؛ أي: جاز له أن يحل، وعليه الحج من قابل، وعند الشافعي رحمه الله: الإحصار بالعدو وحده»[٦].

(١) أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم عن طريق قيس بن عباد عن علي، وابن ماجه عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جـده وزاد: «ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يـد على من سواهم». الحديث في جامع الأصول: ١٠/ ٢٥٥، رقم الحديث (٧٧٨) وتخريجه ثمة.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٩١.

(٣) انظر: أحكام القرآن: ١/ ٦٤.

(٤) وهو رأي أبي حنيفة، وقد ضعفه مالك رحمه الله، انظر: أحكام القرآن: ١/ ١٢٠ ـ ١٢١.

(٥) أخرجه أصحاب السنن وأحمد وإسحاق، وابن أبي شيبة، والطبراني من حديث عكرمة بن عمر بن خزيمـة الأنصـاري، والحـديث في جامـع الأصـول: ٣/ ٣٩٢، رقم الحديث (١٧٠٩) وتخريجه ثمة.

(٦) تفسير النسفي: ١/ ١٠٠.

أما نزعته الكلامية فتبدو واضحة أيضاً في تفسيره، وفي مؤلفاته[١] في أصول الكلام، والتي تشير إلى تأييده لمذهب أبي منصور الماتُريدي رحمه الله.

فقد بدا من خلال تفسيره ومؤلفاته الأخرى أنه يرى أن الإيمان إقرار بالقلب وتصديق بالجنان خلافاً لما رآه المعتزلة[٢]، ولما رآه الأشعري[٣] من السنة، كما يرى أن الاستثناء في الإيمان غير جائز خلافاً للأشعري يقول: «ولا يصح أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله، كما لا يجوز أن يقول: أنا حي إن شاء الله، أو أنا شاب إن شاء الله، وهذا لأن الاستثناء إنما يلحق فيما يُشَكُّ ثبوته في الحال أو في معدوم على حظر الوجود، لا في ما هو ثابت في الحال قطعاً»[٤].

وبما أن الإيمان تصديق العبد، فهو لا يزيد ولا ينقص[٥] عنده خلافاً للأشاعرة، كما يرى كغيره من الماتريدية أن تكليف ما لا يطاق غير جائز واحتج لذلك بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦] وبقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[البقرة: ٢٨٦] قال: «تكليف ما لا يطاق غير جائز، وقال الأشعري: يجوز ذلك. لنا قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: طاقتها، ولأن تكليف العاجز بالعقل سفه في الشاهد كتكليف الأعمى النظر، فكذا في الغائب، ولأن فائدة التكليف الأداء عند المعتزلة، والابتلاء كما هو مذهبنا

---

(١) عمدة العقائد، الاعتماد في الاعتقاد ـ عمدة عقيدة أهل السنة.

(٢) الذين قالوا: الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالجنان وعمل، انظر: الكشاف: ١/ ٢٢، وتفسير النسفي: ١/ ١٣.

(٣) إذ يرى الأشعري أن الإيمان هو التصديق، انظر: عمدة عقيدة أهل السنة: ورقة ٢١.

(٤) اعتماد الاعتقاد: ورقة ١٨٣.

(٥) انظر: عمدة عقيدة أهل السنة: ورقة ٢٢.

(الجماعة) وهذا لا يتصور مع ما لا يطاق»[1].

أما العقل عنده فهو آلة يعرف بها حسن الأشياء وقبحها، ووجوب الإيمان وشكر المنعم، والفرق بين قولنا وقول المعتزلة: أنهم يقولون العقل موجب بذاته، كما يقولون: إن العبد موجد لأفعاله، وعندنا العقل آلة للمعرفة، والموجب هو الله تعالى حقيقة، ولكن بواسطة العقل، كما أن الرسول معرِّف للوجوب، والموجب هو الله تعالى حقيقة لكن بواسطة الرسل، ووجوب الإيمان بالعقل مروي عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ، فقد ذكر الحاكم الشهيد[2] في المنتقى أن أبا حنيفة قال: لو لم يبعث الله رسولاً، لوجب على الخلق معرفته بعقولهم، وعليه مشايخنا من أهل الجماعة، حتى قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ في الصبي العاقل: إنه يجب عليه معرفة الله تعالى[3].

وقال الأشعري: لا يجب[4]، ولا يحرم بالعقل شيء، ولكن يجوز أن يعرف به حسن بعض الأشياء وقبحها، فعنده جميع الأحكام المتعلقة بالتكليف من جهة السمع لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥] بينما يرى النسفي أن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل[5].

---

(١) اعتماد الاعتقاد: ورقة ١٧١، انظر: كشف الأسرار: ١/ ١١١، وعمدة عقيدة أهل السنة: ورقة ٢٠.

(٢) هو عمر بن عبد العزيز بن مازه، أبو محمد حسام الدين، استشهد سنة ٥٣٦هـ بعد معركة قطوان بسمرقند، انظر ترجمته: الفوائد البهية: ص١٤٩.

(٣) اعتماد الاعتقاد: ورقة ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٤) عمدة عقيدة أهل السنة: ورقة ٢١.

(٥) انظر: تفسير النسفي: ٤/ ٢٧٥.

كما يرى خلافاً للأشـعري أن الذكورة شرط للنبوة قال: «أعلم أنه لابد أن يكون النبي ﷺ ذكراً خلافاً للأشعري، لأن الأنوثة تنافي الاشتهار والدعوة، لأن النساء أمرن بالقرار في البيوت، والنبوة تقتضي الاشتهار بالدعوة، وإظهار المعجزة»[١].

وهنالك آراء أخرى خالف بها الأشاعرة، وسنتعرض لذكرها بالتفصيل في حديثنا عن مبدئه الفكري من خلال تفسيره.

* * *

(١) اعتماد الاعتقاد: ورقة ١١٦، انظر: الملل والنحل للشهرستاني: ٥/ ١٩.

الفصل الثاني

مؤلفاته وشروحها

مؤلفاته وشروحها:

خَلَّفَ النسفي كثيراً من الكتب التي تنوعت موضوعاتها، فكانت في الفقه، والأصول والتفسير وعلم الكلام، وبرزت من خلالها بشكل واضح ثقافته وغزارة علمه، وهذه المؤلفات كلها كما قال عنها اللكنوي: «نافعة عند الفقهاء، مطروحة لأنظار العلماء»[1].

إلا أن هـذه المؤلفات، لم تحظ بالعنايـة التي يجب أن تحظى بها أمثالها، إذ ترك ما يقرب من اثنين وعشرين كتاباً، ولم يطبع منها إلا ستة كتب، على حين فُقِدَ معظمها، وما زال بعضها الآخر مخطوطاً.

والملاحَظُ على كتبه هذه التشابه في الموضوعات، والتقارب في الترتيب، ففي كتبـه الفقهيـة مثلاً عكف على ذكر مبـادئ المـذهب الحنفي، وفي كتبه في علم الكلام يبدو التشابه أكثر وضوحاً حتى ليصعب الفصل بينها، فما أكده في كتابه العمدة وشرحه وتلخيصه، يؤكده مرة أخرى في كتابه الآخر بحر الكلام، وهو في هذه الكتب كلها يؤكد مذهبه الماتريدي، فتعريفه للإيمان، وعدم جواز الاستثناء فيه، وجواز رؤية المؤمنين اللهَ يومَ القيامة، وتفضيل رسل البشر على رسل الملائكة، وحدوثُ العالم، وعدم جواز تكليف المرء ما لا يطيق تشكل الأسس العامة لكتبه

---

(١) الفوائد البهية: ص١٠١.

الكلامية كلها مفصلة حيناً، موجزة حيناً آخر.

وهذه المؤلفات هي:

أولاً ـ مؤلفاته المطبوعة:

١ ـ بحر الكلام:

هو كتاب صغير في أصول الكلام، تحدث فيه عن جواز رؤية الله يوم القيامة، ومعنى الإيمان، وهل يجوز الاستثناء فيه، كما تحدث عن صحة أمر الخلفاء الراشدين، وغير ذلك من المسائل التي ألفت قوام كتب النسفي في علم الكلام.

والكتاب مطبوع[١]، ولم أقف عليه، وإنما اطلعت عليه مخطوطاً[٢].

٢ ـ عمدة عقيدة أهل السنة والجماعة:

اختصر فيه النسفي كتابه العمدة ـ وسيأتي ذكره في المخطوطات ـ جمع فيه أصول عقيدة أهل الجماعة، والكتاب مطبوع[٣] بعناية الأستاذ كيورتن، ومعه عقائد[٤] نجم الدين النسفي المتوفى سنة ٥٣٧هـ.

وقد وَهِمَ الدكتور صالح العلي فظن أن ما طبعه الأستاذ كيورتن تحت هذا

---

(١) ذكر في فهرس مخطوطات جامعة الملك سعود: ص٢٣ أن الكتاب مطبوع، ولم أقف عليه، إنما اطلعت عليه مخطوطاً في الرياض، جامعة الملك سعود.

(٢) رقم المخطوطة $\frac{١١٣٠}{٣م}$ (ن ٢١ أ ـ ٢٩ أ).

(٣) في لندن (١٨٤٣م).

(٤) هو أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد النسفي بن إسماعيل بن محمد بن لقمان مفتي الثقلين، نجم الدين أبو حفص النسفي، كان إماماً فاضلاً، متكلماً ومفسراً، محدثاً وفقيهاً، حافظاً ونحوياً ـ له كتاب العقائد وهو كتيب صغير جمع فيه مبادئ الماتريدية بشكل مختصر، وقد طبع الكتاب مع عمدة أبي البركات. انظر ترجمته: الفوائد: ص١٤٩، تاج التراجم: ص٤٧.

الاسـم هو كتاب الاعتمـاد في الاعتقاد، إلا أن الأستاذ كيورتن سمّاه باسم عمدة عقيدة أهل السنة فقال الدكتور صالح العلي: «الاعتماد في الاعتقاد في العقائد من مخطوطات القرن التاسع للهجرة، طبع هذا الكتاب باسم عمدة عقيدة أهل السنة باعتناء الأستاذ كيورتن»[١].

وقول الدكتور العلي هذا يخالف ما بين أيدينا من آثار، فقد وجدت مخطوطين للنسفي أحدهمـا عمدة عقيدة أهل السنـة وهو الذي طبعه الأستاذ كيورتن بالاسم نفسه، وهو مختصر لكتاب العمدة، والثاني الاعتماد في الاعتقاد وهو شرح لكتاب العمدة، مما يعني أن النسفي اختصر العمدة وشرحها وما طبعه كيورتن هو مختصر العمدة فقط.

٣ ـ كشف الأسرار شرح المصنف على المنار:

وهو كما يبدو من اسمه شرح وضعه النسفي لكتابه المنار لخّص فيه أصول الفقه لفخر الإسلام[٢] وشمس الأئمة السرخسي[٣]، فأوضح ما غمض من المنار، بعد أن أكثروا معاودته من أجل ذلك[٤].

والكتاب مطبوع في جزأين[٥].

---

(١) المستدرك: ص١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢) هو علي بن محمد بن الحسين بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن مجاهد، أبو الحسن فخر الإسلام البزدوي الفقيه، له كتاب المبسوط، وشرح الجامع الكبير والجامع الصغير، وكتاب أصول الفقه. انظر ترجمته: تاج التراجم: ص٤١.

(٣) هو محمد بن أحمد بن أبي سهل. أبو بكر السرخسي شمس الأئمة صاحب المبسوط، كان متكلماً مناظراً، وأصولياً مجتهداً، انظر ترجمته: تاج التراجم: ص٥٢، الفوائد البهية: ص١٥٨.

(٤) انظر: مقدمة كشف الأسرار: ص٤ ـ ٥.

(٥) وبهامشه نور الأنوار طبعة أولى في جزأين، بيروت دار الكتب العلمية.

٤ ـ كنز الدقائق:

وهذا المؤلف متن مشهور في الفقه، أشار النسفي إلى هدف تأليفه لهذا الكتاب بقوله: «لمّا رأيت الهمم مائلة إلى المختصرات، والطباع راغبة عن المطولات، أردت أن ألخص الوافي بذكر ما عمّ وقوعه، وكثر وجوده لتكثر فائدته، وتتوفر عائدته، فشرعت فيه بعد التماس طائفة من أعيان الأفاضل وأفاضل الأعيان، مع ما بي من العوائق، وسميته بكنز الدقائق، وهو وإن خلا من العويصات والمعضلات فقد تحلّى بمسائل الفتاوى والواقعات مَعْلَماً بتلك العلامات»(١).

وقد استخدم رموزاً اختصر بها بعض الأسماء فجعل الحاء علامة لأبي حنيفة، والسين لأبي يوسف، والميم لمحمد، والزاي لزُفَر، والفاء للشافعي، والكاف لمالك، والراء لرواية أصحابه، وزيادة الطاء للاطلاقات(٢).

ويبدأ الكتاب بباب الطهارة وينتهي بكتاب الفرائض، وهو كتيب صغير، طبع عدة(٣) طبعات كان أولها في لندن(٤).

ولاقى هذا الكتاب عناية فائقة، لم تحظ بها بقية مؤلفاته، فشرحه علماء كثيرون في مختلف العصور، وهذه الشروح هي:

١ ـ إيضاح الكنز: ليحيى القَجْحَصاري، والكتاب ما زال مخطوطاً(٥).

---

(١) مقدمة كنز الدقائق: ص١.

(٢) انظر: كشف الظنون: ص١٥١٥.

(٣) أقدمها طبعة لندن (١٨٤٣م) ـ المطبعة العامرة الشرقية (١٣٠٩هـ) مع شرح المستخلص والعيني، وفي دهلي مع شروح على الهامش سنة (١٢٨٧هـ)، وفي بومباي سنة (١٢٩٤هـ)، انظر: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية فقه حنفي: ٢/ ١٢٠.

(٤) باعتناء الأستاذ كيورتن، انظر: المستدرك د. صالح العلي: ص٦٢.

(٥) انظر: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: ١/ ٨٨، رقم المخطوط (٩٠٣٣).

٢ ـ البحر الرائق في شرح كنز الدقائق: للعلامة زين العابدين بن نُجيم المصري (ت٩٧٠هـ)، قيل إن صاحبه وصل في شرحه للكنز إلى باب الدعوى[١] فقط، ولكن النسخ المتداولة تشير إلى أنه بلغ إلى باب الإجارة، ثم تابع الطوري[٢] هذا الشرح وأكمله، والكتاب مطبوع في ثمانية[٣] أجزاء، والجزء الثامن منه هو تكملة الطوري للشرح. ويبدأ بكتاب الإجارة وينتهي بكتاب الفرائض[٤].

٣ ـ تبيين الحقائق على كنز الدقائق: للشيخ فخر الدين أبو محمد عثمان بن علي الزيلعي المتوفى سنة ٧٤٣هـ، وهو أحسن شروح الكنز، إلاّ أن صاحبه أطال في ذكر الخلافيات، ولم يفصح عن منطوقه ومفهومه. والكتاب مطبوع[٥].

٤ ـ تجريد الفرائد الرقائق في شرح كنز الدقائق:

وهو شرح ألفه أبو العباس أحمد بن يونس الشلبي المتوفى سنة ٩٤٧هـ، ثم قام بجمعه محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن يونس الشهير بابن الشلبي من علماء القرن الحادي عشر[٦].

٥ ـ رمز الحقائق: وهو شرح مختصر للكنز، ألفه القاضي بدر الدين محمود

---

(١) انظر: كشف الظنون: ص١٥١٥.

(٢) هو: محمد بن حسين بن علي الطوري الحنفي القادري توفي بعد سنة (١١٣٨هـ)، انظر ترجمته: هدية العارفين: ٢/ ٢٠٢.

(٣) دار المعرفة طبعة أولى، لم تذكر سنة الطبع.

(٤) انظر: الجزء الثامن من الطبعة السابقة.

(٥) دار المعرفة، بيروت.

(٦) انظر: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، فقه حنفي ١/ ١٣٣، رقم المخطوط (٢٥٤٢) فقه حنفي (٩٦).

ابن أحمد بن موسى العيني المتوفى سنة ٨٥٥هـ[١].

٦ ـ شرح كنز الدقائق: لملاّ مسكين معين الدين الهروي المتوفى سنة ٩٥٤هـ، انتهى المؤلف من تأليفه عام ٩٠٣هـ في شهر ربيع الآخر[٢].

٧ ـ شرح الكنز: لعبد الرحمن بن محمد بن محمد الحسيني المعروف بابن حمزة وابن النقيب المتوفى سنة ١٠٨١هـ[٣].

٨ ـ كشف الحقائق على كنز الدقائق: لأبي بكر بن إسحاق، والكتاب مازال مخطوطاً[٤].

٩ ـ كشف الحقائق عن أسرار كنز الدقائق: وهو من تصنيف محمد بن محمد ابن سلطان الدمشقي المتوفى سنة ٩٥٠هـ، وكان الفراغ من تصنيفه في شوال سنة ٩٤١هـ[٥].

١٠ ـ النهر الفائق شرح كنز الدقائق لعلي المقدسي[٦].

١١ ـ النهر الفائق شرح كنز الدقائق[٧]: لسراج الدين عمر بن إبراهيم بن

---

(١) قيل: مطبوع، انظر: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، فهرس مخطوطات الجمهورية اللبنانية، فهرس مخطوطات الخزانة العمرية في مكتبة المتحف العراقي في بغداد: ص٣٥٩.

(٢) مخطوط وناسخه محمد بن علي الخياط بن محمد العربي. انظر: فهرس المخطوطات في الكونغرس: ص١٩ ـ ٢٠.

(٣) انظر: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية فقه حنفي: ١/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥.

(٤) انظر: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية فقه حنفي (٣٣١) رقم المخطوط ٢٦٣٥.

(٥) انظر: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية فقه حنفي (٩٨) رقم المخطوط ٢٥٤٤.

(٦) انظر: أسماء الكتب: ص٣١٣.

(٧) انظر: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية فقه حنفي: ٢/ ٢٦٧ رقم المخطوط ٦١٥١.

محمد الشهير بابن نجيم المتوفى ١٠٠٥هـ.

٥ ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل:

وهو تفسير مختصر للقرآن الكريم، طبع أكثر من طبعة[١]، إلا أنه لم يحظ بعناية القدماء وشروحهم كما حظي[٢] غيره من التفاسير، فلم نجد لهذا التفسير إلا مختصراً واحداً للشيخ زين الدين أبي محمد عبد الرحمن بن أبي بكر ابن العيني وزاد[٣] فيه، وهذا التفسير هو مدار بحثنا.

٦ ـ منار الأنوار:

وهو كتاب في أصول الفقه، قال عنه صاحب كشف الظنون: «هو متن متين جامع مختصر نافع، فيما بين كتبه المبسوطة ومختصراته المضبوطة، أكثرها تداولاً، وأقربها تناولاً، وهو مع صغر حجمه، ووجازة نظمه بحر محيط بدرر الحقائق، وكنز أودع فيه عقود الدقائق، ومع هذا لا يخلو من نوع من التعقيد والحشو والتطويل[٤] شرح فيه قواعد الفقه الحنفي مختصراً أصول الفقه لفخر الإسلام

---

(١) الطبعة الأولى في وزارة المعارف القاهرة (٣) مجلدات (١٩٤٢م) تصحيح وضبط محمود أحمد البطراوي وشرف الدين محمود خطاب ـ الطبعة الثانية في دمشق المكتبة الأموية مجلدان، وثالثة مع تفسير الخازن دار الفكر بيروت (٤) أجزاء ورابعة: بيروت دار الكتاب العربي (٤) أجزاء وغيرها.

(٢) كتفسير الكشاف وتفسير البيضاوي وما ألف حولهما من حواش وشروح.

(٣) أضاف صاحب كشف الظنون: «رأيت في ترجمة برهان الدين محمد بن محمد النسفي (ت٦٨٧هـ) أنه اختصر المدارك، ولعله مدارك التنزيل على ما يقتضيه التاريخ». كشف الظنون: ص١٦٤٠.

(٤) كشف الظنون: ص١٨٢٣ ـ ١٨٢٥.

وشمس الأئمة[١] السرخسي.

والكتاب مطبوع، إلا أنني لم أعثر على نسخة مطبوعة مفردة له، بل وجدته مطبوعاً في ثنايا بعض شروحه وقد حصرت العبارات المأخوذة من الكتاب بين قوسين[٢].

لاقى هذا الكتاب اهتماماً خاصاً من قبل العلماء، فعكفوا على شرحه وأغلب هذه الشروح غير مطبوع، وهذه الشروح هي:

١ ـ إفاضة الأنوار على أصول المنار[٣]: لمحمد علاء الدين الحصفكي، مفتي الحنفية في دمشق.

٢ ـ إفاضة الأنوار في إضاءة أصول المنار[٤]: لمحمود الدهلوي الملقب سعد الدين أبو الفضائل.

٣ ـ جامع الأسرار في المنار: وهو شرح نفيس، إلا أن مؤلفه الأصلي غير معروف تماماً[٥]، لكن صاحب مفتاح السعادة قال: «ومن شروح المنار جامع الأسرار وهو شرح نفيس في الغاية إلا أنا لم نعرف مصنفه، غيرَ أني رأيت في ذيل بعض النسخ أن اسمه محمد بن محمد الجيلي»[٦] وهو شرح بالقول.

---

(١) مرت ترجمته ص: ٤١.

(٢) طبع مع شرحه كشف الأسرار، ومع شرحه الآخر نور الأنوار.

(٣) انظر: فهرس المخطوطات اللبنانية مخطوط برقم ٣١٦ رقم التنسيق ١/ ٩٩/ ٢٤.

(٤) انظر: أسماء الكتب: ص١٣٧، وكشف الظنون: ص١٨٢٣.

(٥) نسبه حاجي خليفة لقوام الدين محمد بن محمد بن أحمد الكاكي (ت٧٤٩هـ)، انظر: كشف الظنون: ص١٨٢٣ ـ ١٨٢٥.

(٦) مفتاح السعادة: ٢/ ٥٧.

٤ ـ سمت الموصول[١]: وهو تحرير الكافي الأقحصاري، مرتب على أحسن ترتيب ونظام.

٥ ـ شرح أكمل الدين للمنار[٢].

٦ ـ شرح منار الأنوار في أصول الفقه: للمولى عبد اللطيف الشهير بابن الملك، وبهامشه شرح الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن أبي بكر المعروف بابن العيني. وهو شرح وجيز. والكتاب مطبوع[٣].

٧ ـ شرح نور الأنوار على المنار: للشيخ أحمد المعروف بملاجيون بن أبي سعيد بن عبيدالله الحنفي، الصديقي المَيْهَوي، صاحبِ الشمس البازغة (ت١١٣٠هـ).

والكتاب مطبوع[٤]، وأراد صاحبه[٥] أن يكون شرحه موضحاً لمشكلات المنار، إذ لم يشتغل أحد من الشراح بحله، على الرغم من أنه أوجز كتب الأصول متناً وعبارة، وأشملها نكتاً ودراية.

ثانياً ـ مؤلفاته المخطوطة:

١ ـ الاعتماد في الاعتقاد:

وهو كتاب في علم الكلام، شرح[٦] فيه النسفي كتابه عمدة العقائد، الذي

---

(١) انظر: كشف الظنون: ص ١٨٢٣ ـ ١٨٢٥.

(٢) انظر: مفتاح السعادة: ٢/ ٥٧.

(٣) في استنبول لم تكتب سنة الطباعة.

(٤) في جزأين دار الكتب العلمية، طبعة أولى.

(٥) انظر: مقدمة الكتاب: ص١٠ ـ ١١.

(٦) انظر: مقدمة الاعتماد في الاعتقاد: ورقة ٢.

تناول فيه أسس عقيدة أهل السنة والجماعة، وأشار إلى آراء أبي منصور الماتريدي، وما خالف فيه الأشعري.

وما زال الكتاب مخطوطاً[١]. وقد فرغ من تأليفه بعد صلاة العصر يوم الأحد السادس والعشرين[٢] من جمادى الأولى سنة ٦٩٨هـ.

٢ ـ عمدة العقائد:

وهو كتاب ألفه النسفي على غرار عقائد أبي حفص نجم الدين النسفي المتوفى سنة (٥٢٧هـ)[٣] قال عنه حاجي خليفة: «يحتوي على أهم قواعد علم الكلام، تكفي لتصفية العقائد الإيمانية في قلوب الأنام»[٤].

وقد أدرك النسفي نفسه حاجة هذا الكتاب للشرح والتوضيح فألف شرحه المسمى بالاعتماد في الاعتقاد قال: «وهي وإن كانت مشحونة بالروايات غير خالية من الدرايات، فهي مفتقرة إلى شرح موضح للمشكلات، مبين للمعضلات، أردت أن أجمع كتاباً فيه شرح مسائلها، وبسط دلائلها[٥] بتوفيق خالق العباد، مسمى بالاعتماد في الاعتقاد»، الذي تحدثنا عنه قبل قليل.

وحظي كتاب العمدة بعناية العلماء واهتمامهم، فظهر له عدة شروح منها:

١ ـ شرح إسماعيل بن سودكين، أبو طاهر الملكي الغوري (ت٨٤٦هـ).

---

(١) له نسخة في جامعة الملك سعود، رقم المخطوط ٢١٠٧ ويقع في ٢٥٨ ورقة.

(٢) انظر: مقدمة عمدة عقيدة أهل السنة: ص٧١.

(٣) مرت ترجمته: ص٤٠.

(٤) كشف الظنون: ص١١٦٨.

(٥) مقدمة الاعتماد في الاعتقاد: ورقة ٢.

٢ ـ الانتقاد في شرح عمدة الاعتقاد[1]: لأحمد بن أغوزد أنشمند الأقشهري الحنفي، من أعيان المئة الثامنة، وهو شرح حسن.

٣ ـ شرح جمال الدين محمود بن أحمد القونوي، وسماه بالزبدة[2] (ت٧٧٠هـ).

٤ ـ شرح شمس الدين محمد بن إبراهيم النكساري (ت٩٠١هـ[3]).

٥ ـ شرح شمس الدين محمد بن يوسف بن الياس الرومي القونوي (ت٧٨٨هـ)[4].

ونظمه أبو الفضائل أحمد بن أبي بكر المرعشي الحلبي الحنفي (ت٨٧٠هـ)، وزاد عليه، كما شرحه آخرون بالقول منهم: خليل بن علي بن عبدالله البخاري الحنفي[5]. وكتاب العمدة ما زال مخطوطاً[6].

٣ ـ الكافي في شرح الوافي:

وهو كتاب في الفقه الحنفي، شرح فيه مؤلفه كتابه الوافي ـ وسنتحدث عنه في الكتب المفقودة ـ أشار النسفي إلى الغاية من تأليفه قال: «لمّا فَرَغْتُ من المختصر المسمى بالوافي، أردت أن أشرحه شرحاً أرسمه بالكافي على وجه يكون

---

(١) انظر: كشف الظنون: ٢/ ١١٦٨.

(٢) انظر: كشف الظنون: ٢/ ١١٦٨.

(٣) انظر: كشف الظنون: ٢/ ١١٦٨.

(٤) انظر: كشف الظنون: ٢/ ١١٦٨.

(٥) انظر: كشف الظنون: ٢/ ١١٦٨.

(٦) له نسخة في مكتبة معهد التراث رقم ١٨ مجموع ١٨٨٦، انظر: فهرس المخطوطات المصورة.

مغنياً عن المطولات، حاوياً لوجوه الاستدلالات، مفرِّعاً لما أُبْهِمَ في الهداية من النكات»[١].

وما زال الكتاب مخطوطاً[٢].

٤ ـ المستصفى في شرح الفقه النافع:

وقد يسمّى بالمنافع في شرح النافع أيضاً[٣]، وهو يتضمن أبحاثاً طويلة في العقائد والتوحيد، والأصول الإسلامية شرح فيه (النافع في الفروع)، للإمام محمد ابن يوسف الحسيني المدني السمرقندي الحنفي (ت٦٥٦هـ)، وقد ألفه المصنف عام ٦٦٥هـ، وأشار صاحبه إلى بعض المصطلحات الواردة فيه فقال: «ما ورد فيه من ذكر الأستاذ فالمراد به مولانا حميد الدين[٤]، وما وقع فيه من ذكر المبسوط فالمراد مبسوط السرخسي[٥]، وكله منقول عن المبسوط والإيضاح، ولأبي بكر بن محمود الهادي المبادي شرح النافع وما وقع فيه من ذكر العلامة فالمراد به الإمام شمس الأئمة الكَرْدَري»[٦].

---

(١) مقدمة الكافي: ورقة ١.

(٢) انظر: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية فقه حنفي ٢/ ٩٨، والمستدرك د. صالح العلي: ص١٢٠، وقد نسخه محمد بن مؤمن بن محمد أمين بن قاسم بن حيدر الفقيه الحنفي عام ١٠٩٧هـ. له نسخ كثيرة. انظر: فهرس مخطوطات الكتب الظاهرية، فقه حنفي مجلد ٢/ ٩٨ تحت رقم: ٩٦٨٤ ـ ٢٥٧٩، فقه حنفي ١٣٤ رقم ٧٨٩٨ و٩٨٤٥ و٢٥٨٠ ونسخ أخرى.

(٣) انظر: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، فقه حنفي ٢/ ٩٨ وهناك صورة لها في مكتبة الأسد تحت هذا الرقم.

(٤) مرت ترجمته في حديثنا عن شيوخه.

(٥) مرت ترجمته في ص٤١.

(٦) مرت ترجمته ص٣٠.

جمع فيه المؤلف ما أخذه من شرح علي البخاري، وضمَّ إليه ما يليق ذكره من الكتب المبسوطة[١] ألفه النسفي بإشارة أستاذه حميد الدين وتلبية لرغبته قال:

«فإن كتاب النافع في كثرة جواهره ودرروه، لكنه محتجب لدقة إشاراته، ومنقب لغموض استدلالاته، وقد رفع حجابَه وكشف نقابَه شيخُ الإسلام الأستاذ الكبير العالم النحرير، إمام الأمة، محقق الأئمة، محي السنة، وحيد دهره مولانا حميد الدين، أشار إلي وإشارته حُكم وطاعته غُنم أَنْ أُوتِرَ ما علقت من فوائده، وأنظم ما التقطت من فوائده فأجبته إلى ذلك»[٢].

٥ ـ المصفّى في شرح المنظومة[٣]:

وهو كتاب شرح فيه النسفي منظومة[٤] أبي حفص في الخلاف، كتبه بعد الانتهاء من شرح النافع، نزولاً عند رغبة بعض إخوانه[٥].

ألف الكتاب سنة ٦٧٠هـ[٦]، وَوُجِدَت نسخة منه مكتوبة في حياة المؤلف،

---

(١) علي البخاري هو: علي بن محمد بن علي حميد الدين الضرير، مرت ترجمته. انظر: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية فقه حنفي ٢/ ١٧٠.

(٢) مقدمة الكتاب: ورقة ١.

(٣) الفوائد البهية: ص١٠١.

(٤) كتاب المنظومة في الخلاف لأبي حفص النسفي أولها:

باسم الإله رب كل عبد ... والحمد لله ولي الحمد

رتبت على عشرة أبواب، أتمها في صفر ٥٠٤هـ، عدد أبياتها ٢٦٦٩ بيتاً، لها عدة شروح، انظر: كشف الظنون: ص١٨٦٧.

(٥) انظر: كشف الظنون: ص١٨٦٧.

(٦) انظر: نوادر المخطوطات في مكتبات تركيا: ٣/ ٢٣، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: رقم المخطوط ٢٥٤٨، فقه حنفي ١٠٢ ولها نسخة موجودة في =

كتبها خليل بن شهاب بن إسماعيل البالوي سنة ٧٠١هـ بمدينة ملطية[١].

ثالثاً ـ مؤلفاته المفقودة:

ثمة طائفة من كتب النسفي، أشارت إليها المصادر، أو نبّه عليها النسفي نفسه في أثناء كتبه، إلا أننا لا نعرف عنها شيئاً، ولم نستطع الوقوف عليها مطبوعة أو مخطوطة فرجحنا أن تكون مفقودة، إلا أن تظهر للناس من بعد.

وهذه الكتب هي:

١ ـ أصول الفقه:

وهو كتاب في أصول الفقه أشار إليه في تفسيره، أثناء تفسير قوله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[الحشر: ٢٠].

عند عرضه لما يتعلق بالآية من أحكام فقهية قال: «وقد استدلت الشافعية بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر، وأن الكافر لا يملك مال المسلم بالاستيلاء، وقد أجبنا عن مثل هذا في أصول الفقه والكافي»[٢].

٢ ـ أصول الكلام:

كذلك أحال عليه في تفسيره قال في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[الأنبياء: ٢٢] «والمعنى لو كان يدبر أمر السموات والأرض آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا؛ أي: لخربتا لوجود التمانع، وقد قررناه في أصول الكلام»[٣].

= مكتبة الأسد تحت هذا الرقم.

(١) انظر: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: ٢/ ١٢٠ رقم المخطوط ٢٦٥٢.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٢٤٤.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ٧٥.

٣ ـ شرح منتخب الأخسيكثي:

وهو شرح مطول.

٤ ـ شرح منتخب الأخسيكثي:

وهو شرح آخر للمنتخب مختصر، ذكرها اللكنوي في كتابه فقال: «من تصانيفه المدارك وشرحان على منتخب الأخسيكثي»[1]، كما ذكرهما حاجي خليفة في كتابه فقال في حديثه عن المنتخب: «وشرحه الإمام حافظ الدين عبدالله بن أحمد النسفي وهو شرح مختصر نافع، وله شرح آخر مطول»[2] وذكرهما صاحب الهدية أيضاً[3].

٥ ـ شرح آخر على المنار غير الكشف:

انفرد بذكره اللكنوي فقال: «وذكر أن من تصانيفه المدارك في التفسير، وشرحان على منتخب الأخسيكثي، وشرحان على المنار أحدهما الكشف، والثاني ألطف منه»[4].

٦ ـ شرح منظومة قيد الأوابد:

ذكره في مقدمة شرح العقائد النسفية: «من أعمال نجم الدين النسفي الإشعار بالمختار من الأشعار، وهو من عشرين جزءاً، ومنظومة قيد الأوابد في الفقه وقد شرحها كثيرون منهم: الخطاب بن أبي القاسم القره حصاري وأبو البركات حافظ

---

(١) الفوائد البهية: ص١٠١، والمنتخب كتاب في أصول الفقه واسمه الكامل: المنتخب في أصول المذهب لحسام الدين محمد بن محمد بن عمر الأخسيكثي المتوفى (٦٤٤هـ)، انظر: كشف الظنون: ص١٨٤٨ ـ ١٨٤٩.

(٢) انظر: كشف الظنون: ص١٨٤٨ ـ ١٨٤٩.

(٣) انظر: هدية العارفين: ١/ ٤٦٤.

(٤) الفوائد البهية: ص١٠١.

الدين النسفي. . . وله منظومة الخلافيات في الفقه»[١].

٧ ـ فضائل الأعمال:

أشار إلى هذا الكتاب صاحب هدية العارفين[٢]، وحاجي خليفة في كشف الظنون[٣] أيضاً.

٨ ـ اللآلئ الفاخرة في علوم الآخرة:

انفرد بذكره صاحب الهدية[٤].

٩ ـ المستوفى في الفروع:

ذكره حاجي خليفة[٥].

١٠ ـ المنار في أصول الدين:

انفرد بذكره صاحب الجواهر المضيئة[٦]، وربما كان هو نفسه الكتاب الذي سماه صاحب أسماء الكتب باسم: الخيار في أصول الدين[٧].

١١ ـ الوافي:

وهو متن لطيف في فروع الفقه[٨] الحنفي، ألفه النسفي على نسق الهداية،

---

(١) شرح العقائد النسفية: ص٤٥.
(٢) انظر: هدية العارفين: ١/ ٤٦٤.
(٣) انظر: كشف الظنون: ٢/ ١٢٧٤.
(٤) انظر: هدية العارفين: ١/ ٤٦٤.
(٥) انظر: كشف الظنون: ص١٦٧٥.
(٦) انظر: الجواهر: ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٧) انظر: أسماء الكتب: ص٢٣٧.
(٨) انظر: الفوائد البهية: ص١٠١.

التي كان يرغب في شرحها، لولا نصيحة العلامة تاج الشريعة[١] الذي قال له: «إن هذا العمل لا يليق بأمثالك[٢]» وقرن اسمه دائماً مع شرحه له الذي سماه بالكافي، ذكره كل من ترجم له[٣].

وإذا عدنا إلى مؤلفات النسفي المطبوعة والمخطوطة، نرى أن السبب الرئيسي لتأليف معظمها هو تلبية حاجات طلابه، أو استجابة لإشارة أساتذته، أو إخوانه، أو أعيان عصره وفضلائه، الذين طلبوا منه ذلك. ففي مقدمة تفسيره المدارك أشار هو نفسه إلى دوافع كتابته لهذا التفسير فقال: «قد سألني من تتعين إجابته كتاباً وسطاً في التأويلات، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات، متضمناً لدقائق عِلْمَيْ البديع والإشارات... وكنت أقدم فيه رِجْلاً وأؤخر أخرى استقصاراً لقوة البشر، عن درك هذا الوطر، وأخذاً لسبيل الحذر من ركوب متن الخطر، حتى شرعت فيه بتوفيق الله والعوائق كثيرة، وأتممته في مدة يسيرة»[٤].

وهو السبب الذي دفعه إلى كتابة كتابه الفقهي كنز الدقائق، فقد ألفه تلبية لرغبة بعض الأعيان كما رأينا[٥].

أما كتابه (المستصفى) فقد كتبه بإشارة أستاذه حميد الدين كما يفهم من

(١) هو: محمود بن أحمد بن عبيدالله بن إبراهيم، تاج الشريعة المحبوبي، له الوقاية والفتاوى والواقعات، وشرح الهداية، انظر ترجمته: الفوائد البهية: ص٢٠٧، وهناك خلاف في أن شارح الهدية هو نفسه صاحب الوقاية أم لا، انظر: الفوائد: ص١١٠ ـ ١١١.

(٢) الفوائد البهية: ص١٠٢.

(٣) انظر: الفوائد: ص١٠١، الدرر الكامنة: ٢/ ٢٤٧، هدية العارفين: ١/ ٤٦٤.

(٤) مدارك التنزيل: ١/ ١.

(٥) انظر: حديثنا عن كنز الدقائق.

مقالته في المقدمة[١]، واستجابة لرغبة طلابه وأبناء إقليمه.

كتب كتابه كشف الأسرار، قال: «لما رأيت الهمم مائلة إلى علم أصول الفقه الذي هو أجلّ العلوم الدينية، وأتمها في استخراج الطرائق الجدلية، لاشتماله على المعقول والمسموع، ورأيت المحصلين ببخارى وغيرها من بلاد الإسلام مائلين إلى أصول الفقه لفخر الإسلام، وشمس الأئمة السرخسي تغمدهما الله برحمته، فاختصرتهما بعد التماس الطالبين، ملتزماً إيراد جميع الأصول، مومياً إلى الدلائل والفروع، مراعياً ترتيب فخر الإسلام، ولم أزد فيه شيئاً، إلا ما كان بالزيادة حرياً، ثم إن بعض المتخلفة إلي تأملوا مصادره ونوادره، وأنعموا النظر في معاقده وقواعده، أكثروا المعاودة إلي ملتمسين شرحاً كاشفاً لعويصاته موضحاً لمعضلاته، خاتماً لما أغلق في أصول الفقه لفخر الإسلام، فأجبتهم إلى ذلك وسميته بكشف الأسرار»[٢].

وقد يكون الدافع إلى كتابة بعض كتبه، إحساسه الذاتي بأن بعض كتبه بحاجة إلى شرح وتوضيح، هذا الإحساس هو الذي دفعه إلى شرح كتابه العمدة في «الاعتماد في الاعتقاد» ـ كما رأينا في حديثنا عنه ـ فقد شعر بأهمية هذا الكتاب وأراد أن يكون كتابه الكلامي هذا من الكتب والمصادر الأساسية لمبادئ الماتُريدية، كما أراد لنفسه أن يسجل في قائمة الماتريديين، وأن يكون العلَمَ الثالث من علمائهم ـ فهذه العقيدة على الرغم من انتشارها في هذا الإقليم، لم يُكْتَب في بيان مبادئها إلا كتاب التوحيد لأبي[٣] منصور الماتريدي والعقائد لأبي[٤] حفص النسفي ـ وهو

(١) انظر: حديثنا عن المستصفى.

(٢) كشف الأسرار: ص٤ ـ ٥.

(٣) سبقت ترجمته.

(٤) مرت ترجمته.

كتاب مختصر - وأصبح من الواجب على كل مطّلع على مبادئ هذه العقيدة العودةُ إلى هذين المصدرين الرئيسيين - وإن كان كتاب العقائد أكثر شيوعاً لاختصاره وسهولته، وهو ما فعله أبو البركات الذي تأثر بكتاب العقائد تأثراً كبيراً، ونهج نهج أبي حفص في طريقة عرضه للمبادئ وفي ترتيب كتابه أيضاً، وأضاف إلى العقائد إضافات توضيحية، وكأنه أراد من كتابه أن يكون جامعاً لسهولة العقائد وشمول التوحيد.

ويبدو تأثرُ أبي البركات بكتاب أبي حفص بشكل واضح إذا عدنا إلى فصول الكتابين، وترتيبهما، وطريقة عرض الأفكار في كل منهما، فكما تحدث أبو حفص عن حقائق الأشياء، وأسباب العلم، ورأى أن العالَمَ محدَث بجميع أجزائه، والمحدِث لهذا العالم هو الله، والقرآنَ كلامَ الله غير مخلوق، والتكوينَ صفة أزلية لله تعالى، والإرادةَ صفة الله أيضاً، كما أجاز رؤية المؤمنين اللهَ يوم القيامة لا في جهة ولا مكان، وأن الله خالق كل أفعال العباد وهي كلها بمشيئة الله، وأن تكلف العبد ما ليس بوسعه غير جائز، وأن الحرام رزق الله. وغير ذلك من المسائل الأخرى التي ناقشها أبو حفص ووضحها أبو البركات[1] وتوسع بها في عمدته وشرحها ومختصرها.

ويظهر هذا التأثر بشكل أوضح إذا وازنا بين ما قالاه في فصل من الفصول، وليكن ما قالاه في الفصل الأول: قال أبو حفص «قال أهل الحق: حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها متحقق خلافاً للسوفسطائية، ثم أسباب العلم للخلق ثلاثة: الحواس والخبر الصادق والعقل، أما الحواس فخمس: السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وبكل حاسة تُوقَفُ على ما وضعت هي له، والخبر الصادق على

---

(١) انظر: كتاب العقائد لأبي حفص النسفي، وكتاب العمدة لأبي البركات.

نوعين أحدهما: المتواتر وهو: الخبر الثابت على ألسنة قوم لا يتصور تواطؤهم على الكذب، وهو موجب العلم الضروري كالعلم بالملوك الخالية في الأزمنة الماضية، والبلدان النائية، والثاني: خبر الرسول المؤيد بالمعجزة وأنه يوجب العلم الاستدلالي، والعلم الثابت به يضاهي العلم الثابت بالضرورة في اليقين للتيقن والثبات، وأما العقل فهو سبب العلم أيضاً، وما يثبت بالبديهة فهو ضروري لا يعلم بأن كل شيء أعظم من جزئه، وما يثبت بالاستدلال فهو اكتسابي، والإلهام ليس من أسباب المعرفة لصحة الشيء عند أهل الحق»[١].

أما أبو البركات فقال فيه: «قال أهل الحق: حقائق الأشياء ثابتة لأن في نفسها ثبوتها، والعلم بها متحقق، وأسبابُه للخلق ثلاثة: الحواس الخمس وأعني: السمعَ والبصرَ والشمَّ والذوقَ واللمسَ، والخبر الصادق أعني المتواتر وخبر الرسول والعقل، وأنكرت السوفسطائية حقائق الأشياء، والسمنية والبراهمة العلم بالخبر، لأن المتواتر أجمع من الآحاد التي لا توجب العلم. قلنا: جاز أن يحدث عند الاجتماع ما لم يكن عند عدمه كقوى الحبل، وتواتر النصارى واليهود مرجعه إلى الآحاد، والملحدة والروافض بالعقل لتناقض قضاياه وقد لا تتناقض، واختلاف العقلاء لقصور عقلهم أو لتقصيرهم في شرائط النظر مع أنه تناقض حيث أبطل العقل به، والعقول متفاوتة بأصل الفطرة خلافاً للمعتزلة لكونه مناطَ التكليف، والإلهامُ ليس سبباً للمعرفة لأنه يعارض عقله، وكذا التقليد»[٢].

وهو ما نقوله في بقية الفصول أيضاً.

وبالجملة نستطيع أن نقول: إن مؤلفات النسفي كلّها تشهد له بمكانته العلمية

---

(١) العقائد النسفية: ص١.

(٢) عمدة عقيدة أهل السنة: ص١ ـ ٢.

وأستاذيته، وسْبقه بين أبناء عصره، كما تشير إلى انهماك النسفي بالتدريس والتأليف والتفرغ لهما، وإلى البذل من أجل طلابه وأبناء إقليمه، حتى بدا دائماً ملبياً لرغبات هؤلاء مجيباً عن أسئلتهم، كاشفاً لهم ما غمض، ومختصراً ما وجده مسهباً، فأغنى المكتبة بمؤلفاته المفيدة، وأفاد الناس بغزارة علمه فكان بحق كما قيل عنه: «مجمعَ الإفتاء والإرشاد، محققَ المعاني، ومقررَ المباني، كاشفَ الدقائق، مبينَ الحقائق»[1].

* * *

(١) مقدمة عمدة عقيدة أهل السنة: ورقة ١.

الفصل الثالث

تفسير النسفي

المفسرون وعلم التفسير:

ولما كان النسفي واحداً من المفسرين الذين فسروا القرآن برأيهم، كان لابد من عرض موجز لمعنى التفسير لغةً واصطلاحاً وبدايات التفسير وأوائل المفسرين، وما هي شروط المفسر وآدابه وعلومه لمعرفة رأي النسفي في هذه الأمور، ولوضع تفسيره في موضعه بين كتب التفسير هذه.

التفسير والتأويل:

التفسير لغةً: هو الإبانةُ والإظهارُ، وقيل: إن التفسير من فَسَرَ وهو مقلوب من سَفَرَ بمعنى كَشَفَ[1]، ولكن جُعِلَ الفَسْر لإظهار المعنى المعقول، وجُعِلَ السَفْر لإبراز الأعيان للأبصار، فقيل: سفرت المرأة عن وجهها، وأسَفر الصبح.

واصطلاحاً: هو علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه، وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات كما يحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني . . . إلخ[2].

---

(١) انظر: لسان العرب: مادة (فسر).

(٢) انظر: البرهان: ١/ ١٣، والإتقان: ٢/ ٢٢٢، وأصول التفسير: ص١٦، علم التفسير: ص٦٠، وروائع القرآن: ص٧٠.

والتأويل لغةً هو: الكشف، من آل الأمر إلى كذا؛ أي: صار إليه، وأصله من المآل وهو العاقبة والمصير[١].

واصطلاحاً: «هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يُخلَّ ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه، أو مسببه، أو لاحقه، أو مقارنه»[٢] وبلفظ آخر معناه: «حَمْلُ الكلام على معنى غير المعنى الذي يقتضيه الظاهر، بموجب اقتضى أن يُحْمَلَ على ذلك، ويخرج على ظاهره»[٣].

وتظهر الحاجة إلى التأويل بعد تفسير الألفاظ الواردة في النص، لمعرفة ما يدل عليه ظاهره، فيحمل دليل ما، عرفي أو عقلي أو نقلي علماً أن المراد بالكلام غير ظاهره، وأنه يجب حمله على المجاز، فيؤوّل أي يُحْمَل على المجاز دون الحقيقة[٤].

واختلف العلماء في نظرتهم إلى التفسير والتأويل، ورأى بعضهم[٥] أنهما بمعنى واحد، وقد أثار هذا الرأي ابن حبيب النيسابوري فعاب قائليه وقال: «لقد نبغ في زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه[٦]».

---

(١) انظر: لسان العرب: مادة (أَوَلَ).

(٢) فصل المقال: ص٩.

(٣) التسهيل في علوم التنزيل: ١/ ٧.

(٤) انظر: فصل المقال: ص٩، والقرآن ونصوصه: ص٣٦٢.

(٥) منهم أبو عبيد وابن الأعرابي، وثعلب. انظر: الإتقان: ٢/ ٢٢١، التحرير والتنوير: ١/ ١٦، علم التفسير: ص٧.

(٦) الإتقان: ٢/ ٢٢١.

وذهب آخرون[١] إلى أن التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، ويستعمل في الكتب الإلهية وغيرها، أما التأويل فمختص بالمعاني والجمل، ولا يستعمل إلا في الكتب الإلهية، وقيل غير[٢] ذلك.

ولا نريد أن نسرف في الحديث عن اختلاف العلماء في التفريق بين هذا وذاك، وإنما حسبنا أن نقف على رأي النسفي في هذين الاصطلاحين، اللذين شغلا العلماء والفقهاء، حتى أصبح من المستحيل أن نجد تفسيراً، أو مفسراً لم يتعرض لتعريفهما في بداية تفسيره أو أثنائه. وهو ما سنتركه إلى مكان آخر من هذه الرسالة.

أوائل المفسرين وبدايات التفسير:

إن المفسر الأول لكتاب الله الكريم هو النبي ﷺ، فالسنة شارحة[٣] للقرآن وموضحة له، وقد بين الله تعالى في كتابه الكريم مهمةَ النبي ﷺ فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا وإني قد أوتيت الكتاب ومثلهَ معه»[٤]

(١) ومن هؤلاء الراغب الأصبهاني. انظر: مقدمته: ص٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(٢) انظر: الإكليل في المتشابه والتأويل: ص١٥، البرهان: ١/ ١٣، التسهيل لعلوم التنزيل: ١/ ٦، الإتقان: ٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٣) انظر: البرهان: ٢/ ١٧٥.

(٤) والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن المقدام بن معد يكرب الكندي ٤/ ١٣١، وأبو داود في سننه باب لزوم السنة رقم (٤٦٠٤)، والترمذي في أبواب العلم حديث (٢٦٦٦)، باب ما نهي عنه أن يقال عنه حديث النبي ﷺ وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وابن ماجه في المقدمة حديث (١٢) باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه، والحديث كما ورد بنصه في سنن أبي داود: «حدثنا عبد الوهاب بن نجدة، =

واكتفى الصحابة رضوان الله عليهم بالسمع والطاعة وبالأخذ والفهم عنه، ونصح من غاب عنه شيء من أمور دينه.

وما زال الأمر كذلك إلى أن لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، وبَدَتْ حاجة الناس للتفسير، وفهم معاني الكتاب الكريم، وسؤال الصحابة عن ذلك، وقد نظر الصحابة إلى هذا العمل الجليل، والمهمة الصعبة نظرةَ إجلال وإكبار، وخافوا أن لا يبلغوا في اجتهادهم ما طلبه الله تعالى من أمثالهم من علماء هذه الأمة، وألاّ يصيبوا الحقَ في تفسيرهم لبعض آيات القرآن الكريم، وألاّ يَصِلوا إلى حقيقة مراد الله باجتهادهم ونظرهم، فأَحْجَمَ[1] الكثيرون منهم عن هذا العمل العظيم، وكان في مقدمة هؤلاء: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، إذ قال لِمَنْ سأله عن تفسير حرف من حروف القرآن: «أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، وأين أذهب، وكيف أصنع إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراده تبارك وتعالى»[2].

إلاَّ أنَّ هذا الخوف لم يمنع من تفسير الصحابة لبعض آيات القرآن، إما

= حدثنا أبو عمرو بن كثير بن دينار، عن حريز بن عثمان، عن عبد الرحمن بن أبي عوف، عن المقدام بن معد يكرب الكندي، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه، ألا لايحل لكم لحمُ الحمار الأهلي، ولا كلُّ ذي ناب من السبع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يُقْروه، فله أن يعقبهم بمثل قراه» وهو ما رواه الإمام أحمد أيضاً في مسنده وهو أتم مما ورد عن ابن ماجه والترمذي.

(١) انظر: تفسير الطبري: ١/ ٨٩، تفسير القرطبي: ١/ ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) رواه أبو السائب سَلَم بن جنادة السوائي قال: حدثنا حفص بن غياث، عن الحسن بن عبيدالله، عن إبراهيم، عن أبي معمر قال: قال أبو بكر الصديق: «الحديث». تفسير الطبري: رقم ٧٨.

بتعلمهم ما سمعوه عن النبي ﷺ أو باجتهادهم ومعرفتهم باللغة، ونقلت أقوال كثيرة في هذا الموضوع. كان في مقدمتهم: الخلفاء الراشدون، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن الزبير، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهم جميعاً، إلا أن ما نُقِلَ عن الخلفاء الثلاثة قليل بالقياس إلى ما نقل عن علي رضي الله عنه، وهو الذي عني بتفسير القرآن حتى سُمِعَ يقول: «سلوني فوالله لا تسألون عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني في كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل»[١].

ثم يأتي بعده عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ـ ترجمان القرآن، وحبر الأمة وبحرها، وهو الذي تجرّد للأمر وكمّله[٢] حتى قال عنه علي رضي الله عنه: «ابن عباس ينظر إلى الغيب من ستر رقيق»[٣].

وتميزت أقوال الصحابة جميعاً في التفسير بالتقارب، وقلة الاختلاف والنزاع، لتعلمهم عن النبي ﷺ، وقرب عهدهم بالرسالة[٤].

ثم جاء بعدهم طبقة من علماء التابعين، أخذوا عنهم، وسمعوا أقوالهم، واشتهر منهم عدد كبير في المدن الإسلامية المختلفة، ففي مكة ظهر مجاهد (ت١٠٤هـ) وعطاء بن رباح (ت١١٤هـ) وعكرمة مولى ابن عباس (ت١٠٥هـ) وسعيد ابن جبير (ت٩٥هـ) وطاوس (ت١٠٦هـ) وغيرهم.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١/ ٣٥، وقد رواه عن عامر بن واثلة، الإتقان: ٢/ ٢٣٩ رواه عن وهب بن عبدالله عن أبي الطفيل قال: شهدت علياً يخطب وهو يقول: «سلوني...».

(٢) تفسير القرطبي: ١/ ٣٥، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: ١/ ١٣.

(٣) تفسير القرطبي: ١/ ٣٥.

(٤) انظر: مقدمة في أصول التفسير: ص٣٧، والإتقان: ٢/ ٢٢٦.

وفي الكوفة أصحاب عبدالله بن مسعود (ت٣٢هـ) وعلقمة (ت٦٢هـ) والأسود ابن يزيد (ت٧٥هـ) وإبراهيم النخعي (ت٧١هـ) والشعبي[١] (ت١٠٣هـ).

وفي المدينة: زيد بن أَسْلَم (ت١٣٦هـ)، أخذ عنه عبد الرحمن بن زيد (ت٦٥هـ) ومالك بن أنس (١٧٩هـ).

ولكن المشهورين من هؤلاء أربعة: مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والضحاك (ت١٠٥هـ). قال سفيان الثوري «خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك»[٢].

وروى هؤلاء جميعاً ما نُقِلَ لهم عن رسول الله ﷺ وصحابته، وما سمعوه منهم إلى من جاء بعدهم، وما زال الأمر كذلك إلى أن جاء بعدهم أتباع التابعين، وبهم تبدأ مرحلة جديدة من مراحل التفسير هي: مرحلة التدوين.

التفسير في مرحلة التدوين:

وتبدأ هذه المرحلة في بداية تدوين العلوم عامة، والحديث خاصة، فقد انتقل المفسرون من نقل ما سمعوه، وما نقل إليهم من أقوال النبي ﷺ، والصحابة والتابعين، إلى تدوين هذه الأقوال في كتب خاصة، فأفرد كتّاب الحديث للتفسير باباً خاصّاً في مؤلفاتهم، جمعوا فيه ما أُثِرَ عن النبي ﷺ وصحابته وتابعيهم، مُتَحَرِّين الدقة والصحة في كل ما نقلوه، كما فعلوا في الحديث تماماً، ثم انفصل التفسير عن الحديث في مؤلفات خاصة، كان أولها الصحيفة التي رواها علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

---

(١) هو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كُبار الشعبي الحميري من التابعين، انظر ترجمته: تهذيب التهذيب: ٥/ ٥٧ ـ ٦٠.

(٢) تفسير سفيان الثوري: ص١٤.

ثم جمع المفسرون كل ما قيل في تفسير القرآن في كتب خاصة، دون الإلتزام برواية الصحيح منها، إلاّ أنهم ذكروا أسانيد هذه الأقوال، فكانت عملية التمييز بين الصحيح منها والسقيم سهلة، وهذا ما فعله سفيان بن عيينة (ت١٩٨هـ) ووكيع ابن الجراح (ت١٩٧هـ) وعبد بن حُمَيد (ت٢٤٩هـ) وغيرهم. وكان تفسير الطبري[١] قمة هذه المؤلفات حتى أصبح بإمكاننا أن نقول: إن تفسير الطبري أساس لكل تفسير جاء بعده، انتقل التفسير بعده إلى مؤلفات محذوفة الأسانيد فيها الغث والسمين، أساءت إلى التفسير إساءة بالغة، وساعدت على دخول الضعيف والدخيل والإسرائيليات إليها، وانقسم التفسير عندها إلى: تفسير بالمنقول (بالمأثور) وتفسير بالرأي.

أولاً ـ التفسير[٢] بالمأثور:

وهو أولى مراحل التفسير وأسماها، لأنه نقل ما جاء في القرآن والسنة وكلام الصحابة، بياناً لمراد الله تعالى من كتابه الكريم[٣].

وقد جعل قول الصحابة في حكم الحديث المرفوع[٤]، وذلك لاجتماعهم

(١) هو محمد بن جرير بن زيد بن كثير بن غالب الطبري (ت٣١٠هـ) وتفسيره: جامع البيان في تفسير القرآن طبع طبعتين الأولى: دار المعرفة بيروت غير محققة، والثانية ناقصة محققة، حققها: محمود محمد شاكر دار المعارف بمصر.

(٢) ومن هذا النوع: تفسير الطبري، والدر المنثور، وتفسير البغوي.

(٣) انظر: الدر المنثور: ١/ ٦ وعلم التفسير: ص٤٠، ومذكرة في علوم القرآن: ص٩٨ ـ والقرآن ونصوصه: ص٣٦٣.

(٤) انظر: البرهان: ٢/ ١٥٧، ودراسات في علوم القرآن: ص١٥٧، وقال الحاكم النيسابوري: «ومن الموقوفات تفسير الصحابة، وأما من يقول: إن تفسير الصحابة مسند فإنما يقول فيما فيه سبب النزول» فخصص هنا وعممَّ في المستدرك. معرفة علوم الحديث: ص٢٠.

ولقائهم النبي ﷺ، وأخذهم عنه، أما أقوال التابعين[١] فقد عدها بعض العلماء تفسيراً بالمأثور، وعدَّها آخرون تفسيراً بالرأي، وحجتهم في ذلك أن التابعين ليس لهم سماع من رسول الله ﷺ، كما لم يشاهدوا الأحوال والقرائن التي نزل عليها القرآن[٢].

وحقيقة الأمر في هذه القضية أن قول التابعي إذا كان مما لا مجال للرأي فيه، أو كان مما اجتمع عليه التابعون فعلينا الأخذ به وعده تفسيراً بالمأثور، أما إذا كان التابعي ممن يأخذ عن أهل الكتاب، فلنا أن نأخذ عنه أو نتركه، ولب هذا النوع من التفسير هو تفسير النبي ﷺ[٣].

وقد تعرض التفسير بالمأثور للنقد الشديد، وذلك لاختلاط الروايات الصحيحة مع غيرها، وكان لزنادقة اليهود والفرس نشاط لا يجهله أحد في الدسّ على الإسلام، وتشويه تعاليمه، كما أساء أصحاب المذاهب والنحل ـ بتنزيلهم معاني القرآن وفق هواهم، وتأييد هذه الآراء ولو بأحاديث ضعيفة اختلقوها ونسبوها إلى النبي ﷺ ولبعض أصحابه ـ إساءة بالغة، وكان لحذف الأسانيد خطورة كبيرة على هذا النوع من التفسير، فكان على المفسِّر بالمأثور أن يدقّقَ في تفسيره، ويحترسَ في روايته، ويحتاطَ كثيراً في ذكر الأسانيد[٤].

ثانياً ـ التفسير بالرأي:

ثم تطورت نظرة المفسرين إلى هذا العلم بتطور العلوم المختلفة وتدوينها،

---

(١) انظر: البرهان: ٢/ ١٥٨، ودراسات في علوم القرآن لأمير عبد العزيز: ص١٥٧.

(٢) انظر: دراسات في علوم القرآن: ص١٥٧.

(٣) انظر: البرهان: ٢/ ١٧٢، وعلم التفسير: ص٣٢.

(٤) انظر: علم التفسير: ص٦٤ ـ ٦٥.

وخطوا به خطوة جديدة، ففسروا القرآن تفسيراً مغايراً لطريقة تفسير السابقين له، فلم يكتفوا بما نُقِلَ عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، بل نظروا إلى القرآن نظرة جديدة تتوافق مع علمهم الذي برعوا فيه، فاللغوي نظر إلى القرآن نظرة لغوية خالصة ففسّر غريبه وأعربه[١]، واستخرج الفقيه أحكامه[٢]، وعُنِيَ القصصي[٣] في قصصه، فَسَرَدَ أحداثها وأطال فيها، أما صاحب الهوى[٤] فلاهمَّ له إلا إثبات هواه، وتأييد رأيه ولو كان ذلك على حساب آيات القرآن وتحريف معانيه.

ولم يسلم هذا النوع من الاختلاف في حكمه، فأجازه بعض العلماء، وأنكره آخرون، ورأى هؤلاء ضرورة الاقتصار على تفسير القرآن بالمأثور عن النبي ﷺ وصحابته.

والحقيقة ما قاله الدكتور الصابوني والدكتور صبحي الصالح في كتابيهما: أنه لا عذر لمانعي التفسير بالرأي، إذا قَصَدْنا بالرأي الاجتهادَ القائم عَلى القواعد السليمة، والأصول الصحيحة المُتَّبعة، إذا لم يعارضه التفسير بالمأثور، إذ لا اجتهاد في مورد النص[٥].

فالقرآن نفسه حث المسلمين على التدبر والفهم والتعمق فخاطب في آياته كلها العالمين، وأولي الألباب، والذين يفقهون، والذين يتفكرون، كما دعا إلى

---

(١) من هؤلاء الزَّجَاج في كتابيه إعراب القرآن ومعاني القرآن، والفراء في معاني القرآن، والأخفش وسيبويه أيضاً.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي، وأحكام القرآن للجصاص، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

(٣) مثل تفسير الثعلبي.

(٤) انظر: مجمع البيان للطبرسي، والكشاف للزمخشري.

(٥) انظر: التبيان في علوم القرآن: ص١٥٥، ومباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح: ص٢٩٣.

الاجتهاد والتدبر قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص: ٢٩] وقال أيضاً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد: ٢٤] وأمثال هذا كثير في القرآن[١].

ولو كان كل ما أراده الله من القرآن مسموعاً، لما كان لهذه الدعوة معنى، كما لم يكن لدعوة رسول الله ﷺ لعبدالله بن عباس رضي الله عنهما، واختصاصه بها معنى، إذ لا معنى للاختصاص بشيء معلوم لدى الجميع، ولاستوى في ذلك العالم والجاهل، وبطل التفاضل، وهذا ما لا يقوله عاقل. قال القرطبي في تفسيره: «قال بعض العلماء: إن التفسير موقوف على السماع لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩] وهذا فاسد، لأن النهي عن تفسير القرآن لا يخلوا: إما أن يكون المراد به (بالنهي) الاقتصار على النقل والسماع، وترك الاستنباط، أو المراد به أمراً آخر، وباطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه، فإن الصحابة رضوان الله عليهم قرؤوا القرآن، واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه عن النبي ﷺ، فإن النبي دعا لابن عباس وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك»[٢].

أما إذا قُصِدَ بالرأي الهوى الذي لا يضبطه ضابط، وتفسير القرآن بحسب ما يخطر للإنسان من خواطر، فهو ما لا يرضاه مؤمن بكتاب الله. قال القرطبي[٣]: «من قال في القرآن بما سنح في وهمه، أو خطر في باله من غير استدلال عليه

(١) انظر قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ...﴾ النساء آية ٨٢، وسورة المؤمنون آية ٦٨ وغيرها، ومن التفاسير المقبولة (تفسير البيضاوي والخازن والنسفي والرازي).

(٢) تفسير القرطبي: ١/ ٣٣.

(٣) تفسير القرطبي: ١/ ٣٣.

بالأصول فهو مخطئ، وعليه يحمل الحديث الشريف[١]: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» و«من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

أهمية التفسير وشروطه وآدابه:

وتبدو أهميـة هذا العلم، إذا عرفنـا فائدة التفسير وقيمته، هذه الفائدة التي تتلخص في التـذكير والاعتبار والهداية والإرشاد[٢]، ولهذا دعا التابعون إلى فهم القرآن وتفسيره. قال مجاهد: «أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل»[٣]، وقال الحسن: «والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن أعلم فيما أنزلت وما يعني بها»[٤].

---

(١) عن ابن مسعود ﷺ، وعمرو بن دينار، وعمر بن الخطاب، وأبي بكر الصديق، وعبدالله بن عمر، وقيس بن سعد، وأبي أمامة وابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وأبي مالك الأشجعي، وصهيب، وطلحة بن عبيدالله، ومعاذ بن جبل بروايات مختلفة أخرجه البخاري في باب: إثم من كذب على النبي ﷺ رقم ١٠٦ ـ ١٠٧ ـ ١٠٨ ـ ١٠٩.
وفي صحيح مسـلم باب تغليظ الكذب على رسـول الله ﷺ، سنن أبي داود باب التشديد في الكـذب على رسول الله ﷺ رقم الحـديث ٣٦٥١، والتـرمذي في سننه رقم الحديث ٢٦٦١، باب ما جاء في تعظيم الكذب على رسول الله ﷺ، ومسلم في صحيحه باب: التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم رقم ٣٠٠٤، والترمذي أيضاً في باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل برقم ٢٦٧١، والبخاري في باب الأنبياء باب ٥١، ماذكر عن بني إسرائيل رقم الحديث ٣٢٧٤ وفي باب ٣٣ ما يكره من النياحة على الميت رقم ١٢٢٩: وفي سنن الترمذي أيضاً كتاب تفسير القرآن باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه رقم ٢٩٥١، وفي تفسير الطبري رقم الحديث ٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧، وأخيراً في سنن الترمذي باب ٧٠ (إنكم منصورون وعاقبة الكذب على الرسول ﷺ) رقم ٢٢٥٨ وقال أبو عيسى عنه: هذا حديث صحيح.

(٢) انظر: مذكرة في علوم القرآن: ص٩٧.

(٣) تفسير القرطبي: ١/ ٢٦.

(٤) تفسير القرطبي: ١/ ٢٦.

ولهذا الأمر اللهُ أمر عباده بتدبر القرآن، وحثَّهم على الاعتبار بأمثاله.

وتعود أهمية التفسير إلى أمور ثلاثة: إلى شرف موضوعه، والحاجة إليه، والهدف منه[1]، أما موضوعه فهو القرآن الكريم ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، وغايته سعادة الدنيا والآخرة والاعتصام بحبل الله المتين، وتبدو الحاجة إليه إذا علمنا أن القرآن أساس كل كمال ديني ودنيوي، فكل كمال من هذا النوع يحتاج إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية المتعلقة بكتاب الله الكريم.

ولهذا فالتفسير أشرفُ العلوم وأسماها، وقد عظَّم الله محله فقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦٩] وقد فُسرت الحكمة بتفسير القرآن[2].

وأما شروط التفسير فقد أجاز بعض العلماء تفسير القرآن الكريم، ولكن بشرط أن يُلمّ المفسر بالعلوم اللازمة للتفسير، وأن يتأدب بآدابه، وقد جمع العلماء هذه العلوم في خمسة عشر علماً:

١ ـ اللغة: قال مجاهد: «لا يحلُّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب»[3]، وقال مالك بن أنس رضي الله عنهما: «لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً»[4].

٢ ـ النحو: فالمعنى يختلف باختلاف الإعراب.

٣ ـ التصريف: وبه تعرف الأبنية والصيغ. قال ابن فارس: «من فاته علمه،

(١) انظر: تفسير الفاتحة للفناري: ص١٧.

(٢) أخرجه ابن مردويه عن طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً، الإتقان: ٢/ ٢٢٤.

(٣) الإتقان: ٢/ ٢٣١.

(٤) الجامع لشعب الإيمان للبيهقي: ٣/ ٥٤٣.

فاته المعظم، لأنَّ «وجد» مثلاً كلمة مبهمة فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها»[١].

٤ ـ الاشتقاق: فالاسم يختلف إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين كالمسيح[٢]، هل هو من المسح أو من السياحة؟

٥ ـ علم المعاني: وبه تعرف خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى.

٦ ـ علم البيان: وبه تعرف خواص تراكيب الكلام من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها.

٧ ـ علم البديع: وبه تعرف وجوه تحسين الكلام.

٨ ـ علم القراءات: لمعرفة كيفية النطق بالقرآن، وترجيح بعض الوجوه على بعض.

٩ ـ أصول الدين: وبه يُعرف ما يستحيل، وما يجوز، وما يجب.

١٠ ـ أصول الفقه: لمعرفة وجه الاستدلال على الأحكام والاستنباط.

١١ ـ أسباب النزول: فمعرفة السبب يؤدي إلى معرفة المسَّبب.

١٢ ـ الناسخ والمنسوخ: لمعرفة المُحْكم من غيره، ولمعرفة تدرج الأحكام القرآنية.

١٣ ـ الفقه: لفهم كتاب الله الكريم، ومعرفة معانيه.

١٤ ـ الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم.

١٥ ـ الموهبة: وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم.

---

(١) الإتقان: ٢/ ٢٣١.

(٢) الإتقان: ٢/ ٢٣١.

ولابد لمفسر كتاب الله تعالى أن يتجنب:

١ ـ التهجم على بيان مراد الله من كلامه سبحانه مع الجهالة بقوانين وأصول الشريعة، والأخذ بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل، فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الحذف والإضمار، والاختصار، ودون إلمام بالعلوم التي يجوز معها التفسير(١).

٢ ـ الخوض فيما استأثر الله بعلمه، وذلك كالمتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، فليس للمفسر أن يتهجم على الغيب بعد أن جعله الله سرّاً من أسراره، وحجبه عن عباده(٢).

٣ ـ السير مع الهوى والاستحسان، فلا يجوز تفسير القرآن لأحد بما يناسب هواه، ولا يجوز الترجيح باستحسانه(٣).

٤ ـ التفسير المقرِّر للمذهب الفاسد، بأن يجعل المذهب أصلاً، والتفسير تابعاً، فيحتال في التأويل حتى يصرفه إلى عقيدته، ويرده إلى مذهبه بأي طريق أمكن، وإن كان في غاية البعد والغرابة(٤).

٥ ـ التفسير مع القطع بأن مراد الله تعالى كذا، من غير دليل قطعي، وقد

---

(١) انظر: مقدمة الراغب: ص٤٢٥، تفسير القرطبي: ١/ ٣٣، الإتقان: ٢/ ٢٣٤، تاريخ القرآن والتفسير: ١١٤ ـ ١١٥، دراسات في علوم القرآن: ١٥٨ ـ ١٥٩، مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان: ص٣٥٢.

(٢) أصول التفسير، خالد العك: ص٧٣.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ١/ ٣٢، وأصول التفسير: ص٧٣، والمذاهب الإسلامية في التفسير: ص٦٠ ـ ٦١.

(٤) انظر: مفتاح السعادة: ١/ ٤٣٠، علم التفسير، للذهبي: ص٥٨، أصول التفسير، خالد العك: ص٧٣.

نهى الله عن ذلك بقوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٦٩].

ولابد للتفسير من آداب:

وأول هذه الآداب إيمان المفسر، وصحة اعتقاده، فلا يؤتمن على كتاب الله إلا من آمن بـه، وعمل بأحكامـه عالماً بأوامره ونواهيه، وعليه أن يضع نصب[1] عينيه أن معاني القرآن على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، ووجه لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى علمه فهو كاذب، فيفسر ما أبيح له تفسيره، ويمتنع عما نهي عنه، فيلتمس تفسيره في كتاب الله الكريم نفسه، فما أُجْمِلَ في مكان، فُصّل في مكان آخر، وما اختصر في موضع بُسِطَ في موضع آخر، وأفضل المعاني ما دل عليها القرآن نفسه، فالله أعلم بمراده، وهذا كثيـر في القرآن، يقول الله تعالى مثلاً: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾[الطارق: ١ ـ ٣] فقد فسر الطارق بقوله فيما بعد ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ كما فسر الخيط الأبيـض والخيط الأسود في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾[البقرة: ١٨٧] بقوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾.

فإن أعيا المفسر ذلك، طلبه في سنة رسول الله ﷺ، فالسنة شارحة للكتاب ومبينة له، كما قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ. وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: كل مـا حكم بـه رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن[2] ومهمة الرسول الكريم الأساسية توضيح ما جـاء غامضـاً، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل: ٤٤]، وقرن طاعة رسولـه بطاعتـه فقـال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[الحشر: ٧]، وروى الأوزاعي عن حسان قوله: «كان

(١) انظر: تفسير الطبري: ١/ ٧٤.

(٢) انظر: الرسالة للشافعي: ١/ ٧٩، انظر: تفسير القرطبي: ١/ ٣٩.

الوحي ينزل على رسول الله ﷺ، ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك»[١].

فإن لم يجد ذلك في كتاب الله أو سنة رسوله، رجع إلى أقوال الصحابة والتابعين، فهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال، ولكن عليه الاحتراز في هذا كله من نقل الأحاديث الضعيفة والموضوعة، لأن الدخيل على هؤلاء كثير جداً، مما جعل الشافعي ـ رحمه الله ـ يقول: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمئة حديث»[٢].

فإن لم يجد في هذه المصادر فعليه باللغة، فالقرآن عربي بلسان عربي مبين، وعليه الاحتراز من صرف الآية إلى ما يدل عليه القليل من كلام العرب، أو عليه أن يطلب المعنى بالمقتضى من معنى الكلام، والمقتضب من قوة الشرع، وهو خلاصة ما دعا به الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[٣].

مصادر النسفي في تفسيره:

لم نر بين مؤلفات النسفي كلها شاملاً لمعارفه كتفسيره للقرآن، فعلى الرغم من أن شهرته ذاعت في علم الكلام، وألف مؤلفات كثيرة في هذا العلم، إلا أنه يمكننا بحق أن نعد تفسيره (المدارك) ممثلاً لمرحلة نضجه العلمي، فبدا في تفسيره رجلاً هضم التفسير النقلي، ووعى ما أثر فيه، كما روى الحديث وأتقنه، وأحاط

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١/ ٣٩.

(٢) مناهل العرفان: ١/ ٤٨٥.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: ٣/ ٥٣٤، وقال: وهذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، رواه ابن عباس، ورواه مسلم: رقم ٢٤٧٧ في فضائل الصحابة، باب فضل عبدالله بن عباس، والترمذي: برقم ٣٨٢٣ و٣٨٢٤ في المناقب باب مناقب عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، ورواه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما، جامع الأصول: رقم الحديث ٦٦٠٢.

علماً بالمسائل الفقهية، ووعى الخلاف فيها، كما ألمَّ بالقراءات وعرفها، ورأى ما بينها من فروق، واطلع على مجموعة ضخمة من كتب النثر والشعر.

كما برز النسفي من خلال هذا التفسير رجلاً لغوياً قادراً على التمييز بين الصحيح والسقيم إذ كان يأخذ الصحيح ويتبناه، ويبين خطأ السقيم وضعفه فيستبعده.

كما برز متكلماً جدلاً مؤمناً بمبادئ أهل السنة، مدافعاً عنها، متعمقاً في مبادئ أبي منصور الماتُريدي ـ رحمه الله ـ، مكثراً من الاستشهاد بأقواله، محباً للجمال البلاغي في القرآن، ومعجباً بكل ما يعبر عن جمال النص القرآني، ناقلاً له، متبعاً لمسات الجمال القرآني عند كل من عني بها، آخذاً بها غير ملتفت إلى قائلها، وعلاقته الفكرية به، فهو يأخذ ذلك عن مخالفيه(١)، كما يأخذ عن مؤيديه(٢).

وهذه الخصائص كانت وليدة تنوع ثقافته التي تثقف بها طوال حياته، وتفسيره جاء انعكاساً لما تمثله من هذا التنوع في الثقافة، وهَمُّنا أن نكشف عن بعض المصادر التي رجع إليها النسفي، وذكرها صراحة في تفسيره حين فسّر، علماً أن الكثير من هذه المصادر لم يذكر مؤلفها، واكتفى بذكر اسمها، وما عرف مؤلفها أكثرها مؤلفات لرجال من أهل الجماعة، فهو منهم حتى في مظانه التي تردد إليها في التفسير.

أولاً ـ التفاسير:

استعان النسفي في تفسيره بعدد من تفاسير السابقين له وهي:

١ ـ الكشاف:

ويؤلف هذا التفسير مصدر النسفي الأساسي في تفسيره، فتفسيره في ذاته

---

(١) أخذ الكثير مثلاً عن الزمخشري المعتزلي (نظراته البلاغية، استطرادات أدبية، ورأيه في إعجاز القرآن).

(٢) أخذ عن البيضاوي.

ـ كما قال عنه العلماء ـ تلخيص لما ورد في الكشاف من نكات بلاغية، وإشارات لغوية، واستطرادات أدبية، وقد أشار النسفي نفسه إلى هذا المصدر أحياناً(١)، على حين أغفل الإشارة إليه في أغلب الأحيان(٢)، وسنقوم بدراسة مفصلة لهذا الأمر في فصل لاحق.

٢ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل «للبيضاوي»:

وهو المصدر الثاني من مصادر النسفي في تفسيره، وإنْ أَغْفَلَ الإشارة إليه تماماً ولكن الدارس لهذين التفسيرين يجد تأثيراً كبيراً لهذا التفسير في أسلوب النسفي وطريقته، ويبدو هذا التأثير في تتبع الكثير من نظرات البيضاوي اللغوية، ونلحظ طريقة هذا التأثير فيما قالاه مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١] إذ يقول البيضاوي في تفسيرها: «أصله عن ما، فحذف الألف لما مر(٣)، ومعنى هذا الاستفهام تفخيم شأن ما يتساءلون عنه، كأنه لفخامته خفي جنسه فسئل عنه»(٤).

وقد نقل النسفي هذا المعنى بتمامه أثناء تفسيره لهذه الآية(٥)، وهو ما نقوله أيضاً في تفسيرهما لقوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾[النجم: ١٢] ويقول البيضاوي في تفسيرها: «أفتجادلونه عليه؟ من المراء: وهو المجادلة، واشتقاقه من مري الناقة، كأن كلاً من المتجادلين يمري ما عند صاحبه، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب

---

(١) انظر: تفسيره: ١/ ٢١٨، ٣/ ١٨١ و٢٢٧، ٤/ ٩١ و٣٥٦، ٢/ ١٦١ و٣٢٢.

(٢) انظر: التفسير: ١/ ١٣ و٢٥٨، ٢/ ١٤٨ و٢٥٤، انظر أيضاً: حديثنا عن منهجه البلاغي ورأيه في إعجاز القرآن.

(٣) أي: تخفيفاً لكثرة الاستعمال في الاستفهام.

(٤) تفسير البيضاوي: ص٧٧٩.

(٥) انظر: تفسير النسفي: ٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

أفتمرونه؟ أي: أفتغلبونه في المراء، من ماريته فمريته، أو أفتجحدونه؟ من: مراه حقه: إذا جَحِدَه، وعلى تضمن الفعل معنى الغلبة، فإن المماري والجاحد يقصدان بفعلهما غلبة الخصم»[١].

ونقله النسفي بلفظه ومعناه، وإن لم يشر إلى ذلك صراحة[٢] ومثل هذا كثير في تفسيره[٣].

٣ ـ تفسير قتادة ومجاهد:

أشار حاجي خليفة في كتابه إلى أن ثمة كتابين ألفهما قتادة ومجاهد في تفسير القرآن، وهما من بين كتب التفسير التي لم تصل إلينا، كما لم يصل إلينا غيرها من كتب التفسير التي ألفها غيرهما من التابعين، والتي جُمِعَت بجملتها في تفسير الطبري لأنه جمع جملة هذه التفاسير في تفسيره الشامل الذي عُدَّ قمة التفاسير في عصره.

وبالعودة إلى تفسير الطبري وموازنة ما ورد فيه بما أورده النفسي في تفسيره، نرى أن النسفي اطلع على تفسير قتادة وتفسير مجاهد، وأخذ منهما مباشرة لا من الطبري، مما يرجح قولنا الذي ذهبنا إليه.

وعليه نستطيع أن نعد تفسيري قتادة ومجاهد من مصادر تفسير النسفي الأساسية.

أ ـ تفسير قتادة:

والواقع الذي يقره دارس تفسير النسفي هو نقل الكثير من آراء قتادة في تفسير القرآن، فقد نقل الكثير من آرائه ـ كما ذكرنا قبل قليل ـ الواردة في تفسير الطبري فنقل

---

(١) تفسير البيضاوي: ص٦٩٨.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٤/ ١٩٥.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ص٦٦٩ ـ ٦٥٠ ـ ٥٢٤، وتفسير النسفي: ٤/ ١١٩ ـ ١٤٦، ٣/ ٢٥٠.

مثلاً تفسير قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾[البقرة: ١١٤] عن قتادة فقال: «قال قتادة: لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلا بولغ ضرباً»[١].

وقد نقل الطبري هذا القول عن قتادة بسنده[٢].

على حين نقل تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[طه: ٣٩] عن قتادة فقال: «قال قتادة: «كان في عيني موسى ملاحة ما رآه أحد إلاّ أحبه»[٣] وهو من الأقوال التي لم يذكرها الطبري في تفسيره.

وهذا ما نراه أيضاً فيما نقله عن قتادة في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾[مريم: ٥٩] فقال: قال قتادة: وهو في هذه الأمة»[٤] وهو أيضاً مما لم يذكر في تفسير الطبري أيضاً.

ب ـ تفسير مجاهد:

وما قلناه في تفسير قتادة ينطبق على تفسير مجاهد أيضاً، فقد استعان به وأخذ عنه أقواله في التفسير، إلا أن بعضها ورد في تفسير الطبري، وبعضها الآخر لم يذكر فيه، مما يشير إلى أخذه من التفسير مباشرة. فقد نقل عنه مثلاً تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾[النساء: ١٧] فقال: وقال مجاهد: من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته[٥] وقد أورده

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٧٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٢/ ٥٢٤ رقم الحديث: (١٨٢٧) قال: حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة. الحديث.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ٥٣.

(٤) تفسير النسفي: ٣/ ٣٩.

(٥) تفسير النسفي: ١/ ٢١٥.

الطبري في تفسيره[١].

بينما نقل تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ﴾[الأنعام: ٢٤] عن مجاهد وهو مما لم يذكر في تفسير الطبري. قال: «قال مجاهد إذا جمع الله الخلائق، ورأى المشركون سعة رحمة الله وشفاعة رسول الله ﷺ للمؤمنين قال بعضهم لبعض: تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو مع أهل التوحيد، فإذا قال لهم الله: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟ قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، فيُخْتَم على أفواههم، فتشهد عليهم جوارحهم»[٢].

وكذا ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾[الكهف: ٩٠] قال: «عن مجاهد: مَنْ لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض» وهو مما لم يذكر في تفسير الطبري.

٤ ـ التأويلات (لأبي منصور الماتُريدي):

أشار النسفي صراحة إلى هذا التفسير في موضعين[٣] من تفسيره، كما أشار في كثير من المواضع في تفسيره إلى أبي[٤] منصور أيضاً، ولا غرابة في ذلك، فالنسفي

---

(١) تفسير الطبري: ٨٠/ ٩٠ رقم الحديث (٨٨٣٨) قال: «حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال: حدثني حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال: من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته».

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٧.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ٧٤ ـ ٤/ ٣٠٢، واسمه الكامل تأويلات أهل السنة طبع بتحقيق: فاطمة يوسف الخيمي، مؤسسة الرسالة، ط١ (١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م) في ٥ أجزاء.

(٤) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٦٦ و٨٠ و١٥ و٢٠١ و٢٣٧ و٢٤٩، ٢/ ٨٥ و١٠ مثلاً.

كما رأينا في مؤلفاته ماتريدي أظهر ماتريديته في جميع مؤلفاته، وأحب أن تكون آراء شيخه أبي منصور مؤيدة لآرائه في جميع كتبه ومؤلفاته.

فنقل عنه رأيه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣] قال: «بلا واسطة ولا كيفية، وروي أنه كان يسمع من كل جهة، وذكر الشيخ في التأويلات: أن موسى ﷺ سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى، وكان اختصاصه باعتبار أنه أسمعه صوتاً تولى تخليقه من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسباً لأحد من الخلق، وغيره يسمع صوتاً مكتسباً للعباد، فيفهم منه كلام الله تعالى، فلما سمع صوته طمع في رؤيته لغلبة شوقه فسأل الرؤية»(١).

٥ ـ شرح التأويلات(٢):

أشار إلى نقله منه في عشرة(٣) مواضع من تفسيره. قال مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦] «إلا طاقتها وقدرتها لأن التكليف لا يَرِدُ إلا بفعل يَقْدِر عليه المكلَّف كذا في شرح التأويلات»(٤).

٦ ـ اللباب(٥):

وهو من الكتب التي لم يذكرها إلا مرة واحدة في تفسيره. عند تفسير قول الله

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٧٤.

(٢) لم يذكر اسم مؤلفها، انظر: أسماء الكتب: ص١٨٣.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٣١ و١٤٤ و١٦٠ و١٩٩ و٢٧٠، ٢/ ٢٠٩، ٣/ ٢٠٤، ٤/ ١٥٢ و٢٩٤ و٣٦٦.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ١٤٤.

(٥) لم يذكر اسم مؤلفه، لايوجد تفسير معروف بهذا الاسم إلاّ اللباب في علم الكتاب لابن عادل: أبو حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي. والله أعلم.

تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ٨٤] قال: «وقال صاحب اللباب: الخطاب في البقرة للأمة لقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ﴾ فلم يصح إلا «إلى» لأن الكتب منتهية إلى الأنبياء، وإلى أمتهم جميعاً، وهنا «قل» وهو خطاب للنبي ﷺ دون أمته فكان اللائق به «على» لأن الكتب منزلة عليه لا شركة للأمة فيه»(١).

ثانياً ـ مصادره في الحديث:

وقد ورد في تفسير النسفي أسماء عدد من كتب الحديث التي عاد إليها، وهذه الكتب هي:

١ ـ صحيح مسلم والبخاري:

وقد مّر ذكرهما صراحة في تفسيره مرة واحدة أثناء تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[القمر: ١] قال: «قال ابن مسعود ؓ رأيت حراء بين فلقتي القمر، وقيل معناه ينشق يوم القيامة، والجمهور على الأول وهو المروي في الصحيحين»(٢).

٢ ـ صحاح المصابيح(٣):

ذكره أيضاً في موضعين(٤) من تفسيره أولاهما في تفسير قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ

---

(١) الآية الثانية في سورة البقرة آية ١٣٦، وهي: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، وانظر: تفسير النسفي: ١/ ١٦٨.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٢٠١.

(٣) للإمام ركن الدين أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي (٥١٦هـ).

(٤) الموضع الأول: ١/ ٣، والثاني: ٢/ ١٦١، انظر: تفسير النسفي.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال بعد ذكره ما ورد عن أبي هريرة ﷺ، والحديث مذكور في صحاح المصابيح»[(١)].

٣ ـ بعض المسانيد:

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[طه: ١٣٢] «وفي بعض المسانيد أنه ﷺ كان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية»[(٢)].

ثالثاً ـ مصادره في الفقه والأحكام:

كما عاد النسفي إلى كثير من كتب الفقه وأصوله، وأشار إلى عدد من هذه الكتب، ومعظمها من تأليفه، وهذه الكتب هي:

١ ـ المبسوط[(٣)]:

أخذ عنه أثناء تفسير قول الله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال:

«وما ذكروا لا يضرنا لأن التسمية آية من القرآن أنزلت للفصل بين السور عندنا، ذكره فخر الإسلام في المبسوط»[(٤)].

٢ ـ الكافي[(٥)]:

وأشار إلى هذا الكتاب في موضعين من تفسيره. الأول أثناء تفسير قوله

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٣.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٧٠، والحديث في سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة الأحزاب، رقم الحديث (٣٢٠٦)، وفي مسند الإمام أحمد رقم الحديث (١٣٧٦٤).

(٣) وهو لفخر الإسلام علي بن محمد البزدوي (ت٤٨٢هـ)، انظر: كشف الظنون: ٢/ ١٥٨١.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٣.

(٥) وهو من تأليفه، شرح فيه كتابه الآخر الوافي.

تعالى ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[الحشر: ٢٠] قال: «وقد استدلت الشافعية بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر، وأن الكافر لا يملك مال المسلم بالاستيلاء، وقد أجبنا عن هذا في أصول الفقه والكافي»[١].

والثاني عند حديثه عن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وهل تعد آية من القرآن أو لا؟ قال: «وما ذكروا لا يضرنا لأن التسمية آية من القرآن أنزلت للفصل بين السور عندنا ذكره فخر الإسلام في المبسوط، وإنما يَرِدُ علينا أن لو لم نجعلها آية من القرآن، وتمام تقريره في الكافي»[٢].

٣ ـ شرح المنار[٣]:

كما نقل من شرح المنار في موضع واحد في تفسير قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ فقال: «والمراد تحريم نكاحهن عند البعض، وقد ذكرنا المختار في شرح المنار»[٤].

رابعاً ـ مصادره اللغوية:

وورد في تفسيره أيضاً عدد من كتب اللغة التي استعان بها في تفسيره. وهذه الكتب هي:

١ ـ كتاب سيبويه:

على الرغم من ذكره لاسم سيبويه كثيراً في تفسيره، واستشهاده بآرائه إلا

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٢٤٤.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٣.

(٣) وهو الكشف (كشف الأسرار شرح المصنف على المنار) للنسفي نفسه.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٢١٧.

أنه لم يذكر اسم كتابه صراحة إلا في موضعين الأول عندما استشهد ببيت من أبياته في تأييد قوله في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فقال: أي نصرف ما فيها من النعم والنقم، نعطي لهؤلاء تارة، وطوراً لهؤلاء كبيت الكتاب:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساءُ ويوم نُسرُّ(١)

والثاني عندما أراد تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤ ـ ٥] قال: «تقول زجرته وازدجرته؛ أي: منعته، وأصله ازتجر، ولكن التاء إذا وقعت بعد زاي ساكنة أبدلت دالاً، لأن التاء حرف مهموس، والزاي حرف مهجور، فأبدل من التاء حرف مجهور وهو الدال ليتناسبا، وهذا في آخر كتاب سيبويه»(٢).

٢ ـ الإيجاز(٣):

وهو من الكتب اللغوية أيضاً التي لم يذكرها إلا مرة واحدة في تفسيره وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [هود: ١١١] فقال: «وقال صاحب الإيجاز: لما فيه معنى الظرف، وقد دخل في الكلام اختصار كأنه قيل: وإن كلاً لما بعثوا ليوفينهم ربك أعمالهم»(٤).

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٨٤، وانظر الكتاب: ١/ ٨٦ والبيت للنمر بن تولب.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٢٠١، وانظر الكتاب: ٤/ ٤٦٧، باب الإدغام في الحروف المتقاربة التي من مخرج واحد.

(٣) ولم أقف على مؤلفه، ونسبه محقق التفسير لمحمد بن داود بن خلف الظاهري، أبو بكر (ت٢٩٧هـ)، وانظر: الأعلام: ٦/ ١٢٠.

(٤) تفسير النسفي: ٢/ ٢٠٧.

٣ ـ التبيان في إعراب القرآن[١]:

ورد ذكره في موضع واحد من التفسير كان في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص: ٨٠] قال: «أصل ويل الدعاء بالهلاك، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرضي، وفي التبيان في إعراب القرآن هو مفعول فعل محذوف، أي ألزمكم الله ويلكم»[٢].

٤ ـ الصحاح للجوهري[٣]:

والواقع أنه لم يصرح باسم الصحاح إلا أن المادة اللغوية التي أخذها عن الجوهري تشير إلى أخذه عن صحاحه، وقد استعان به في موضعين من تفسيره، كان أولهما في بيان معنى «صد» في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: ١] قال: «قال الجوهري: صد عنه يصد صدوداً أعرض، وصده عن الأمر صداً منعه، وصرفه عنه»[٤].

والثاني في تفسير كلمة أذلة في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ﴾ [المائدة: ٥٤] قال: «قال الجوهري: الذل ضد العز، ورجل ذليل بيِّن الذل، وقوم أذلاء وأذلة، والذل بالكسر: اللين وهو ضد الصعوبة، يقال: دابة ذلول، ودواب ذلل»[٥].

---

(١) وهو لأبي البقاء العكبري الحنبلي الضرير (ت٦٠٦هـ).

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٢٤٦.

(٣) هو إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ) إمام لغوي ومعجمه المشهور هو: تاج اللغة وصحاح العربية.

(٤) تفسير النسفي: ٤/ ١٤٨.

(٥) تفسير النسفي: ١/ ٢٨٨.

٥ ـ الديوان:

ولم يذكر في تفسيره إلا مرة واحدة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[النمل: ١٤] قال: «وذكر في الديوان: يقال جحد حقه وبحقه بمعنى»(١).

٦ ـ الكشف(٢):

وقد اضطربت عبارة النسفي في الإحالة على هذا الكتاب، فأحالنا أحياناً إلى جامع العلوم، وتارة أخرى إلى الكشف، حتى كاد يوقعنا في اللبس ونعتقد رجوعه إلى كتابين لا كتاب واحد، إلا أن العودة إلى كتاب الكشف تكشف هذا اللبس، فالنسفي عاد إلى كتاب الكشف لصاحبه جامع العلوم، وقد انحصرت المواضع التي ذكر أخذه فيها عن هذا الكتاب في ثمانية مواضع، أحالنا في خمسة منها(٣) إلى جامع العلوم، بينما صرح في ثلاثة منها(٤) إلى كتاب الكشف، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[البقرة: ٩٦] قال: «قال في جامع العلوم وغيره: لو يعمر بمعنى أن يعمر»(٥) وهذا القول موجود في كتاب الكشف على الرغم من أن عبارة النسفي توحي بأنه كتاب آخر غيره.

---

(١) وقال محقق التفسير: المقصود كتاب التبيان في شرح ديوان أبي الطيب، لأبي البقاء العكبري.

(٢) وهو الكشف في نكت المعاني والإعراب وعلل والقراءات المروية عن الأئمة السبعة، واسمه بعد التحقيق: (كشف المعضلات وإيضاح المشكلات) وصاحبه أبو الحسن علي بن الحسين الأصبهاني الباقولي الضرير الملقب جامع العلوم (ت٥٤٣هـ).

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٦٤ و١١٠ و٢٧٣، وهو في الكشف: ص٢٤٥، و٤/ ٧٢، وهو في الكشف: ٧٥٢، و٤/ ١٢٢، وفي الكشف: ص٧٧٨.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ١٣١، ٤/ ٢٥٣ و٣٦٤.

(٥) تفسير النسفي: ١/ ٦٤، والقول موجود في الكشف: ص٥٧.

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الزخرف: ٦٠].

قال النسفي: «قال جامع العلوم: لجعلنا بدلكم ومن بمعنى البدل»[١]، وهو ما نقوله في المواضع الباقية على الرغم من أننا لم نعثر على ما نسبه إلى جامع العلوم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾[البقرة: ٢٢١] في كتاب الكشف إلا أن الأسلوب يشير إلى أنه أسلوب جامع العلوم لا غيره[٢].

خامساً ـ مصادره في القراءات:

وقد كانت أمام النسفي في القراءات مصاحف قراء وأمصار مختلفة فذكر:

١ ـ مصحف عبدالله بن مسعود:

ومر ذكره مرتين واحدة في تفسيره كله أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[النساء: ١٦٢] قال: «منصوب على المدح لبيان فضل الصلاة، وفي مصحف عبدالله: والمقيمون، وهي قراءة مالك بن دينار وغيره»[٣].

والثاني: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٣٣] «أي لهن، وفي مصحف عبدالله بن مسعود كذلك»[٤].

٢ ـ مصاحف أهل الكوفة وأهل الحرمين والبصرة والشام:

وقد أشار إليها في تفسيره مرة واحدة، في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا۟

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ١٢٢، وهو في الكشف: ص٧٧٨.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١١٠، وهو غير موجود في الكشف.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٢٦٣.

(٤) تفسير النسفي: ٣/ ١٤٤.

﴿مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۚ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[يس: ٣٥] قال: «وما عملت كوفي غير حفص، وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك، وفي مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير»(١).

٣ ـ مصحف نافع:

ذكره لما فسر قول الله تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾[الشورى: ٢٤] قال: «وإنما سقطت الواو في الخط كما سقطت في: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِۖ﴾[الإسراء: ١١] ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[العلق: ١٨] على أنها مثبتة في مصحف نافع»(٢).

٤ ـ مصحف حفصة:

وذكره في موضعين من التفسير أولهما في تفسير قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[البقرة: ٢٣٨] إذ يقول: «وفي مصحف حفصة والصلاة الوسطى صلاة العصر ولأنها بين صلاتي الليل وصلاتي النهار»(٣).

وثانيهما في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١ ـ ٢] قال: «أقسم بصلاة العصر لفضلها بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[البقرة: ٢٣٨] صلاة العصر في مصحف حفصة»(٤).

إضافة إلى كتابين اثنين في القراءات هما:

١ ـ الإشارة والبشارة:

وذكره في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٧.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ١٠٦.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٢١.

(٤) تفسير النسفي: ٤/ ٣٧٥.

يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾[البقرة: ٢٨٤] قال: «يرفعهما شامي وعاصم، أي فهو يغفر ويعذب ويجزمهما غيرهم عطفاً على جواب الشرط، وبالإدغام أبو عمرو، وكذا في الإشارة والبشارة»[١].

٢ ـ الوقوف:

وقد أيد رأيه بما نقله من هذا الكتاب مرة واحدة، أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾[البقرة: ٩] قال: «قال صاحب الوقوف: الوقف لازم على بمؤمنين، لأنه لو وصل لصار التقدير وما هم بمؤمنين في حال خداعهم»[٢].

منزلته وآراء العلماء في تفسيره:

ومما يلفت الانتباه هو أن تفسير النسفي على الرغم من أهميته وفائدته، لم يتناوله أحد بالدراسة والتحليل والنقد قبل حاجي خليفة الذي قال عنه: «مدارك التنزيل وحقائق التأويل، كتاب وسط في التأويلات، جامع لوجوه الإعراب والقراءات، متضمن لدقائق علم البديع والإشارات، حافل بأقاويل أهل السنة والجماعة، خالٍ عن أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل»[٣].

وهذا يعني أن هذا التفسير بقي مهملاً ما يقرب من ٣٥٧ عاماً[٤]، وهي فترة

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٤٣.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٩، والكتاب كما قال محقق التفسير لهلال بن يحيى، أخذ العلم عن أبي يوسف وزفر، له كتاب الشروط وأحكام الوقوف، (ت٢٤٥هـ)، وانظر: الأعلام: ٨/ ٩٢.

(٣) كشف الظنون: ٢/ ١٦٤٠ ـ ١٦٤١.

(٤) توفي حاجي خليفة (١٠٦٧هـ).

طويلة، ولعل السبب في ذلك شيوع الكشاف واعتباره التفسير المثالي الرائع في ذلك العصر، حتى طغى على غيره من التفاسير، وباتت هذه التفاسير كلها عالة عليه.

ثم جاء عصر المُحْدَثين، وتناولوا هذا التفسير بالتحليل والنقد، وبتنا نرى آراء مختلفة في هذا التفسير، وقد ألف هؤلاء شبه إجماع على أخذ النسفي عن الكشاف للزمخشري وعن أنوار التنزيل للبيضاوي، على الرغم من أن النسفي أغفل اسم البيضاوي تماماً من تفسيره، بينما أشار إلى صاحب الكشاف في بعض المواضع، وهي قليلة إذا قيست بمواطن أخذه عن هذا التفسير.

قال الدكتور الذهبي عنه: «هذا التفسير اختصره النسفي من تفسير البيضاوي، والكشاف للزمخشري، غير أنه ترك ما في الكشاف من الاعتزالات، وجرى فيه على مذهب أهل السنة والجماعة، وهو تفسير وسط بين الطول والقصر، جمع فيه صاحبه من وجوه الإعراب والقراءات، وضمنه ما اشتمل عليه الكشاف من النكت البلاغية والمحسنات البديعية، والكشف عن المعاني الدقيقة الخفية، وأورد فيه ما أورده الزمخشري في تفسيره من الأسئلة والأجوبة، لكن لا على طريقته من قوله: فإن قيل قلت، بل جعل ذلك في الغالب كلاماً مدرجاً ضمن شرحه للآية، كما أنه لم يقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف من ذكره للأحاديث الموضوعة في فضائل السور»[1].

وممن تحدث عن هذا التفسير الدكتور عبدالله محمود شحاته قال: «وقد اختصره النسفي من تفسير البيضاوي، ومن تفسير الكشاف، غير أنه ترك ما في الكشاف من آرائه الاعتزالية، وجرى فيه على مذهب أهل السنة والجماعة، وهو تفسير وسط ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، جمع فيه النسفي بين وجوه

(١) التفسير والمفسرون: ١/ ٣٠٥.

الإعراب والقراءات، وضمنه ما اشتمل عليه الكشاف من النكت البلاغية، والمحسنات البديعية»[١].

وقال عطية الجبوري: «القارئ في تفسير النسفي يلاحظ أنه ملخص لتفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير أنوار التنزيل للبيضاوي، ولما كان النسفي من أهل السنة والجماعة، وهو حنفي المذهب، لذا لم يذكر كل ما يصادفه من قضايا الاعتزال في الكشاف، ويستخلص منه النكت البلاغية، والمعاني العقلية الدقيقة، أضف إلى ذلك المحسنات اللفظية، فجاء كتابه هذا وسطاً بين الطول والقصر، ولم يكتف بما ذكر بل زاد عليها كثيراً من أقوال النحاة والإعراب، ووجوه القراءات، وإسناد القراءات إلى أصحابها، وكان مقتصراً في ذلك على القراءات السبع، وكان يعرفها كما يعرف غيرها، وهو يسير في تفسيره على طريقة الأسئلة والأجوبة، إلا أنه لم يجعلها ظاهرة، كما قد يشير إلى الإسرائيليات أحياناً»[٢].

وقال الدكتور رمزي نعناعة: «هذا التفسير اختصره مؤلفه من تفسير البيضاوي، ومن تفسير الزمخشري، غير أنه ترك ما في الكشاف من الاعتزالات، وجرى فيه على مذهب أهل السنة والجماعة، كما أنه لم يقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف من ذكره الأحاديث الموضوعة في فضائل السور»[٣].

ولعل خير من تعرض لهذا التفسير الدكتور منيع عبد الحليم محمود الذي أظهر محاسنه ومثالبه بشكل واضح جلي قال: «والواقع أنه على الرغم من منزلة الإمام النسفي الكبرى، فإن مكانته في علم الكلام هي مناط شهرته، ومصدر ذيوع

(١) تاريخ القرآن والتفسير: ١٦٣.

(٢) دراسات في التفسير ورجاله: ١٠٧.

(٣) الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير: ٣١٠.

صيته، أمـا تفسيره على ماله من مكانـة كبيـرة لا تنكر، ومن منزلة سامية لا يشك فيهـا، فإنه كان فيه عالة على تفسيـر الإمـام الزمخشري في مجال معين هو مجال الجوانب البلاغية التي برع فيها جار الله، ولم يجاره فيها مجار، وعلى تفسير الإمام البيضاوي.

والإمـام النسفي ـ وإن كان عني عنـاية بالغة بالرد على الإمام الزمخشري ـ فإنه تبنّى كل ما كتبه الإمام الزمخشري تقريباً في البلاغة القرآنية»(١).

ويتابع قوله قائلاً: «والنـاظر في هذا التفسير، يجد فيه فهماً واعياً، وخبرة دقيقة، واطلاعاً واسعاً، وحسن استفادة من هـذا الاطلاع، وقد استفاد من تفسير البيضاوي والكشاف أيّما استفادة، فأخذ من البيضاوي معناه الدقيق، وفهمه الواعي وتوجيهه السديد، وإيجازه المركز، وأخذ عن الزمخشري في كشافه خبرته الواسعة باللغـة، ومناقشتـه للآراء المتعددة واختيار ما يراه، علماً أنه لم يقع فيما وقع فيه الزمخشري في كشافه من التعصب لمذهب الاعتزال، وحمل الآيات في تعسف على تأييد أصوله وقواعده، إنه على العكس من ذلك اتخذ موقفاً مضاداً، فحارب ما يخالف المذهب(٢) الأشعري مستفيداً من طريقة الزمخشري، راداً عليه، منتقداً طريقته وحججه، ويمتاز تفسيره بإقلاله من الإسرائيليات، وابتعاده ما استطاع عنها، كما يمتاز بتحريه في اختيار الأحاديث، ويظهر ذلك أبلغ ما يظهر في تركه ذكر الأحاديث الموضوعة في فضائل السور، كما أنه لم يتوسع في الإعراب، ولم يدخل في تفصيـلات فرعية تشتت الذهن، وتبتعد بالقارئ عن الجو القرآني، ولم يخل تفسيره من الإشارة إلى

---

(١) مناهج المفسرين: ص٢٢٠.

(٢) ويعني بالمذهب الأشعري المذهب السني، ولا يعني فرقة الأشاعرة منهم، لأن النسفي كان ماتريدياً كما رأينا.

المذاهب الفقهية في بعض آيات الأحكام، والانتصار لمذهبه الحنفي[١].

والتفسير لا يسلم من النقد، وهو ما لمسه الدكتور محمود فقال: «ولا يسلم تفسير النسفي على وجه العموم من النقد: لقد اكتفى بإشارات في غاية الإيجاز إلى الآراء المختلفة المتعلقة بالآيات التي استدلت بها الفرق، وكأنه يفترض شهرة هذه الآراء ومعرفة الكلِّ بها، ودوام هذه المعرفة، ويتمثل لنا ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الملك: ١٤] إنه يقول: أنكر أن لا يحيط علماً بالمضمر والمسر والمجهر من خلقها، وصفته أنه اللطيف، أي: العالم بدقائق الأشياء الخبير، العالم بحقائق الأشياء، وفيه إثبات خلق الأقوال، فيكون دليلاً على خلقه لأفعال العباد. قال أبو بكر بن الأصم، وجعفر بن حرب: من مفعول، والفاعل مضمر وهو الله تعالى، فاحتالا بهذا لنفي خلق الأفعال»[٢].

ولم يسلم من الإسرائيليات رغم احتياطه وتحفظه، فذكر الكثير منها ولم يشر إلى خطئها أو ضعف روايتها، وهو ما لاحظه الدكتور محمود أيضاً فقال: «ولم يسلم من الإسرائيليات رغم احتياطه وتحفظه فتراه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[النمل: ١٦] قال: «روي أنه صاحت فاختة ـ طائر معروف ـ فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا، وصاح طاوس فقال: يقول: كما تدين تدان، ثم ذكر أصنافاً من الطير. . . دون أن يعقّب على ذلك، بل دون أن يحترز من ذكر مثل هذه الأقوال التي لا سند لها من الأحاديث الصحيحة، ونأخذ عليه أن أسلوبه يعلو على مستوى العامة حيث حشد فيه ألواناً من العلوم المتعلقة بالقرآن لا يفهمها إلا من عنده فكرة سابقة عنها.

---

(١) مناهج المفسرين: ص٢١٧.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٢٧٦.

ففي المائدة ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا . . .﴾[المائدة: ١١٤] يذكر آراء الحسن ووهب وغيرهما، دون أن يوجه نظره إلى ما رواه الترمذي بسنده عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً»[١].

وممن تعرض لهذا التفسير أيضاً قاسم القيسي إذ يقول فيه: «هو تفسير وسط في التأويلات، جامع لوجوه الإعراب والقراءات، متضمن لدقائق علم البديع والإشارات، موشح بأقاويل أهل السنة والجماعة، خال من أباطيل أهل البدع والضلالة والشناعة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، فلذا قد تخلف الناس على تدريسه في كافة الأقطار، لظهور فضله لفظاً ومعنًى، ظهور الشمس في رابعة النهار، وإن لم يخل من تراخ وخلل، وبعض تقصير كما لا يخفى على الفطن الناقد البصير»[٢].

وآخر ما نعثر عليه ما قاله الدكتور صبحي الصالح ـ رحمه الله ـ إذ يقول: «وأما النسفي فيعنيه بالدرجة الأولى الدفاع عن وجهة نظر أهل السنة والجماعة، والرد على أهل البدع والأهواء، وتفسيره جامع لوجوه الإعراب والقراءات، وفيه إشارات دائمة إلى روائع البلاغة القرآنية في عبارة موجزة بل شديدة الإيجاز»[٣].

وعلى ضوء هذه الأقوال السابقة نجد أن أغلب المُحَدِّثين يجمعون على أخذه عن البيضاوي والزمخشري، وهو الحقيقة التي يلمسها كل دارس لهذه التفاسير الثلاثة. فقد أخذ عنهما طريقتهما العامة في التفسير، كما أخذ عن كل منهما ما وُجِدَ في تفسيره من المحاسن والميزات، فأخذ مثلاً عن الزمخشري نكاته البلاغية التي

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٣٠٩.

(٢) تاريخ القرآن: ص١٤١.

(٣) مباحث في علوم القرآن: ص٢٩٣.

أثارت انتباه السابقين جميعاً، والتي أعطت الكشاف منزلته المرموقة، كما أخذ عنه دقته العلمية واستنباطاته اللغوية، واستطراداته الأدبية التي ملأت تفسيره كلها، ولم ينس أن يأخذ خلاصة نقاش الزمخشري اللغوي والعقلي فيضعها في تفسيره، ولم يقف عند هذا الحد بل سار معه جنباً إلى جنب ما دام بعيداً عن مبدئه الفكري، فإذا ما دخل الزمخشري في نظراته الاعتزالية، خالفه النسفي وردّ فكرته دون الإشارة إلى الزمخشري نفسه في أغلب الأحيان، ويكتفي بقوله: «خلافاً[١] للمعتزلة»، كما دفعه مبدؤه هذا إلى الرد على كل الفئات المخالفة للجماعة، فرد على الباطنية والجبرية، والحشوية، والمرجئة. وفنّد[٢] أقوالهم.

ولذا لم يقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف من التعصب المذهبي، الذي دفعه إلى جعل فكرته الاعتزالية أصلاً، والتفسير تابعاً لها، كما لم يقع فيما وقع فيه الزمخشري والبيضاوي أيضاً من ذكرهما للأحاديث الضعيفة في فضائل الآيات والسور.

فجاء تفسيره هذا جامعاً لمحاسن التفسيرين، متجنباً لمثالبهما فكان بحق تفسيراً كاملاً جمع البلاغة[٣] والقراءة[٤] واللغة[٥] والتفسير[٦] والأدب[٧] والتربية[٨]

---

(١) انظر: رده على المعتزلة.

(٢) انظر: رده على هذه الفئات.

(٣) انظر: منهجه البلاغي.

(٤) انظر: النسفي وعلم القراءات.

(٥) انظر: منهجه اللغوي.

(٦) انظر: منهجه في علوم القرآن.

(٧) انظر: منهجه الأدبي.

(٨) انظر: منهجه التربوي.

وهو ما لا نجده في أي منهما وحده مما يدعونا إلى القول: بأن تفسير النسفي نموذج للتفسير المحمود الذي جمع شروط التفسير بالرأي التي وضعها العلماء.

على الرغم من بعض المآخذ التي أشار إليها الدكتور عبد المنيع محمود في كتابه، والتي تتلخص في ترفع أسلوبه عن مستوى العامة، لذكره الكثير من العلوم المتعلقة بالقرآن التي لا يفهمها إلا من عنده فكرة سابقة عنها، وذكره بعض الروايات الضعيفة والتي لم يشر إليها في أغلب الأحيان، إضافة إلى طريقته التي اتبعها في ذكر الأحاديث التي أوردها في تفسيره، والتي أتى بها خالية من أسانيدها، مما جعل قارئ تفسيره في حيرة شديدة، واضطراب كبير في معرفة الصحيح منها والسقيم. وهو من الأمور التي يجب أن يحتاط فيها المفسر تماماً.

❑ ❑ ❑

الباب الثاني

منهجه في التفسير وآراؤه

وفيه ستة فصول:

* الفصل الأول: مبدؤه الفكري ورده على الفئات المخالفة.
* الفصل الثاني: منهجه في علوم القرآن.
* الفصل الثالث: منهجه اللغوي والنحوي.
* الفصل الرابع: منهجه التربوي والأدبي والعقلي.
* الفصل الخامس: منهجه البلاغي.
* الفصل السادس: النسفي بين البيضاوي والزمخشري.

الباب الثاني
منهجه في التفسير وآراؤه

الفصل الأول
منهجه الفكري في تفسيره

إنّ الدراسة المتعمقة لتفسير النسفي، تشير إلى مبدئه الفكري، وآرائه التي آمن بها، وبثّها في هذا التفسير الذي أراده أن يكون كاملاً شاملاً، كما قال في مقدمته.

ولهذا سعى إلى إبراز آرائه الفكرية في كل آية من آيات القرآن استخدمها مخالفوه لتأييد آرائهم ودعمها، ويحاول تفنيد هذه الآراء وبيان بطلانها وفسادها، فهو في تفسيره لم يكن يسعى لغرض التفسير وحده، ولكنه كان يجد في عمله هذا فرصة مناسبة للرد على مخالفيه، ولتثبيت آرائه.

ويأتي في طليعة هذه الفرق: المعتزلة والجَهْمية، والكرامية، والروافض، إلا أن ذلك لم يكن بعد عرض مفصل لآراء هذه الفرق في المسألة التي يناقشها، إنما كان يكتفي بقوله: خلافاً للمعتزلة... أو الكرامية...، وربما دعاه إلى ذلك اختصاره الشديد، ورغبته في أن يكون كتابه جامعاً لكافة العلوم في كلمات موجزة مختصرة، تضامناً مع الغاية الأساسية من تأليف هذا الكتاب، وتتجلى هذه الأمور في مسائل كثيرة:

١ ـ مسألة الإيمان:

يرى النسفي أن الإيمان هو: الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان، أما العمل

فليس بداخل في الإيمـان، خلافاً للمعتزلة الذين يرون أنّ الإيمان الصحيح هو: اعتقاد الحق، والإعراب عنه باللسان، والتصديق بالعمل، فمن أخل بالاعتقاد فهو منافق، ومن أخلّ بالشهادة فهو كافر، ومن أخلّ بالعمل فهو فاسق[1]، وقد أعلن النسفي هـذا المعنى في تفسير قول الله تـعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[البقرة: ٣] قال: «والإيمان الصحيح أن يقرّ باللسان، ويصدق بالجنان، والعمـل ليـس بداخـل فـي الإيمـان»[2] ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[المؤمنون: ١ ـ ٢][3].

وهو بقـوله هذا يرد قول الكراميـة الذين يقولون[4]: إن الإيمان هو الإقرار باللسـان لا غير، وقد وجـد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٨] مجالاً للرد على هذه الفئة فقال: «والآية تنفي قول الكرامية أن الإيمان هو الإقرار باللسان لا غير، لأنه نفى عنهم اسم الإيمان مع وجود الإقرار منهم، وتؤيد قول أهل السنة: إنه إقرار باللسان، وتصديق بالجنان»[5].

ويؤكـد هذا المبـدأ في تفسـير قـوله تعـالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ

---

(١) انظر: الكشاف: ١/ ٢٢، ٢٣١.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٣، وقد رد قول المعتزلة في تفسيره: ١/ ٣٣.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ١١٣.

(٤) الكَرّامية: وهم أصحاب أبي عبدالله محمد بن كَرّام، (ت٢٥٥هـ) نشأت في خراسان ورأت أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط، وخاضوا في عصمة الأنبياء عليهم السلام فقالوا: كل ذنب أسقط العدالة، أو أوجب حداً فهم معصومون عنه، وغير معصومين مما دون ذلك، انظر: مبادىء هذه الفرقة في الملل والنحل: ١/ ١٤٤.

(٥) تفسير النسفي: ١/ ١٨.

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[المائدة: ٨٣ ـ ٨٤] فقال: «وفيه دليل على أن الإقرار داخل في الإيمان، كما هو مذهب الفقهاء، وتعلقت الكرّامية في أن الإيمان مجرد القول بقوله: ﴿بِمَا قَالُواْ﴾[١] لكن الثناء بفيض الدمع في السياق، وبالإحسان في السياق يدفع ذلك، وأنى يكون مجـرد القول إيماناً وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٨] نفـى الإيمان عنهـم مع قولهم: آمنا بالله لعدم التصديق بالقلب»[٢].

وهـو يرد قول الجهمية[٣] أيضاً التـي رأت أن الإيمان هو المعرفة، وتفسير الإيمان بهذا المعنى فيه صرف الاسم عن المفهوم لغة إلى غير المفهوم[٤].

والإيمان عنده يتناول أشياء منها ما الطريق إليه السمع، ومنها ما الطريق إليه العقل، وهذا ما دعـاه إلى تفسـير قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[الشورى: ٥٢] بأن المقصود ما طريقه السمع لا العقل فقال: «وقيـل الإيمان يتنـاول أشياء بعضهـا الطريق إليها العقل، وبعضها الطريق إليه السمع، فمعني به ما الطريق إليه السمع دون العقل، وذاك بما كان له فيه علم

---

(١) تمام الآية: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢٩٨، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ٤/ ١٧٤.

(٣) الجهمية: وهم أتباع جهم بن صفوان السمرقندي، أبو محرز الذي ظهرت بدعته في ترفد، قتله سالم بن أحوز المازني بمرو في أواخر ملك بني أمية، وتَزْعُمُ هذه الفئة أن الجنة والنار تَبيدان وتفنيان، وأن الإيمان هو معرفة الله تعالى بالقلب فقط وإن أظهر النصرانية واليهودية، وأفعال العباد من صنع الله، والإنسان مجبر لا مختار، ونفى رؤية الله.

انظر: مبادئ الجهميـة في: الملل والنحـل: ١/ ١١١، والفرق بين الفرق: ص١٩٩، والفصل في الملل والنحل: ٤/ ٨٣.

(٤) انظر: اعتماد الاعتقاد: ورقة ١٧٧ ـ ١٧٨.

حتى كسبه بالوحي»[1].

وعلى هـذا فالسمع والعقل حجتان ملزمتان للإنسان، ومدارُ التكليف قائمٌ على أساسهما عنده، خلافاً للأشاعرة الذين يرون أن مدار التكليف[2] على السمع، وهو ما يبدو واضحاً في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[الملك: ١٠] قال: «وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل، وأنهما حجتان ملزمتان»[3] وعلى هذا فالإيمان عنده لا يزيد ولا ينقص ـ خلافاً للمعتزلة الذين[4] يرون أن الإيمان يزيد وينقص ـ وما يزيد فيه هو ثمرته وإشراق نوره لا غير قال: «وإذا ثبت أنه ـ أي الإيمان ـ تصديق العبد، وهو يتزايد في نفسه، دل أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأنه مخلوق، والزيادة الواردة في الإيمان من حيث تجدد الأمثال، كسائر الأعراض، أو زيادة ثمرته وإشراق نوره»[5].

ومعاصي الإنسان صغائر وكبائر، والكبائر ما ذكره عبدالله بن مسعود بقوله[6]: «الكبائر كل ما نهى الله عنه من أول سورة النساء إلى قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[النساء: ٣١] وبقوله أيضاً: «الكبائر ثلاث: الإشراك بالله، واليأس من رَوْح الله، والأمن من مكر الله»[7]، وما دونها صغائر، وغفرانها مقرون

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ١١٢.

(٢) انظر: اعتماد الاعتقاد: ورقة ١٧٥.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ٢٧٥.

(٤) انظر: الكشاف: ١/ ٢٣١، واحتجوا بقول عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول: قم بنا نزدد إيماناً.

(٥) انظر: اعتماد الاعتقاد: ورقة ١٨٢، عمدة عقيدة أهل السنة: ص٢٢.

(٦) تفسير النسفي: ١/ ٢٢٢.

(٧) تفسير النسفي: ١/ ٢٢٢.

بمشيئة الله وإرادته، خلافاً للمعتزلة الذين رأوا أن الصغائر واجبة المغفرة، أما الكبائر فلا تغفر[١] إلا بالتوبة شأنها شأن الكفر، وقد ردَّ على أقوال هذه الفرقة في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[النساء: ٣١] قال: «وَتَشَبُّثُ المعتزلة بالآية ـ على أن الصغائر واجبة المغفرة باجتناب الكبائر، وعلى أن الكبائر غير مغفورة ـ باطل لأن الكبائر والصغائر في مشيئته تعالى سواء، إن شاء عذب عليهما، وإن شاء عفا عنهما لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٨] فقد وعد المغفرة لما دون الشرك وقرنها بمشيئته تعالى. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] فهذه الآية تدل على أن الصغائر والكبائر يجوز أن يذهبا بالحسنات لأن لفظ السيئات ينطلق عليهما»[٢].

ويوضح هذه الفكرة مرة أخرى في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٨] قال: «أي ما دون الشرك، وإن كان كبيرة مع عدم التوبة، والحاصل أن الشرك مغفور عنه بالتوبة، وأن وعد غفران ما دونه لمن لم يتب، أي لا يغفر لمن يشرك وهو مشرك، ويغفر لمن يذنب وهو مذنب، وحَمْلُ المعتزلة على التائب باطل؛ لأن الكفر مغفور عنه بالتوبة، لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال: ٣٨] فما دونه أولى أن يغفر بالتوبة، والآية سيقت لبيان التفرقة بينهما فيما ذكرنا»[٣].

وعلى هذا فالناس قسمان من حيث الإيمان والكفر: مؤمن وكافر، والمؤمنون

---

(١) انظر: الكشاف: ١/ ٢٧٣.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢٢٢.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٢٣٠، انظر أيضاً: رده على هذه القضية: ٢/ ٤٨.

منهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق إلى الخيرات، والصنف الثاني الكفار، وقد قدّم الله تعالى الظالم لنفسه حتى لا يفقد الأمل، وييأس من فضل الله وليعرف أن ذنبه لا يبعده عن ربه.

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾[فاطر: ٣٢] «سئل أبو يوسف ـ رحمه الله ـ عن هذه الآية فقال: كلهم مؤمنون وأما صفة الكفار فبعد هذا وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾[فاطر: ٣٦] وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده، فإنه قال: فمنهم ومنهم ومنهم، والكل راجع إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ﴾ وهم أهل الإيمان وعليه الجمهور، وإنما قدّم الظالم للإيذان بكثرتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقون أقلّ من القليل»(١).

وهو في هذا ينقض قول المعتزلة التي تقول بالمنزلة بين المنزلتين، وقد أشار إلى خطأ هذا الرأي في تفسير قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[البقرة: ٢٦] قال: «والفسق: الخروج عن القصد، والفاسق في الشريعة: الخارج عن الأمر بارتكاب الكبيرة، وهو النازل بين المنزلتين، أي: منزلة المؤمن ومنزلة الكافر عند المعتزلة، وسيمر عليك ما يبطله إن شاء الله»(٢).

وقد أبطل دعوى المعتزلة هذه في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الإسراء: ٩ ـ ١٠] قال: «والآية ترد القول بالمنزلة بين

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٣٤١.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٣٨.

المنزلتين حيث ذكر المؤمنين وجزاءهم، والكافرين وجزاءهم، ولم يذكر الفسقة»[١].

إذاً: فالكبائر عنده لا تسلب صاحبها اسم الإيمان، ولا تخرجه منه، فأمامه فضل الله ومشيئته وغفرانه، ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾[الأنفال: ٧٢] فقال: «فكان لا يرث المؤمن الذي لم يهاجر من آمن وهاجر، ولمّا أبقى للذين لم يهاجروا اسم الإيمان، وكانت الهجرة فريضة فصاروا بتركها مرتكبي كبيرة، دلَّ على أن صاحب الكبيرة لا يخرج عن الإيمان»[٢].

إلا أن هذا لا يمنع من عذاب صاحب الكبيرة في النار، فالعذاب والعفو موكّلان بأمر الله ومشيئته، فإن شاء عذب وإن شاء عفا، فقد يعذب صاحب الكبيرة بقدر ذنبه، ولكن لابد من نجاته في النهاية، خلافاً لما قاله المعتزلة من أنه يخلد في النار[٣]، ولما قالته المرجئة: أنه لا يضر مع[٤] الإيمان معصية. وقد أشار إلى هذه المعاني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَّنَذَرُ الظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[مريم: ٧٢] قال: «وفيه دليل على المرجئة الخبيثة، لا يعاقب لأن المعصية لا تضر مع الإسلام عندهم، وقالت المعتزلة: يخلد»[٥].

كما ردَّ على المرجئة قولها هذا مرة أخرى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٣٠٨.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ١١٣، انظر: تفسير النسفي: ٤/ ٢٤٦.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٤٢، ٢٢٦، ٢٤٤، ٢٦٠ و٢/ ٢٠٦ و٣/ ٤٣.

(٤) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٨١.

(٥) تفسير النسفي: ٣/ ٤٣، انظر: تفسير النسفي أيضاً: ١/ ٢١٤، ٢٢٦، ٢٤٤، و٢٦٠، ٢/ ٢٠٦. وأضاف قائلاً «والمعتزلة لما لم يروا خروج العصاة من النار، ردوا الأحاديث المروية في هذا الباب وكفى به إثماً مبيناً» ٢/ ٢٠٢.

ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[آل عمران: ١٣٢] قال: «وفيه ردّ على المرجئة في قولهم لا يضر مع الإيمان ذنب، ولا يعذب بالنار أصلاً، وعندنا غير الكافرين من العصاة قد يدخلها، ولكن عاقبة أمره الجنة وفي ذكره تعالى: لعل وعسى في نحو هذه المواضع ـ وإن قال أهل التفسير: إن لعل وعسى من الله للتحقيق ـ ما لا يخفى على العارف من دقة مسلك التقوى، وصعوبة إصابة رضا الله تعالى، وعزة التوصل إلى رحمته وثوابه»(١).

فإذا عذّب فعذابه تحقيق لوعيده، وإنْ عفا فعفوه تحقيق لوعده، فعفوه فضل، وعذابه عدل(٢)، والإنسان لا يعذب إلا بفعله وخطئه، لذا فأطفال المشركين لا يعذبون إذ لا ذنب(٣) لهم ولا خطيئة، وقد قرر هذا الأمر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[التكوير: ٨ ـ ٩] قال: «وفيه دليل على أن أطفال المشركين لا يعذبون وعلى أن التعذيب لا يكون إلا بذنب»(٤) خلافاً لما رآه الأشاعرة الذين جعلوا أمر الأطفال إلى الله، إن شاء عذب، وإن شاء فعل بهم ما أراد(٥).

وخلاصة القول هنا: أن المؤمنين يرحمون جميعاً، وقد أعلن ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[الحاقة: ٣٣ ـ ٣٤] قال: وهذه الآيات ناطقة على أن المؤمنين يرحمون جميعاً، والكافرين لا يرحمون؛ لأنه قَسَمَ الخلقَ صنفين، فجعل صنفاً منهم أهل اليمين، ووصفهم بالإيمان

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٢٧٧.

(٣) كما قال المعتزلة، انظر: الكشاف: ٤/ ١٨٨.

(٤) تفسير النسفي: ٤/ ٣٣٥.

(٥) انظر: مقالات الإسلاميين: ص٢٩٦.

فحسب، بقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾[الحاقة: ٢٠] وصنفاً منهم أهل الشمال، وصفهم بالكفر بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الحاقة: ٣٣].

ولذا فإن خَلْقَ الإنسان لم يكن عبثاً، ولا تَرْكَهُ كذلك، فالإنسان خُلِقَ للعمل، ولابد له من الحساب، فإن لم يكن ذلك في الدنيا، فليكن في الآخرة، وعذاب الدنيا لا يغني عن عذاب الآخرة. قال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام: ٩٩] «وفيه دليل على صحة البعث، لأن معناه: أَلَمْ يعلموا أنا جعلنا الليل والنهار قواماً لمعاشهم في الدنيا، ليعلموا أن ذلك لم يجعل عبثاً بل محنة وابتلاء، ولا بد عن ذلك من ثواب وعقاب، فإذا لم يكونا في هذه الدار فلا بد من دار أخرى للثواب والعقاب، وعذاب الدنيا لا يغني عن عذاب الآخرة»[1].

٢ ـ مسألة الشفاعة:

ولما كان النسفي واحداً من أهل الجماعة، فقد أثبت الشفاعة لعصاة المؤمنين كما أثبتها لهم هؤلاء، وردَّ على المعتزلة رأيهم في نفي[2] الشفاعة للعصاة، وقد أعلن رأيه هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[البقرة: ٤٨] قال: والضمير في «منها» يرجع إلى النفس المؤمنة؛ أي: لا يقبل منها شفاعة للكافرة، وتَشَبُّثُ المعتزلة بالآية في نفي الشفاعة للعصاة مردود، لأن المنفي شفاعة الكفار، وقد قال ﷺ: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، مَنْ كَذَّبَ بها لم ينلها)[3].

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٥.

(٢) انظر: الكشاف: ١/ ٦٧، ٣٠٠، والتبصير: ص٦٦، والملل والنحل: ١/ ٤٣ ـ ٤٦.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٤٧ والحديث «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» في جامع الأصول: ٩/ ٢٠٠ و١٠/ ٤٧٦ و٤٧٧ رقم الحديث ٦٧٦٨، ٨٠١٢، ٨٠١٣، ومجمع الزوائد: =

وأكد ذلك مرة أخرى في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر: ٤٨] بقوله: «وفيه دليل ثبوت الشفاعة للمؤمنين»[١] وفي الحديث: (إن من أمتي من يدخل الجنة بشفاعته أكثر من ربيعة ومضر)[٢].

بينما رأى المعتزلة أن الشفاعة زيادة فضل لا غير، وهي من المواعيد والأماني الكاذبة[٣].

وعلى هذا فلا يدخل الجنة أحد بعمله، بل يدخلها بفضل الله ومنّتِهِ، خلافاً للمعتزلة أيضاً الذين يرون أن[٤] لا جنة بلا عمل، أشار إلى ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[الحديد: ٢١] قال: «وهم المؤمنون، وفيه دليل على أنه لا يدخل أحد الجنة إلاّ بفضل الله»[٥].

فالعمل ضروري إلا أنه لا يوجب الجنة، والحمد في الدنيا واجب لأنها دار تكليف، وفي الجنة غير واجب، لأنه لا تكليف فيها، وقد أشار إلى ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[سبأ: ١]

= باب: ما جاء في الشفاعة: ١٠/ ٣٦٩ وباب منه في الشفاعة: ١٠/ ٣٧٨، ومسند الإمام أحمد: ٣/ ٢١٣، وتمامه من كذب بالشفاعة لم ينلها يوم القيامة وأخرجه الشهاب في مسنده، رقم الحديث ٣٩٩ عن أنس بن مالك ﷺ رقم ٢٨٦ باب: من كذب بالشفاعة لم ينلها يوم القيامة.

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣١٢.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك عن الحارث بن أقيش: ١/ ٧١، وكنز العمال: ج١٢، رقم الحديث ٣٤٠٦٩.

(٣) انظر: الكشاف: ١/ ١٥٢، و١/ ١٨٢، ٢٩٩، و٢/ ٣٦٧.

(٤) انظر: الكشاف: ١/ ٣٠٠ و٢/ ٦٣.

(٥) تفسير النسفي: ٤/ ٢٢٨.

بقوله: «كما هو له في الدنيا، إذ النعم في الدارين من المولى، غير أن الحمد هنا واجب، لأن الدار دار تكليف وثَمَّ لا؛ لعدم التكليف، وإنما يحمد أهل الجنة سروراً بالنعيم، وتلذذاً بما نالوا من الأجر العظيم بقولهم: الحمد لله الذي صدقنا وعده، الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن»[١].

وهذا ما دعا إلى الاعتقاد بأن المؤمنين أفضل على الله من الملائكة، لاجتماع الشهوة والعقل عندهم، وفي الملائكة عقل بلا شهوة، خلافاً للمعتزلة الذين رأوا أن الملائكة[٢] أفضل من البشر، ورأى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[الإسراء: ٧٠] مجالاً لتأييد هذه الفكرة وتقريرها فيقول: «وعنه ﷺ: (المؤمن أكرم على الله من الملائكة)[٣] وهذا لأنهم مجبولون على الطاعة، ففيهم عقل بلا شهوة، وفي البهائم شهوة بلا عقل، وفي الآدمي كلاهما، فمن غلب شهوته فهو أكرم على الله من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله، فهو شر من البهائم، ولأنه خلق الكلَّ لهم، وخلقهم لنفسه»[٤] وقد أوضح رأيه بهذه القضية بشكل مفصل.

ورد قول المعتزلة، وأبطل ادعاءهم في تفسير قول الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[النساء: ١٧٢] قال: «أي الكروبيون الذين حول العرش، كجبريل وميكائيل، وإسرافيل، ومن في طبقتهم، والمعنى ولا الملائكة المقربون أن يكونوا عباداً لله، فحذف ذلك لدلالة عبداً لله عليه إيجازاً،

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٢١٧.

(٢) انظر: الكشاف: ١/ ٨٤، و٢/ ١٥، ٢٥٤.

(٣) الحديث في كنز العمال رقم الحديث ٨٢١ عن أنس رضي الله عنه.

(٤) تفسير النسفي: ٢/ ٣٢٢.

وتشبَّث المعتزلة والقائلون[1] بتفضيل الملك على البشر بهذه الآية، وقالوا: الارتقاء إنما يكون إلى الأعلى. . . ويتابع قوله قائلاً: والحاصل أنّ خواص البشر وهم الأنبياء عليهم السلام أفضل من خواص الملائكة وهم الرسل منهم، كجبريل وميكائيل وعزرائيل ونحوهم، وخواص الملائكة أفضل من عوام المؤمنين من البشر، وعوام المؤمنين من البشر أفضل من عوام الملائكة، ودليلنا على تفضيل البشر على الملك ابتداء أنهم قهروا نوازعَ الهوى في ذات الله، مع أنهم جُبِلوا عليها فضاهت الأنبياءُ عليهم السلام الملائكةَ عليهم السلام في العصمة وتفضلوا عليهم في قهر البواعث النفسانية، والدواعي الجسدانية، فكانت طاعتهم أشقّ لكونها مع الصوارف، بخلاف طاعة الملائكة لأنهم جبلوا عليها، فكانت أزيد ثواباً»[2].

٣ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عنده من فروض الكفاية، ولا يصلح لهذه المهمة إلا من عَلِمَ المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته، كل هذا يقرره النسفي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[آل عمران: ١٠٤] فيقول: «والمعروف ما استحسنه الشرع والعقل، والمنكر ما استقبحه الشرع والعقل، أو المعروف ما وافق الكتاب والسنة، والمنكر ما خالفهما، أو المعروف الطاعة، والمنكر المعاصي، والدعاء إلى الخير عام في التكاليف من الأفعال والتروك، وما عطف عليه خاص، ومن للتبعيض؛ لأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من فروض الكفاية؛ ولأنه لا يصلح له إلا من علم بالمعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته، فإنه يبدأ بالسهل،

---

(١) من السنة: أبو بكر الباقلاني، انظر: اعتماد الاعتقاد: ورقة ٢٢٦.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢٦٦، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ٤/ ٣٧١.

فإن لم ينفع ترقّى إلى الصعب، قال الله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾[الحجرات: ٩][١] ثم قال: ﴿فَقَٰتِلُواْ﴾.

٤ ـ رؤية الله:

أجاز النسفي رؤية الله يوم القيامة، خلافاً للمعتزلة الذين نفوا ذلك، وقالوا إن رؤية الله محال[٢] وجعلوا مَنْ أجازها على غير دين الله[٣]، واحتجوا على صحة رأيهم بإهلاك قوم موسى لمّا سألوا رؤية الله، كما احتج أهل الجماعة أنفسهم ـ ومنهم النسفي ـ بالآية نفسها على جواز الرؤية، لأن موسى ما كان يسأل ربه لو علم أن الرؤيا غير جائزة، فأثبت رؤية الله، وجعلها قمة الكرامات.

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين: ١٥] «قال الزّجّاج: في الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم، وإلا لا يكون التخصيص مفيداً، وقال الحسين بن الفضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في العقبى عن رؤيته، وقال مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ: لمّا حجب أعداءه فلم يروه، تجلى لأوليائه حتى رأوه، وقيل: عن كرامة ربهم لأنهم في الدنيا لم يشكروا نعمه، فيئسوا في الآخرة من كرامته مجازاة، والأول أصح لأن الرؤية أقوى الكرامات، فالحجب عنها دليل الحجب عن غيرها»[٤].

ورأى أنَّ رؤيةَ المؤمن لله يوم القيامة زيادةُ فضل، وإن كانت رؤيته بلا كيف، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق: ٣٥] «على ما يشتهون،

(١) وتتمة الآية: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

(٢) انظر: الكشاف: ١/ ٣٥٥ و٢/ ٨٩.

(٣) انظر: الكشاف: ١/ ١٧٩.

(٤) تفسير النسفي: ٤/ ٣٤٠.

والجمهور على أن رؤية الله تعالى بلا كيف»(١).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: ٢٦] «الحسنى: المثوبة الحسنى وهي الجنة، وزيادة: رؤية الله تعالى، كذا عن أبي بكر وحذيفة وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وعبادة بن الصامت ﷺ، وفي بعض التفاسير أجمع المفسرون على أن الزيادةَ النظرُ إلى الله تعالى، وعن صهيب أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: أتريدون شيئاً أزيدكم فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال: فيرفع الحجاب فينظرون إلى الله تعالى، فما أعطوا شيئاً أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم»(٢).

وقد رأى في تفسير قول الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[الأنعام: ١٠٣] مجالاً للرد على المعتزلة وفساد رأيهم فقال: «لا تحيط به أبصار من سبق ذكرهم، وتَشَبُّثُ المعتزلة بهذه الآية لا يستتب، لأن المنفي هو الإدراك لا الرؤية، والإدراك هو الوقوف على جوانب المرئي وحدوده، وما يستحيل عليه الحدود والجهات،

(١) تفسير النسفي: ٤/ ١٨٠، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ٢/ ٢٠٦.

(٢) والحديث في جامع الأصول: ١٠/ ٥٦٠ وتخريجه ثمة، وأخرجه الحاكم في المستدرك عن جابر: ١/ ٨٢، وفي مجمع الزوائد عن أبي هريرة: ١٠/ ٤١٥، انظر تفسير النسفي: ٢/ ١٦١ وأضاف: «والعجب من صاحب الكشاف أنه ذكر هذا الحديث لا بهذه العبارة وقال: إنه حديث مدفوع مع أنه مرفوع قد أورده صاحب المصابيح في الصحاح» والحقيقة أن الزمخشري قال: «زعمت المجبرة (السنة) أن الزيادة النظرُ إلى وجه الله تعالى وجاءت بحديث مدفوع: إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً هو أحب إليهم منه»، الكشاف: ٢/ ١٨٨، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ من سورة يونس.

يستحيل إدراكه لا رؤيته، فنزل الإدراك من الرؤية منزلة الإحاطة من العلم، ونفي الإحاطة التي تقتضي الوقوف على الجوانب والحدود، لا يقتضي نفي العلم به فهكذا، هذا علماً أن مورد الآية وهو التمدح، يوجب ثبوت الرؤية إذ نفي إدراك ما تستحيل رؤيته لا تمدح فيه، لأن كل ما لا يرى لا يدرك، وإنما التمدح بنفي الإدراك مع تحقيق الرؤية، إذ انتفاؤه مع تحقيق الرؤية دليل ارتفاع نقيصة التناهي والحدود عن الذات، فكانت الآية حجة لنا عليهم، ولو أنعموا النظر فيها لاغتنموا التقصي عن عهدتها، ومَنْ ينفي الرؤية يلزمه نفي أنه معلوم موجود، وإلا فكما يعلم موجوداً بلا كيفية وجهة بخلاف كل موجود، لم يجز أن يرى بلا كيفية وجهة بخلاف كل مرئي، وهذا لأن الرؤية تحقق الشيء بالبصر، كما هو، فإن كان المرئي في الجهة يرى فيها، وإن كان لا في الجهة، يرى لا فيها»(١).

وكذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾[البقرة: ٥٥] قال: «قيل هي نار جاءت من السماء فأحرقتهم، روي أن السبعين الذين كانوا مع موسى عليه السلام عند الانطلاق إلى الجبل قالوا له: نحن لم نعبد العجل كما عبد هؤلاء فأرنا الله جهرة، فبعث الله عليهم صاعقة فأحرقتهم، وتعلقت المعتزلة بهذه الآية في نفي الرؤية لأنه لو كان جائز الرؤية لما عُذِّبوا بسؤال ما هو جائز الثبوت. قلنا: إنما عوقبوا بكفرهم لأن قولهم إنك رأيت الله فلن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة كفر منهم، ولأنهم امتنعوا عن الإيمان بموسى بعد ظهور معجزته، حتى يروا ربه جهرة، والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم ولا يجوز اقتراح الآيات عليهم، ولأنهم لم يسألوا سؤال استرشاد، بل سؤال تعنت وعناد»(٢).

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٢٧.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٤٩.

٥ ـ كلام الله تعالى:

أما كلام الله تعالى لرسله، فعلى ثلاثة أوجه لا تنافي مبدأ النسفي الفكري، وقد أشار إلى هذه الوجوه في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[الشورى: ٥١]؛ أي: إلهاماً كما روي: «نفث في روعي» أو رؤيا في المنام كقوله ﷺ: (رؤيا الأنبياء وحي)[١] وهو كأمر إبراهيم عليه السلام بذبح الولد. ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾؛ أي: أن يسمع كلاماً من الله كما سمع موسى عليه السلام من غير أن يبصر السامع من يكلمه، وليس المراد به حجاب الله تعالى؛ لأن الله تعالى لا يجوز عليه ما يجوز على الأجسام من الحجاب؛ ولكن المراد أن السامع محجوب عن الرؤية في الدنيا. ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي يرسل ملكاً فيوحي ـ أي الملك ـ إليه، وقيل (وحياً) كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة أو يرسل رسولاً، أي: نبياً، كما كَلَّمَ أمم الأنبياء على ألسنتهم، و(وحياً) و(أن يرسل) مصدران واقعان موقع الحال لأن «أن يرسل» في معنى إرسالاً، «ومن وراء حجاب» ظرف واقع موقع الحال، والتقدير: وما صح أن يكلم أحداً إلا وحياً أو سمعاً من وراء حجاب، أو مرسلاً، ويجوز أن يكون المعنى: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا بأن يوحي، أو أن يسمع من وراء حجاب، أو أن يرسل رسولاً»[٢].

٦ ـ الحسن والقبح ومهمة الرسل عليهم السلام:

يرى النسفي أن في الأشياء حسناً وقبحاً[٣] ذاتيين، خلافاً للأشاعرة الذين رأوا

---

(١) والحديث في جامع الأصول: ٦/ ٨١ رقم الحديث ٤١٩٧ وتخريجه ثمة وأخرجه صاحب مجمع الزوائد: ٧/ ١٧٦.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ١١١ ـ ١١٢.

(٣) كما رأى المعتزلة. والمقصود بالحسن والقبح: حسن الإيمان وقبح الكفر.

أنه لا يحرم[١] ولا يجب بالعقل شيء ولكن يجوز أن يعرف به حسن بعض الأشياء وقبحه، وقال: إن الشرع في تحسينه وتقبيحه للأشياء مخبر عنها لا مثبت لها، والعقل مدرك لها لا منشئ، كما أن العقل[٢] حجة الله على الناس، وقد أكد النسفي هذه الأمور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[التوبة: ١١٥] فقال: «أي: ما أمر الله باتقائه واجتنابه، كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه، وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان خطره، وعلمهم بأنه واجب الاجتناب، وأما قبل العلم والبيان فلا، وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين، والمراد بما يتقون. ما يجب اتقاؤه للنهي، فأما ما يعلم بالعقل فغير موقوف على التوقيف»[٣].

وتتحدد مهمة الرسل عنده بتنبيه الغافلين من غفلتهم، وتنبيههم وتعليمهم ما لا سبيل إليه إلا بالسمع كالعبادات والشرائع هذا ما قرره في تفسير قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء: ١٦٥] فقال: «والمعنى أن إرسالهم إزاحة للعلة، وتتميم لإلزام الحجة لئلا يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً يوقظنا من سِنَةِ الغفلة، وينبهنا بما وجب الانتباه له، ويعلمنا ما سبيل معرفته السمع كالعبادات والشرائع؛ أعني: في حق مقاديرها وأوقاتها وكيفياتها دون أصولها، فإنها مما يعرف بالعقل»[٤].

---

(١) انظر: عمدة عقيدة أهل السنة: ص٢١، والاعتماد في الاعتقاد: ورقة ١٧٥.

(٢) ويرى المعتزلة أن العقل موجب بذاته، كما يقولون أن العبد موجد لأفعاله، أما السنة فالعقل عندهم آلة للمعرفة والموجب هو الله، انظر: الاعتماد: ورقة ١٧٦ ـ ١٧٥.

(٣) تفسير النسفي: ٢/ ١٤٨.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٢٦٤، وانظر: الاعتماد: ورقة ١٠٦.

ولذا «فما على الرسل إلا أن يبلّغوا الحق ويُطْلِعوا على بطلان الشرك وقبحه»[١].

هذه المواقف دعته إلى أن يعدَّ الحرام رزقاً كالحلال تماماً ـ كما اعتقد غيره من أهل الجماعة ـ خلافاً للمعتزلة[٢] الذين لم يعدوه رزقاً، وقد أوضح هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ [الرعد: ٢٢] قال: أي من الحلال، وإن كان الحرام رزقاً عندنا»[٣].

وأفعال العباد مضافة إلى الله خلقاً وإلى العبد كسباً، لا كما تقول الجبرية[٤] والمعتزلة[٥]، وقد نبّه على هذا المبدأ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال: ١٧] فقال: «يعني أنَّ الرمية التي رميتها أنت، لم ترمها أنت على الحقيقة؛ لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، وفي الآية دليل على أن فعل العبد

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٢٨٦.

(٢) والواقع أن الرزق إذا قصد به الملك لا يكون رزقاً، وإذا قصد به الغذاء يكون الحرام رزقاً، وهنا يبدو الخلاف مع المعتزلة من حيث العبارة لا غير، انظر: الاعتماد: ورقة ١٧٣ ـ ١٧٤، وانظر: الكشاف: ٢/ ٢٢٩، ٢٨٦.

(٣) تفسير النسفي: ٢/ ٢٤٨.

(٤) التي نفت الفعل حقيقة عن العبد، وأضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف: فالجبرية الخالصة التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً، والجبرية المتوسطة تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة، انظر: الملل والنحل: ١/ ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٥) الذين يرون أن أفعال العباد مخلوقة، وكل واحد من جملة الحيوانات خالق لأفعاله وليس الباري خالقاً لأفعالهم ولا قادراً على شيء من أعمالهم، انظر: الملل: ١/ ٤٥ ـ ٤٦، التبصير: ص٦٤.

مضاف إليه كسباً، وإلى الله تعالى خلقاً لا كما تقول الجبرية والمعتزلة»[١].

كما رأى في قوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[الأنفال: ٥٠] مجالاً للرد على الجبرية مرة أخرى فقال: أي مقدمة عذاب النار، أو ذوقوا عذاب الآخرة بشارة لهم به، أو يقال لهم يوم القيامة: ذوقوا، وجواب لو محذوف؛ أي: لرأيت أمراً فظيعاً وذلك بما قدمت أيديكم؛ أي: بما كسبت، وهو رد على الجبرية، وهو من كلام الله تعالى، أو من كلام الملائكة»[٢].

أما رده على المعتزلة فقد ورد في مواضع كثيرة من تفسيره، إذ كان يحاول أن يردَّ دعوى المعتزلة في كل آية يرى فيها مجالاً لذلك، قال مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾[النحل: ١٧] قال: «أي الأصنام، وجيء بـ «مَنْ» الذي هو لأولي العلم لزعمهم حيث سموها آلهة وعبدوها، فأجروها مجرى أولي العلم، أو لأن المعنى أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم، فكيف بما لا علم عنده؟ وإنما لم يقل أفمن لا يخلق كمن يخلق مع اقتضاء المقام بظاهره إياه ولكونه إلزاماً للذين عبدوا الأصنام وسموها آلهة تشبيهاً بالله، لأنهم حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه، والعبادة لهم فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيهاً بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ وهو حجة على المعتزلة في خلق الأفعال»[٣].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾[الحجر: ٣٩] «المعاصي، ونحو قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾[ص: ٨٢]

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٩٨، انظر أيضاً: الاعتماد: ورقة ١٣٢.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ١٠٨.

(٣) تفسير النسفي: ٢/ ٢٨٣.

في أنه إقسام، إلا أن أحدها إقسام بصفـة الذات، والثاني بصفة الفعل، وقد فرق الفقهاء بينهما فقال العراقيون: الحلف بصفة الذات كالقدرة والعظمة والعزة يمين، والحلف بصفة الفعل كالرحمة والسخط ليس بيمين، والأصح أن الأيمان مبنية على العرف، فمـا تعارف الناس الحلـف بـه يكون يميناً، وإلا فلا، والآية حجة على المعتزلة في خلق الأفعال»[١]، وهذا كثير في تفسيره[٢].

٧ ـ الإضلال والهداية:

الإضلال عنده هو خلق فعل الضلال في العبد، والهداية خلق فعل الاهتداء، هذا ما أعلنـه النسفي في تفسيـر قـوله تـعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦][٣].

ورأى أن الله هو الذي يهدي الإنسان ويوفقه للهداية، خلافاً لما رآه المعتزلة من أن الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها[٤] لنفسه، وجد مثلاً في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾[إبراهيم: ٢٢] مجالاً لدفع قول المعتزلة هذا، وإثبات رأيه الذي آمن به فقال: «لأن من تجرّد للعداوة لا يلام إذا دعا إلى أمر قبيح، مع أن الرحمن قد قال لكم: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَانُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[الأعراف: ٢٧] ولوموا أنفسكـم حيث اتبعتموني بلا حجـة ولا برهان، وقول المعتزلة هذا دليل على أن الإنسان هو الذي يختـار الشقاوة أو السعـادة ويحصلهـا لنفسه، وليس من الله إلا

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٢٧٣.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٦، ١٦ و٢/ ٢٧٠، ٢٧٣، ٢٨٣ و٣/ ١٥٨، ١٩٧ و٤/ ٢٧٦.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٣٧.

(٤) انظر: الملل: ١/ ٤٥ ـ ٤٦، التبصير: ص٦٥.

التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين باطل لقوله تعالى: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: إلى الإيمان لهديناكم»[١].

وأكد ذلك مرة أخرى في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الزمر: ٥٧] قال: قال الشيخ الإمام أبو منصور رحمه الله تعالى: هذا الكافر أعرف بهداية الله من المعتزلة، وكذا أولئك الكفرة الذين قالوا لأتباعهم: لو هدانا الله لهديناكم. يقولون: لو وفقنا الله للهداية وأعطانا الهدى لدعوناكم إليه، ولكن علم منا اختيار الضلالة والغواية فخَذَلَنا ولم يوفقْنا، والمعتزلة يقولون: بل هداهم وأعطاهم التوفيق لكنهم لم يهتدوا، والحاصل أن عند الله لطفاً من أعطي ذلك اهتدى، وهو التوفيق والعصمة، ومن لم يعطه ضل وغوى، وكان استحبابه العذاب وتضييعه الحق بعد ما مكن من تحصيله لذلك[٢] وورد ذلك في أماكن كثيرة[٣] أخرى من تفسيره.

٨ ـ مسألة العدل:

وهنا يبدو خلاف النسفي مع المعتزلة بشكل واضح، فهو وإن كان يرى أن عاقبة الدنيا الخير من خلال تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾[القصص: ٣٧] قال: «أي ربي أعلم منكم بحال مَنْ أهّلَه الله للفلاح الأعظم، حيث جعله نبياً وبعثه بالهدى، ووعده حسن العقبى يعني نفسه، ولو كان كما تزعمون ساحراً مفترياً لما أهّلَهُ لذلك؛ لأنه غني حكيم لا يرسل الكاذبين ولا ينبئ الساحرين، ولا يفلح عنده الظالمون، وعاقبة الدار

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٢٦٠.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٦٣.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٧٤ و٢/ ٢٢، ٣٩، ٥٠، ٥٤، ٨٦، ١٧٤.

هي العاقبة المحمودة لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾[الرعد: ٢٢ ـ ٢٣] والمراد بالدار الدنيا، وعاقبتها: أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان، وتلقي الملائكة بالبشرى والغفران»[١].

وأن الله لا يفعل إلا ما فيه الحكمة، إلا أنه لا يجب على الله شيء، ولهذا فقد أخرج كلمة ﴿كَتَبَ﴾ عن معناها الظاهري في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[الأنعام: ٥٤] فقال: «أصل كتب: أوجب، ولكن لا يجوز الإجراء على ظاهره، إذ لا يجب على الله شيء للعبد»[٢].

وأكد هذه الفكرة مرة أخرى في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾[النحل: ٨ ـ ٩] قال: «والقصد مصدر بمعنى الفاعل، وهو القاصد، يقال: سبيل قَصدٌ وقاصدٌ؛ أي: مستقيم، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه، ومعناه أن هداية الطريق الموصل إلى الحق عليه كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[الليل: ١٢] وليس ذلك للوجوب، إذ لا يجب على الله شيء ولكن يفعل ذلك تفضلاً»[٣].

ولذا فخليق بمن هذه صفاته أن يسأل عبيده عما يفعلون، ولا يُسْأَل عمّا يفعل، وهو العليم الحكيم، وقد عرض النسفي هذه الفكرة في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[الأنبياء: ٢٣] فقال: لأنه المالك على الحقيقة ولو اعترض على السلطان بعض عبيده مع وجود التجانس، وجواز الخطأ عليه، وعدم الملك الحقيقي لاستقبح ذلك وَعُدَّ سفهاً، فمن هو مالك الملوك، ورب الأرباب، وفعله

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٢٣٦، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ٢/ ٣٤، ٢٤٩، ٢٥٣.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٥، انظر أيضاً: الاعتماد: ورقة ١٦٢.

(٣) تفسير النسفي: ٢/ ٢٨١، وانظر: الكشاف: ٤/ ٢١٧.

صواب كله أولى بأن لا يعترض عليه، وهم يسألون لأنهم مملوكون خطاءون، فما أخلقهم بأن يقال لهم: لِمَ فعلتم في كل شيء فعلوه»[١].

٩ ـ الإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور المعجزات ولابدّ لمدعي النبوة من معجزة:

وهـذا ما دعـاه إلى تفسـير قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾[البقرة: ٥٥][٢] لامتناعهم عن الإيمان بموسى بعد ظهور معجزته قال:

«وتعلقت المعتزلة بهذه الآيـة في نفـي الرؤية، لأنه لو كان جائز الرؤية لَمَا عُذِّبوا بسؤال ما هو جائز الثبـوت، قلنـا: إنما عوقبـوا بكفرهم لأن قولهم: إنك رأيت الله فلن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، كفر منهم، ولأنهم امتنعوا عن الإيمان بموسى بعد ظهور معجزته حتـى يروا ربـهم جهرة، والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم، ولا يجوز اقتراح الآيات عليهم»[٣].

١٠ ـ تكليف ما لا يطاق غير جائز:

ولم يجز النسفي تكليف ما لا يطاق خلافاً للأشعري الذي أجاز تكليف الناس ما لا يطيـقون وهذا مـا دعـاه إلى تفسيـر قولـه تعالـى: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: ٣١][٤] على أنه ليس تكليف ما لا يطاق، بل هو خطاب تعجيز.

كما لم يجز نبوة النساء خلافاً للأشاعرة أيضاً[٥].

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) وتمام الآية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٤٩، وانظر: الكشاف: ١/ ٧٠.

(٤) انظر: عمدة عقيدة أهل السنة: ورقة ٢٠، والاعتماد ورقة ١٧١.

(٥) انظر: عمدة عقيدة أهل السنة: ورقة ١٧، تفسير البيضاوي: ص١٠.

١١ ـ عدم فناء الجنة والنار:

وقد ردَّ بهذا رأي الجَهْمية التي زعمت أن الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما فيهما، وحملوا قول الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ على المبالغة والتأكيد دون[١] الحقيقة، قال في تفسير قول الله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٣٩] «الخلد والخلود: البقاء الدائم الذي لا ينقطع، وفيه بطلان لقول الجهمية بفناء الجنة وأهلها، لأنه تعالى وصف بأنه الأول والآخر، وتحقيق وصف الأولية بسبقه على الخلق أجمع، فيجب تحقيق وصف الآخرية بالتأخر عن سائر المخلوقات، وذا إنما يتحقق بعد فناء الكل، فوجب القول به ضرورة، ولأنه تعالى باقٍ، وأوصافه باقية، فلو كانت الجنة باقية مع أهلها لوقع التشابه بين الخالق والمخلوق، وذا محال: قلنا: الأول في حقه هو الذي لا ابتداء لوجوده، والآخر هو الذي لا انتهاء له وفي حقنا الأول هو الفرد السابق، والآخر هو الفرد اللاحق، واتصافه بهما لبيان صفة الكمال، ونفي النقيصة والزوال، وذا في تنزيهه عن احتمال الحدوث والفناء، لا فيما قالوه، وأين يقع التشابه في البقاء، وهو تعالى باق لذاته، وبقاؤه واجب الوجود، وبقاء الخلق به وهو جائز الوجود»[٢].

وقال أيضاً في رده على الجَهْمية في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الأحزاب: ٦٤ ـ ٦٥] قال: هذا يرد على

---

(١) انظر: الملل والنحل: ١/ ١١١، والفرق بين الفرق: ص١٩٩، والفصل في الملل والنحل: ٤/ ٨٣. والجهمية: فرقة من الجبرية من أتباع جهم بن صفوان، الذي زعم أن الجنة والنار تفنيان، كما زعم أن الإيمان هو المعرفة فقط بالقلب، وأفعال العباد عنده من صنع الله، والإنسان مجبر لا مختار.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٣٥.

الجهمية لأنهم يزعمون أن الجنة والنار تفنيان»[١].

١٢ ـ نفي الجهة:

صانع العالم لا في جهة خلافاً[٢] للكرامية التي أثبتت له جهة العلو، وخلافاً للمشبهة[٣]، ولا بذي صورة خلافاً[٤] للروافض.

ولهذا رد على المشبهة قولها في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه: ٥] وتفسيرهم الاستواء بمعنى الاستقرار، رد عليهم في المسألة الأولى (إثبات الجهة لله) من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[السجدة: ٥] فقال: «من أيام الدنيا، ولا تَمَسُّكَ للمشبهة بقوله: إليه في إثبات الجهة، لأن معناه إلى حيث يرضاه، أو أمره، كما لا تَشَبُّثَ لهم بقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾[الصافات: ٩٩] وقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾[العنكبوت: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾[النساء: ١٠٠].

ورد عليهم في القضية الثانية: (تفسير الاستواء بالاستقرار) في تفسير قوله

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٣١٤.

(٢) انظر: الاعتماد: ورقة ٤١.

(٣) قال هؤلاء: إن معبودهم صورة ذات أعضاء وأبعاض إما روحانية أو جسمانية يجوز عليه الانتقال والنزول والصعود، وأجازوا على ربهم المصافحة، والملامسة، واستدلوا على قولهم هذا بأحاديث كاذبة مقتبسة عن اليهود، انظر: الملل والنحل: ١/ ١٣٧ ـ ١٤٤.

(٤) هم فرقة من الشيعة (الزيدية) سموا بذلك لخروجهم على إمامهم (زيد بن علي) وتفرقهم عنه، ورأت أن الإمامة في علي وحده ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين، قال عنها جعفر الصادق: «كادت الروافض أن تنصر علياً فنسبته إلى العجز، وكادت المعتزلة أن توحد ربها فشركته وأرادت أن تعدل ربها فجورته»، انظر: الفصل: ٤/ ٦٣، التبصير: ص٢٥.

تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعراف: ٥٤] فقال: «ثم استوى: استولى، على العرش: أضاف الاستيلاء إلى العرش...، ثم قال: وتفسير العرش بالسرير، والاستواء بالاستقرار كما تقول المشبهة باطل لأنه تعالى كان قبل العرش ولا مكان، وهو الآن كما كان، لأن التغير من صفات الأكوان، والمنقول عن الصادق والحسن وأبي حنيفة ومالك ـ رحمهم الله ـ: أن الاستواء معلوم، والتكييف فيه مجهول، والإيمان به واجب، والجحود له كفر والسؤال عنه بدعة»(١).

١٣ ـ الرسول وعلم الغيب:

علم الغيب للرسول بوحي من الله وإلهام وليست علماً للغيب كما ادعت الباطنية(٢) وجعلت علم الغيب لإمامها مخالفة بذلك الجماعة الذين يرون أن هذه القضية ليست من اختصاص الرسول ولا الإمام، إنما يُطْلِعُ الله عليها رسوله إلهاماً وإيحاء، وليست علماً للغيب كما ادعت هذه الفئة. قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[آل عمران: ١٧٩] «أي وما كان الله ليؤتي أحداً منكم علم الغيوب، فلا تتوهموا عند إخبار الرسول بنفاق الرجل وإخلاص الآخر أنه يطلع على ما في القلوب اطلاع الله فيخبر عن كفرها وإيمانها، ولكن الله يرسل الرسول فيوحي إليه ويخبره بأن في الغيب كذا، وأن فلاناً في قلبه النفاق وفلاناً في قلبه الإخلاص، فيعلم ذلك من جهة إخبار الله لا من جهة نفسه، والآية حجة على الباطنية فإنهم يدعون ذلك لإمامهم، فإن لم يثبتوا له النبوة له، صاروا مخالفين للنص، حيث أثبتوا علم الغيب لغير الرسول، وإن أثبتوا النبوة له صاروا مخالفين لنص آخر، وهو قوله

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٥٦.

(٢) هم قوم رفضوا الأخذ بظاهر القرآن، وجعلوا المراد باطنه لا ظاهره من فرقهم: الإسماعيلية والقرامطة، والسبعية، والبابكية وغيرهم. انظر: الملل والنحل: ٢/ ٢٩.

تعالى ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠][1].

وهو ما دعاه إلى رد قول الرافضة التي جعلت العلم خاصاً بالأنبياء وبالأئمة المعصومين، إذ لا يكون في عصر الإمام أحد أعلم منه، ولا يخفى عليه شيء. قال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] قال: «أَلْهَمَ الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام مع ما أوتي من فضل النبوة والعلوم الجمة ابتلاء له في علمه، وفيه دليل بطلان قول الرافضة أن الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه»[2].

كما رد قولهم بأن القرآن لا يفهم معناه إلا بتفسير الرسول والإمام المعصوم، وذلك أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[النساء: ٨٢] قال: «التدبر: التأمل والنظر في أدبار الأمر، وما يؤول إليه في عاقبته، ثم استُعْمِلَ في كل تأمل، والتفكر: تصرف القلب بالنظر في الدلائل، وهذا يرد قول من زعم من الروافض أن القرآن لا يُفْهَمُ معناه إلا بتفسير الرسول ﷺ والإمام المعصوم»[3].

١٤ ـ الإرادة والمشيئة وصفات الله تعالى:

والإرادة في تعريفه: هي «مصدر أَرَدْتَ الشيء، إذا طَلَبَتْه نفسك، ومال إليه قلبك، وهي عند المتكلمين معنى يقتضي تخصيص المفعولات بوجه دون وجه، والله تعالى موصوف بالإرادة على الحقيقة عند أهل الجماعة، وقال معتزلة بغداد: إنه تعالى لا يوصف بالإرادة على الحقيقة، فإذا قيل أراد الله كذا، فإن كان فعله فمعناه

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٩٧.
(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٢٠٨.
(٣) تفسير النسفي: ١/ ٢٣٩.

أنه فعل وهو غير ساه ولا مكره عليه، وإن كان فعل غيره فمعناه: أنه أمر به»[١].

والمشيئة عند الله مطلقة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، خلافاً لما قاله المعتزلة الذين فسروا المشيئة[٢] بالإلجاء والقسر، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[السجدة: ١٣] «في الدنيا؛ أي: لو شئنا أعطينا كل نفس ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم اختيار ذلك لاهتدوا، لكن لم نعطهم ذلك اللطف لِمَا علمنا منهم اختيار الكفر وإيثاره، وهو حجة على المعتزلة فإن عندهم: شاء الله أن يعطي كل نفس ما به اهتدت وقد أعطاها، لكنها لم تهتد وهم أوّلوا الآية بمشيئة الجبر وهو تأويل فاسد لما عرف في تبصر الأدلة»[٣].

وقد رأى في قول الله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾[البقرة: ٢٥٣] ما يؤيد مبدأه فقال: «كرره للتأكيد، أي: لو شئت أن لا يقتتلوا لم يقتتلوا، وهم يقولون: شاء أن لا يقتتلوا فاقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد، فقد أثبت الإرادة لنفسه كما هو مذهب أهل السنة»[٤].

والمشيئة عامة في الطاعة والعصيان عنده خلافاً للمعتزلة أيضاً الذين يرون أن الله لا يريد[٥] المعاصي، ودليله على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الإنسان: ٣٠] يقول: «أي: وقت مشيئة الله وإنما يشاء الله ذلك ممن علم

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) انظر: الكشاف: ١/ ١٥٢، ١٩٢، ٣٢٣، ٣٤٢ مثلاً.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ٢٨٨.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ١٢٧.

(٥) انظر: الكشاف: ١/ ٢٧، ٤٦، انظر: رد النسفي على إرادة المعاصي، تفسير النسفي: ٢/ ٣٢ ـ ٣٣.

منه اختياره ذلك، وقيل هو لعموم المشيئة في الطاعة والعصيان، والكفر والإيمان، فيكون حجة لنا على المعتزلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ [الإنسان: ٣٠ ـ ٣١] بما يكون منهم من الأحوال، مصيباً في الأقوال والأفعال، يدخل من يشاء في رحمته وهم المؤمنون في جنته لأنها تنال برحمته، وهو حجة على المعتزلة؛ لأنهم يقولون قد شاء أن يدخل كلاً في رحمته، لأنه شاء إيمان الكل، والله تعالى أخبر أنه يدخل من يشاء في رحمته، وهو الذي علم منه أنه يختار الهدى»[١].

وكرر ذلك في مواضع[٢] كثيرة من تفسيره.

وهكذا فقد أثبت النسفي لله من الصفات، ما أثبته الله لنفسه[٣] في كتابه الكريم، خلافاً للمعتزلة الذين نفوا الصفات عن الله تعالى، وقد رد قول المعتزلة هذا في موضع واحد من تفسيره وذلك في تفسير قول الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾[النساء: ١٦٦] قال: «أي: أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله إليك، وأنك مبلّغه، أو أنزله بما علم من مصالح العباد، وفيه نفي قول المعتزلة في إنكار الصفات، فإنه أثبت لنفسه العلم»[٤].

١٥ ـ السحر حقيقة عنده لا تخييل كما يقول[٥] المعتزلة:

أقر النسفي السحر وجعله حقيقة لا تخييلاً ووهماً كما قال المعتزلة:

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٢١.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٣٧ و٢/ ١٧٧ و٣/ ٩٦ و٢٨٨ و٤/ ٧٨، ١١٦.

(٣) انظر: عمدة عقيدة أهل السنة: ورقة ٨.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٢٦٤.

(٥) انظر: الكشاف: ١/ ٨٦.

«وللسحر حقيقـة عند أهل السنـة، وعند المعتزلة هو تخييل وتمويه»[١] ورد على المعتزلة قولهم هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾[الفلق: ٤] فقال: النفث: النفخ مع ريق، النفاثات: النساء، أو النفوس، أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط، وينفثن عليها ويرقين، وهو دليل على بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحر وظهور أثره»[٢].

وعلى ضوء ما سبق نرى أن النسفي واحد من أهل الجماعة وعلى مبدأ أبي منصور الماتُريدي ـ رحمهما الله ـ، وقد أكد تأييده لهذين المذهبين من خلال تفسيره لآيات القرآن، ورد على من خالفه من الفئات المختلفة، فرد على المعتزلة كثيراً من آرائها حتى بدا تفسيره وكأنه رد على تفسير الزمخشري تماماً، كما ردَّ على الجَهْمية بعض مبادئها والكُرّامية، والرافضة والباطنية، ولم ينس أن يثبت الآراء الماتُريدية التي خالف بها الأشـعري، والتي بثها في تفسيره، كما ألف حولها مؤلفات خاصة في علم الكلام.

* * *

(١) تفسير النسفي: ١/ ٦٦.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٣٨٦.

الفَصْلُ الثَّانِي

منهجه في علوم القرآن

عُنِيَ النَّسَفِيُّ في تفسيره بكثير من الأمور التي ألفت ما يسمّى علوم القرآن، فهو في أثناء تفسيره يعرّف التفسير، ويفسر بعض آيات القرآن ببعضها، أو بما نُقل عن النبي ﷺ في تفسيرها، أو بأقوال الصحابة والتابعين، ويضع تعريفاً للسورة القرآنية ويشير إلى فائدة تسوير القرآن والغاية منه، ولم ينس أن يذكر ما قيل في فواتح السور ومعناها، كما لمس ارتباط الآيات ببعضها، وهو أمر دقيق قَلَّتْ عناية المفسرين به لدقته وغموضه. فأشار إلى هذا الارتباط في بعض الآيات، كما حاول التأليف بين هذه الآيات التي قد يوهم ظاهرها بالاختلاف وأزال هذا الوهم عنها، وعرف المُحْكَمَ والمتشابه والغاية من وجودهما معاً في القرآن، كما أدرك أهمية أسباب النزول ودوره في توضيح معنى الآية وتقريبه، فذكر أسباب نزول الآيات التي كان لنزولها سبب خاص، وأشار إلى ما في الآيات من ناسخ ومنسوخ، وعرّف النسخ، وأبرز الغاية من وجوده، وما يجوز عليه النسخ، وتعرض للقراءات التي سُمِعَتْ في كل آية من آيات القرآن، وهو في هذا كله لم يخصص لكل علم من هذه العلوم فقرة خاصة به ـ كما فعل بعض المفسرين ـ ولكن وَجَدَ مجالاً للحديث عنها في أثناء تفسيره فأبرز رأيه في كل علم في المكان الذي يسمح له بذلك، وهذا ما سنراه بشكل جلي في حديثنا عن هذه العلوم بالتفصيل.

أولاً ـ التفسير:

والتفسير كما يعرّفه النسفي هو: «التكشيف عما يدل عليه الكلام، وُضِعَ

موضع معناه، حتى قالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت، كما قالوا معناه كذا وكذا»[١].

وهو في تفسيره للقرآن لا يخرج عن طريق سلفه من المفسرين، إذ يجد للآية تفسيراً في آية أخرى، أو فيما نقل عن ﷺ، أو عن بعض الصحابة والتابعين.

أ ـ تفسير القرآن بالقرآن:

وهو يشير في تفسيره إلى أهمية هذا النوع من التفسير، ويعلن أن أَسَدَّ المعاني[٢] ما دلّ عليها القرآن، فالله تعالى أعلم بمراده، وقد قرر هذا بشكل صريح في موضعين من تفسيره. أولاهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾[الروم: ٢٣] قال: «ومن آياته منامكم وابتغاؤكم، هذا من باب اللف وترتيبه: ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار، إلا أنه فصل بين القرينين الأولين بالقرينين الآخرين، أو المراد منامكم في الزمانين وابتغاؤكم فيهما، والجمهور على الأول لتكرره في القرآن، وأَسَدُّ المعاني ما دل عليه القرآن»[٣].

وأكد هذا مرة ثانية في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[المعارج: ١٩ ـ ٢١] قال: «عن ابن عباس رضي الله عنهما تفسيره ما بعده: إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً، وسأل محمد بن عبدالله بن طاهر ثعلباً عن معنى هلوعاً فقال: قد فسره الله تعالى ولا يكون تفسير أبين من تفسيره»[٤].

وهذا ما دعاه إلى التفتيش في القرآن عن معنى آية من آياته، ففسر الكثير منها

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ١٦٦.

(٢) انظر: البرهان: ٢/ ١٧٥.

(٣) تفسير النسفي: ٢/ ٢٦٩.

(٤) تفسير النسفي: ٤/ ٢٩١ ـ ٢٩٢.

بعضها، قال مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] «بلا إسراف ولا تقتير وتفسيره ما يعقبه وهو أن لا يكلف واحد منهما ما ليس في وسعه ولا يتضارا: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾»[1].

أما قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[آل عمران: ١٨٠] فهو تفسير لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾، قال: «﴿شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لأن أموالهم ستزول عنهم، ويبقى عليهم وبال البخل ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ تفسير لقوله بل هو شر لهم أي سيجعل مالهُمُ الذي منعوه عن الحق طوقاً في أعناقهم»[2].

ويفسر المعصية في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[المائدة: ٧٨] بقوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[المائدة: ٧٩] قال: «﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ ذلك اللعن بعصيانهم واعتدائهم، ثم فسر المعصية والاعتداء بقوله: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾»[3].

أما «كلمة ربك» من قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، فهي كما قال: «قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف: ١٢٩] أو قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[القصص: ٥] إلى ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾[القصص: ٦]»[4].

وأمثال هذا كثيرة في تفسيره[5].

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١١٨.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٩٧.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٢٩٦.

(٤) تفسير النسفي: ٢/ ٧٣.

(٥) انظر: ١/ ١١٨، ١٩٧، ٢١٧، ٢٣٤ و٢/ ٦٧، ٧٣، ١٣٥، ١٩٥، ٢١١ و٣/ ١٧، ١٠٢، =

وقد تكون الآية القرآنية مؤيدة ومقوية لتفسيره الذي اختاره لآية أخرى، فهو مثلاً عندما يريد تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾[البقرة: ١٧] يستعين بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[يونس: ٥] فيفسر الضوء بفرط الإنارة قال: «الإضاءة: فرط الإنارة ومصداقه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[(١)]».

ويؤيد تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾[الأنعام: ٨٩] بآية أخرى فيقول: «هم الأنبياء المذكورون ومن تابعهم بدليل قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠]»[(٢)].

كما يؤيد تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾[هود: ٩٢] بقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء: ٨٠] قال: «ولو قيل وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب، وإنما قال: أرهطي أعز عليكم من الله، والكلام واقع فيه وفي رهطه، وأنهم الأعزة عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[(٣)].

والنسفي يسعى دائماً إلى أن يأتي بالمعنى الذي يتناسب مع سياق القرآن، وهو ما دعاه إلى تقدير المحذوف من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ

= ٢٨٠ و٤/ ٢، ٢٠، ٢٢، ٦٧، ٧٩، ٩٣، ١٨٣، ١٨٧، ٣٠٠، ٣١٦، ٣٤٠ مثلاً.

(١) تفسير النسفي: ١/ ٢٣.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٢٢.

(٣) تفسير النسفي: ٢/ ٢٠٢، وانظر أيضاً: تفسير النسفي: ١/ ٧٧، ٨٩، ١٠١، ١١٥، ١٦٢، ٢٤٠، ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٩٣، و٢/ ٤٦، ٢٠٨، ٢٤٣، ٢٩٧، ٣١١، و٣/ ٤٤، ١٠٧، ١٧٧، ١٨٨، و٤/ ٦٨، ١٩٦، ٣٢٨.

﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[فصلت: ٢٩] بالشيطانَيْن معتمداً على قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[الأنعام: ١١٢] قال: اللَّذَيْن أضلانا؛ أي: الشيطانين اللذين أضلانا من الجن والإنس، لأن الشيطان على ضربين: جني وإنسي قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾»(١).

وهو يجد في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ: ١٣] ما يؤيد تفسيره لجمع «أعين» جمع قلة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[الفرقان: ٧٤] قال: «وإنما نكر لأجل تنكير القرة، لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، كأنه قال: هب لنا منهم سروراً وفرحاً، وإنما قيل «أعين» على القلة دون عيون، لأن المراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم. قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾»(٢).

وعلى هذا فالآية القرآنية قد تكون مفسرة لغيرها، أو مقوية ومؤيدة لتفسيره الذي يختاره للآية، كما قد يكون سياق القرآن كله مساعداً له على تقدير المحذوف، وتقريب البعيد، وتوضيح الغامض.

ب ـ تفسير القرآن بالحديث:

والحديث النبوي هو المصدر الثاني من مصادر تفسير القرآن، فقد فسّر النبي ﷺ الكثير من آيات القرآن، وبيّن معناها، وبدا هذا الأمر جلياً في تفسير النسفي، إذ نقل تفسير الكثير من الآيات عن النبي ﷺ، وأيّد تفسيره لبعضها بحديث عن النبي ﷺ، فقد نقل مثلاً: تفسير قول الله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الزمر: ٦٣] عن النبي ﷺ فيقول: «يا عثمان ما سألني عنها أحد قبلك، تفسيرها لا إله إلا الله،

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٩٣.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٢٦٣.

والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير»[١].

كما نقل عنه تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . . .﴾[الفلق: ١] قال: «عن عائشة ﵂ قالت: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأشار إلى القمر فقال: تعوّذي بالله من شر هذا، فإنه الغاسق إذا وقب، ووقوبه دخله في الكسوف واسوداده»[٢].

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾[النساء: ٤] قال: «﴿هَنِيٓـًٔا﴾ لا إثم فيه ﴿مَّرِيٓـًٔا﴾ لا داء فيه فسرهما النبي ﷺ»[٣] ونقل عنه أيضاً تفسير قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[هود: ٧] قال: «وعنه ﵇: أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله، فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر وعصى عاقبه[٤]»[٥].

وقد يكون الحديث النبوي عنده وسيلة من وسائل الإقناع والتأييد، وتقوية التفسير، فهو يقوي تفسيره لكثير من الآيات بالأحاديث النبوية ـ إن لم ينقل معناها عن النبي ﷺ نقلاً مباشراً ـ وتظهر هذه الظاهرة في مواضع كثيرة من تفسيره. قال في تفسير قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[البقرة: ١٠] «أي شك ونفاق، لأن الشك تردد

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٦٥، والحديث في كنز العمال: ٢/ ٤٠، رقم الحديث ٣٠٤٠ وتخريجه ثمة في التفسير: وفي مجمع الزوائد: ١٠/ ١١٥.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٣٨٦، والحديث في كنز العمال: ٢/ ١٥ في التفسير، رقم الحديث ٢٩٥٥ وتخريجه ثمة، وأخرجه الطبري في تفسيره: ٣٠/ ٢٤٧.

وانظر أيضاً: تفسير النسفي: ١/ ١٢١، ٢٠٧، ٢٤٤، ٢٨٤، و٢/ ١٦٩، ٢٦١، ٣/ ٣٢، ٤٤، ٢٨٩، ٢٩٠، و٤/ ٥٤، ٨٣، ٣١٣.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٢٠٧.

(٤) أخرجه الطبري: ١٥/ ٢٥٠ ـ ٢٥١ رقم الحديث ١٧٨٩ عن داود بن المحبر، وهو ضعيف.

(٥) تفسير النسفي: ٢/ ١٨١.

بين الأمرين والمنافق متردد، وفي الحديث: (مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين)[١]»[٢].

ويؤيد تفسيره لقوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[البقرة: ٢٣٨] بحديث عن النبي ﷺ فيقول: «هي صلاة العصر عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ وعليه الجمهور لقوله عليه السلام: (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم ناراً)[٣]»[٤].

كما يؤيد تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ﴾[البقرة: ١٧٨] بقوله ﷺ فيقول: «قال الشافعي ـ رحمه الله ـ لا يقتل الحر بالعبد لهذا النص، وعندنا يجري القصاص بين الحر والعبد بقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾[المائدة: ٤٥] كما بين الذكر والأنثى، ويقول عليه السلام: (المسلمون تتكافأ دماؤهم)[٥]»[٦].

وقد يكتفي النسفي بذكر اللفظة التي يريد الاستشهاد بها من الحديث، ويؤيد

---

(١) الحديث في جامع الأصول: ١١/ ٥٧١ وتخريجه ثمة في النفاق رقم الحديث ٩٦٨٨.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٩.

(٣) والحديث في مجمع الزوائد كتاب الصلاة، باب في الصلاة الوسطى: ١/ ٣٠٩، وفي كشف الأسرار على الكتب الستة كتاب الصلاة، باب الصلاة الوسطى رقم الحديث ٣٨٨.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ١٢١.

(٥) والحديث في جامع الأصول: ١٠/ ٢٥٥ وتمامه: (... ويسعى بذمتهم أدناهم، ويجبر عليهم أقصاهم وهم يد على من سواهم، يرد حشدهم على مضعفهم، ومتسريهم على قاعدهم، ولا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده) رقم الحديث ٧٧٨١.

(٦) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٩، ٧٥، ٨٩، ١٠٠، ١٠١، ١٥٥، ١٧٣، ٢٢٠، ٢٢٥ و٢/ ٢٢، ١٤٧، ٢٠٨ و٣/ ٨٥، ١٧٤، و٤/ ٦٦، ٢١٩، ٢٦٤، ٣١٨.

تفسيره بها، فهو يقتصر على قوله ﷺ «(اعفوا اللحى) لتأييد تفسيره لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾[الأعراف: ٩٥] قال: «كثروا وغنوا في أنفسهم وأموالهم من قولهم: عفا النبات، إذا كَثُرَ ومنه قوله ﷺ: (واعفوا اللحى)[١]»[٢].

أما بقية الحديث فلا يذكره طلباً للاختصار والإيجاز وهو ما فعله أيضاً في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾[الأنبياء: ٧٨] يتحدث عن الأحكام المستنبطة من الآية ثم يؤيد قوله بحديث عن النبي ﷺ (العجماء جبار)[٣] ويترك تتمة الحديث[٤] لما ذكرناه قبل قليل، وكذا ما رأيناه في حديثنا قبل قليل عن تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى . . .﴾[البقرة: ١٧٨] وهو - أي النسفي - في تفسيره سواء أتى بالحديث كاملاً أو مقطوعاً، لا يذكر[٥] سند الحديث، بل تجاهل هذا الأمر تماماً، ولا أدري ما السبب الذي دعاه إلى هذا

(١) والحديث بتمامه في جامع الأصول: ٤/ ٧٦٣ رقم الحديث ٢٩٠٧ وتخريجه ثمة، وتمام الحديث: (أنهكوا الشوارب وأعفوا اللحى) وفي رواية (أحفو الشوارب) وفي أخرى: (خالفوا المشركين وفروا اللحى وأحفوا الشوارب) وأخرجه السيوطي أيضاً في الجامع الصغير: ١/ ١٠٩.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٦٦، انظر أيضاً: ٢/ ٩١.

(٣) الحديث في جامع الأصول: ١٠/ ٢٦٤ رقم الحديث ٧٧٩٣ وفي: ٤/ ٦٢ رقم ٢٧٠٥ وتخريجه ثمة، وتمام الحديث: (العجماء جبار والبئر جبار، والمعدن جبار، وفي الركائز الخمس) وفي رواية: (البئر جرحها جبار، والمعدن جرحه جبار، والعجماء جرحها جبار، وفي الركائز الخمس).

(٤) تفسير النسفي: ٣/ ٨٥.

(٥) انظر مثلاً: تفسير النسفي: ١/ ٥، ١١، ٣٤، ٥٥، ٧٥، ٨٩، ٩١، ١٧٣، ٢٠٥، ٢١١، ٢٦٧، و٢/ ١٧، ١٤٧، ١٥٤، ١٢٦، و٣/ ٨٥، ١٧٤، ٢١٠.

الأمر ـ اللهم إلا إذا قدرنا أن سبب ذلك هو حبه[١] للاختصار ولجمع أكبر عدد من المعارف في صفحات مختصرة كما أشار في مقدمة تفسيره، واكتفى في معظم تفسيره بقوله: روي أو وفي الحديث[٢] قبل أن يأتي بالحديث الذي يريد الاستشهاد به، وإن أشار في مواضع من التفسير إلى أن الحديث مرفوع[٣] أو قدسي[٤]، وهو إن ذكر سند الحديث ـ وهذا قليل جداً ـ يذكره مجرداً عن عنعنات السند مكتفياً بقوله: عن ابن عباس[٥]، أو عن أبي هريرة[٦].

وبعد هذا فالنسفي دائم الاستعانة بأحداث السيرة النبوية، يستشهد بها في بعض المواضع التي تتطلب ذلك لتسهيل التفسير قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤]: «ولمّا نزلت صعد الصفا، ونادى الأقرب فالأقرب وقال: يا بني عبد المطلب، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، يا عباس عم النبي ﷺ، ويا صفية عمة رسول الله، إني لا أملك لكم من الله شيئاً»[٧].

كما تحدث عن المسجد الذي اتخذ ضراراً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١٠٧] قال: «روي أن بني عمرو بن عوف قالوا: نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله ﷺ ويصلي فيه أبو

(١) انظر مثلاً: ١/ ٤٧، ٥٥، ٥٦، ١٧٩، ١٩٤، و٢/ ١١٢، ١٣٧، ٣٠٥، و٣/ ١٠٨، ٢٥١، ٢٦١، و٤/ ١٦٣، ١٩٨، ٢٣١، ٢٥١، ٢٦٦.

(٢) انظر مثلاً: تفسير النسفي: ١/ ١١، ١٩، ٣٤، ٥٥، و٣/ ٣٦٣، و٤/ ٥٥، ١٢٤، ٣٧٦.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ٤/ ٢٢٠، ٤/ ٢٧١، ٢٧٣ و٤/ ٣٧٥.

(٤) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٢٣٧، ٤/ ١٨٩.

(٥) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٨، ٤٣، ٦٥، ١٤٢، و٣/ ١٣٨، و٤/ ٩٥، ٢٩١.

(٦) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٣، ١٩١، ٣٢٥.

(٧) تفسير النسفي: ٣/ ١٩٨.

عامر الراهب إذا قـدم من الشام، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فبنوا مسجداً إلى جانب مسجد قباء وقالوا للنبي ﷺ: بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة ونحن نحب أن تصلي فيه فقال: إني على جناح سفر، وإذا قَدِمْنا من تبوك إن شاء الله صلّينا فيه، فلما قَفَل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد فنزلت عليه، فقال لوحشي قاتل حمزة ومعن بن عدي وغيرهما: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه فاهدموه واحرقوه، ففعـلوا، وأمـر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة، ومات أبو عامر بالشام»[١].

ج ـ تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين:

والقارئ لتفسير النسفي يجد استعانته الدائمة، ونقله لتفسير الكثير من آيات القرآن عن بعض الصحابة كابن عباس وعلي وأبي بكر وعمر رضي الله عنهم جميعاً، وإن كان نقله عن علي وابن عباس أكثر، وهو في أثناء نقله عن هؤلاء: إما أن ينقل عنهم التفسير مباشرة، أو ينقل أقوالهم مؤيدة ومقوية لتفسيره.

١ ـ ما نقله عن ابن عباس رضي الله عنهما:

إن اسم ابن عباس يتردد كثيراً في تفسيره[٢]، فقد نقل عنه مثلاً تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾[آل عمران: ١١٧] قال: «برد شديد عن ابن عباس رضي الله عنهما»[٣].

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ١٤٥.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٤١، ٥٩، ٦٣، ٧٣، ١٣٥، ١٤٢، ١٧٧، و٢/ ٥، ٥١، ٢٥٥، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٩٠، ٣٠٨، و٣/ ٩، ١٠، ٤٢، ٥٤، ٦٧، ٧١، ٨١، ١٥١، ٢٣١، و٤/ ٢، ٩، ١٥، ٢٦، ٣٦، ٥٩، ٨٣، ١٥١ وأماكن أخرى كثيرة.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٧٧، والحديث أخرجه الطبري في تفسيره: ٤/ ٣٩٠.

كما نقل عنه تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾[النساء: ٤٠] قال: «وعـن ابن عباس ﵄: أنه أدخل يده في التراب ثم نفخ فيه فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة»(١).

وهو ما فعله أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾[البقرة: ٨١] قال: «شركاً عن ابن عباس»(٢).

وقد ينقل أقواله لتأييـد ما يقوله وتقويتـه، قال مثـلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[النساء: ٧٥] قال: «ينصرنا عليهم، كانوا يدعون الله بالخلاص ويستنصرونه فيسّر الله لبعضهم الخروج إلى المدينة، وبقي بعضهم إلى الفتح، حتى جعل الله لهم من لدنه خيرَ ولي وناصر، وهو محمد ﵇، فتولاّهم أحسن التولي ونصرهم أقوى النصر، ولما خرج محمد ﷺ استعمل عتاب ابن أسيـد، فرأوا منـه الولايـة والنصرة كما أرادوا قال ابن عباس ﵄: كان ينصر الضعيف من القوي حتى كانوا أعزَّ بها من الظلمة»(٣).

وقال عَقِبَ تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾[الأعراف: ٨٢] قال: «يدّعون الطهارة ويَدَّعُون فعل الخبيث، عن ابن عباس ﵄ عابوهم بما يُمْتَدح به»(٤).

٢ ـ نقله عن علي ﵁:

كما نقل عن علي ﵁ تفسير كثير من آيات القرآن فنقل عنه مثلاً تفسير قوله

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٢٢٦.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٥٩.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٢٣٧.

(٤) تفسير النسفي: ٢/ ٦٣.

تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾[البقرة: ٥٨][١] قال: «عن علي ﷺ هي بسم الله الرحمن الرحيم»[٢].

وتفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾[البقرة: ٢٣٧] قال: «هو الزوج كذا فسّره علي ﷺ»[٣].

كما نقل عنه أيضاً تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾[النساء: ٣٦] قال: «أي الزوجة عن علي ﷺ»[٤].

وقد يأتي أحياناً بأقوال علي مؤيداً أو مستطرداً في تفسيره، ومن هذا ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾[البقرة: ١٨٠] قال: «مالاً كثيراً لما روي عن علي ﷺ: أن مولى له أراد أن يوصي وله سبعمئة، فمنعه وقال: قال الله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ والخير هو المال الكثير وليس لك مال»[٥].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ [البقرة: ٦٩] «عن علي ﷺ من لبس نعلاً صفراء قلّ همه لقوله تعالى تسر الناظرين»[٦].

٣ ـ نقله عن أبي بكر ﷺ:

ونقْلُهُ عن أبي بكر ﷺ قليل، ولعلّ السبب في ذلك إحجام الصدّيق ﷺ عن

---

(١) انظر أيضاً: تفسير النسفي: ١/ ١٧٤، ٢٢٧، ٢٥٨، و٢/ ٥٣، ١١٤، ٢٦٧، ٢٧٤، ٣٠٨، و٣/ ٨، ٢٣، ٣٩، ٤٢، ٩٠، ٤/ ٢٦، ٣٧، ٨٥، ٩٤، ١٠٢، ١٠٨، ١٨٨.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٥٠.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٢١.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٢٢٥.

(٥) تفسير النسفي: ١/ ٩٢.

(٦) تفسير النسفي: ١/ ٥٤.

تفسير القرآن، وقلة ما نقل عنه في هذا الميدان إذ لم يُنْقُل عنه إلا في مواضع قليلة من تفسيره، فقد نقل عنه تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[الأنعام: ٨٢] قال: «بِشِرْكٍ عن الصدّيق ﷺ»[١].

ونقل تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾[فصلت: ٣٠] قال: «ثم ثبتوا على الإقرار، وعن الصديق ﷺ استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً، وعنه أنه تلاها ثم قال: ما تقولون فيها؟ قال: قالوا لم يذنبوا، قال: حملتم الأمر على أشده، قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان»[٢].

كما أيدّ تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] بقولٍ نقله عن أبي بكر قال: «النَّزْغُ: النخس، كأنه ينخس الناس حتى يغريهم على المعاصي، وجعل النزغ نازغاً كما قيل: جدّ جدّه، أو أريد بنزغ الشيطان اعتراءُ الغضب، كقول أبي بكر ﷺ: إن لي شيطاناً يعتريني»[٣].

٤ ـ ما نقله عن عمر ﷺ:

ونَقْلُهُ عن عمر ﷺ أكثر من نقله عن أبي بكر، إلاّ أن معظم ما نقله عن عمر كان استطراداً أو تعقيباً على تفسيره، ولم ينقل عنه إلا تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾[فصلت: ٣٠] قال: «عن عمر ﷺ: لم يروغوا روغان الثعالب، أي لم ينافقوا»[٤].

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٢١.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٩٣.

(٣) تفسير النسفي: ٢/ ٩١.

(٤) تفسير النسفي: ٤/ ٩٣، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ١/ ٨٥، ١٧١، ٢٤٩، و٢/ ٣٠٤، و٤/ ٢٩٩، ٣٠١، ٣٨١.

أما نقُوله الباقية فهي كما ذكرت استطراد أو تأييد لما قاله، ومن هذا مثلاً ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾[النساء: ٢٠] قال: «مالاً عظيماً، وقال عمر ﷺ على المنبر: لا تغالوا بصدقات النساء، فقالت امرأة: أنتبّع قولك أم قول الله: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ فقال عمر ﷺ: كل أحد أعلم من عمر، تزوجوا على ما شئتم»[١].

وممّا ذكره في تأييد رأيه ما قاله مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾[النساء: ١٠١] قال: «وظاهر الآية يقتضي أن القَصْرَ رخصةٌ في السفر، والإكمالُ عزيمةٌ، وقلنا: القصر عزيمة غير رخصة، ولا يجوز الإكمال لقول عمر ﷺ: صلاة السفر ركعتان تمامٌ غير قصر على لسان نبيكم ﷺ»[٢].

والملاحظ على تفسير النسفي كثرة نقله عن ابن عباس وعلي، وهذا أمر طبيعي فقد كانا أكثر الصحابة تفسيراً للقرآن، ونقل عنهما أكثر مما نقل عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهم جميعاً.

نقله عن التابعين: والنسفي لم يأخذ عن الصحابة فقط، بل أخذ عن بعض التابعين أيضاً، وكان أكثر هؤلاء وروداً في تفسيره مجاهد[٣] وقتادة[٤] والحسن[٥]

(١) تفسير النسفي: ١/ ٢١٦.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢٤٧.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٥٨، ٥٩، ٨٤، ٢١٥، و٢/ ٧، ١٩، ٢٤، ٢٦٢، ٢٨٨، و٣/ ٢٤، ٤٢، ٤٨، ٨٥، و٤/ ١٠، ١٥٤، ١٧٢، ٢٨٢.

(٤) انظر تفسيره: ١/ ٤٢، ٤٤، ٧٠، و٢/ ٢٠٧، و٣/ ٣٥، ٣٩، ٤٢، ٤٧، ١٢٨، و٤/ ٢٢، ٢٥، ٢٩، ٤٩، ٥٧، ٦٣، ١٧٢، ٢٠٣، ٢٨٦.

(٥) انظر تفسيره: ١/ ٤٥، ٨٤، ١٦٦، ١٧٢، ١٩٩، ٢١٤، ٢١٦، و٢/ ١٢، ١٣٥، =

وسعيد بن جبير[١].

ثانياً ـ السورة القرآنية:

١ ـ معناها:

قلنا: إن النسفي لم يخصص باباً أو فقرة خاصة للحديث عن هذه العلوم، بل ترك الحديث عنها إلى أماكنها المناسبة في أثناء تفسيره للآية التي تتيح له مجال الحديث عن أي منهما، وهذا ما جعله يستغل تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[البقرة: ٢٣] للحديث عن معنى السورة القرآنية واشتقاقها، وفائدة تقسيم القرآن إلى سور، وقد ذكر في تفسيره لها ما قيل في معنى السورة واشتقاقها، ورأى أن بعضهم جعلها مشتقة من سور المدينة وبعضهم من السورة أي: المنزلة، وذهب آخرون إلى أن الواو منقلبة عن همزة، واللفظة مشتقة من السؤر الذي هو البقية قال: «والسورة واوها وإن كانت أصلاً فإما أن تسمى بسور المدينة وهو حائطها، لأنها طائفة من القرآن محدودة محوزة على حيالها كالبلد المسور، أو لأنها محتوية على فنون من العلم وأجناس من الفوائد، كاحتواء سور المدينة على ما فيها، وإما أن تسمى بالسورة التي هي المرتبة، لأن السور بمنزلة المنازل والمراتب، يترقى فيها القارئ، وإن كانت الواو منقلبة عن همزة، فلأنها قطعة وطائفة من القرآن كالسُؤْرة التي هي البقية من الشيء»[٢].

ويبدو أن النسفي رجّح أن تكون واوها أصلية، وأن اللفظة مشتقة من سور

= ٣٢٩، و٣/ ١٠، ٣٩، ٤٢، ٤٨، ٦٧، و٤/ ٢٨، ٣٠، ٣١.

(١) انظر تفسيره: ١/ ١٩٩، ٢١٥، و٢/ ٣٠٧، و٣/ ٦٩، ١٥٤، ٢٤٨، و٤/ ٥٩، ١٢٥، ١٤٧، ٣٨٧.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٣٠.

المدينة كما بدا من كلامه السابق والذي أكده حين أورده منفرداً في أثناء تفسير قوله تعالـى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَهَا وَفَرَضْنَهَا﴾[النور: ١] قال: «اشتقاقها من سور المدينة»(١) وهو ما ذهب إليه جميع من تحدث(٢) عن هذا الأمر.

فقد ذكر الزركشي في برهانه ما قيل في معناها، فنقل ما قاله القتيبي(٣) في هذا المجال قال: «قال القتيبي: السورة تهمز ولا تهمز، فَمَنْ همزها جعلها من أَسْأَرْتُ؛ أي: أفضلت من السُؤْر، وهو ما بقي من الشراب في الإناء، كأنها قطعة من القرآن، ومن لم يهمزها جعلها من المعنى المتقدم وسهّل همزتها، ومنهم من شبهها بسور البناء، أي القطعة منه، أي منزلة بعد منزلة»(٤).

بينما رأى ابن جني أن معنى السورة المَرْتَبَة، قال الزركشي. قال ابن جني: «إنما سميت سورة لارتفاع قدرها لأنها كلام الله تعالى»(٥) وأشار النسفي أيضاً إلى أن السورة جامعة لمجمل آيات بفاتحة وخاتمة أقلها ثلاث آيات، وهي مرتبة في ذاتها إلى طوال وأوساط وقصار(٦). وهو ما قاله الزمخشري(٧) والقرطبي(٨) أيضاً.

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ١٣٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١/ ٦٥ ـ ٦٦، وتفسير الطبري: ١/ ٨، ١٠٤ ـ ١٠٥، وإن كان يرجح أن معنى السورة: المنزلة، من الارتفاع.

(٣) هو أبـو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبـة (ت٢٧٠هـ) وقيل: (٢٧٦هـ)، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٣، تاريخ بغداد: ١٠/ ١٧٠.

(٤) البرهان: ١/ ٢٦٣.

(٥) تفسير أرجوزة أبي نواس: ص١٢٩ ـ ١٣١، البرهان: ١/ ٢٦٤.

(٦) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٣٠.

(٧) انظر: الكشاف: ١/ ٤٨.

(٨) انظر: تفسير القرطبي: ١/ ٦٨ ـ ٦٩.

٢ ـ فوائد تسوير القرآن:

لم يكن تقسيم القرآن إلى سُوَر عبثاً، بل لهذا الأمر فوائده وقد أشار النسفي إلى هذه الفوائد فقال:

«أما الفائدة من تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً فهي كثيرة:

منها: أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع، واشتمل على أصناف كان أحسن من أن يكون بياناً واحداً.

ـ ومنها: أن القارئ إذا ختم سورة أو باباً من الكتاب، ثم أخذ في آخر كان أنشط له، وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله، ومن ثم جزّأ القرّاءُ القرآن أسباعاً وعشوراً وأجزاءً وأخماساً.

ـ ومنها: أن الحافظ إذا حَذِقَ السورة اعتقد أنه أخذ من الكتاب الكريم طائفة مستقلة بنفسها، لها فاتحة وخاتمة فيعظم عنده ما حفظه ويجلُّ في نفسه، ومنه حديث أنس رضي الله عنه[١]: (كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا)[٢]» وهو نفسه ما ذكره الزمخشري[٣] في كشافه.

أما تسمية السور بأسمائها وقولنا: سورة البقرة أو البقرة، فلم يُبْدِ رأياً واضحاً في ذلك، بل قال: أجاز بعضهم ذلك ومنعه آخرون، وإن كان يظهر من كلامه تأييده لجواز هذا القول كالزمخشري[٤] قال: «ويجوز أن يقال: قرأت سورة البقرة، أو

(١) تفسير النسفي: ١/ ٣١.

(٢) والحديث لم أجده.

(٣) انظر: الكشاف: ١/ ٤٨.

(٤) انظر: الكشاف: ١/ ١٧٣.

قرأت البقرة، لما روي عن علي ﷺ[١]: «خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش» وقال بعضهم: يكره ذلك، بل يقال: قرأت السورة التي تذكر فيها البقرة، والله أعلم»[٢].

ثالثاً ـ فواتح السور:

أما رأيه في فواتح السور، فقد أعلنه أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ من سورة البقرة، مستغلاً افتتاحها بهذه الحروف، ورأى كما رأى الزمخشري[٣] قبله والزركشي[٤] أن من الآيات ما يبدأ بحرف واحد ﴿نٓ﴾، ومنها ما يبدأ بحرفين ﴿حمٓ﴾، ومنها ما يبدأ بثلاثة ﴿الٓمٓ... الٓر...﴾، أو أربعة ﴿الٓمٓر﴾، أو خمسة ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ تمشياً مع عادة العرب وافتنانهم في كلامهم، قال: «ولم تجيء على وتيرة واحدة، بل اختلفت أعداد حروفها مثل ص، ق، ن، طه، يس، طس وحم، الم، المر، وطسم، والمر، وكهيعص، وحم، وعسق، فوردت على حرف واحد وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة كعادة افتنانهم في الكلام، وكما أن أبنية كلماتهم على حرفين وحرف إلى خمسة، سلك في الفواتح هذا المسلك»[٥].

وعرض كما عرض الزمخشري قبله خلاف البصريين والكوفيين في اعتبار

(١) والحديث في مجمع الزوائد سورة البقرة: ٦/ ٣٢٤، وفي السنن الكبرى باب الدليل على أن الصعيد الطيب هو التراب: ١/ ٢١٣.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٤٤، الإتقان: ١/ ٦٩.

(٣) انظر: الكشاف: ١/ ١٨.

(٤) انظر: البرهان: ١/ ١٦٧، وما قاله الطبري في أوائل السور في تفسيره: ١/ ٢٠٨، والقرطبي: ١/ ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٥) تفسير النسفي: ١/ ١٠.

هذه الأحرف آية أم لا، فقد رأى البصريون أن هذه الحروف لا يُعَدُّ شيء منها آية، وذهب الكوفيون[١] إلى عدّ بعضها آية، وبعضها الآخر ليس بآية، ويظهر من كلامه ترجيحه لرأي الكوفيين، إذ عدّ بعضها آية وبعضها لم يعدّه، قال: «والم آية حيث وقعت، وكذا المص آية، والمر لم تعد آية، وكذا الر لم تعد آية في سورها الخمس، وطسم آية في سورتيها، وطه ويس آيتان، وطس ليست بآية، وحم آية في سورها كلها، وحم عسق آيتان وكهيعص آية، وص ون وق ثلاثتها لم تعد آية، وهذا عند الكوفيين، ومن عداهم لم يعد شيئاً منها آية، ومعرفة هذا الأمر علم توقيفي لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور»[٢].

١ ـ معناها:

ذكر النسفي في تفسيره آراء كثيرة في معنى هذه الأحرف فذكر رأي ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم قال: «والجمهور على أنها أسماء للسور، وقال ابن عباس[٣] رضي الله عنهما: أقسم الله بهذه الحروف، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إنها اسم الله الأعظم، وقيل إنها من المتشابه[٤] الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وما سميت معجمة إلا لإعجامها وإبهامها، وقيل: ورود هذه الأسماء على نمط التعديد كالإيقاظ لمن تُحُدِّيَ بالقرآن،

---

(١) انظر: البرهان: ١/ ١٧٠ ـ ١٧١.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٠.

(٣) نقله ابن الجوزي عن عكرمة، انظر: زاد السير: ١/ ٢١.

(٤) وهو قول الشعبي وأبو صالح وابن يزيد. قال الشعبي: «هي من المتشابه نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله عز وجل» وهو مذهب أبي بكر رضي الله عنه قال: «في كل كتاب سر، وسر الله في القرآن أوائل السور»، انظر: البرهان: ١/ ١٧٣، زاد المسير: ١/ ٢٠، وإليه مال القرطبي في تفسيره. انظر: تفسير القرطبي: ١/ ١٥٤ ـ ١٥٥.

وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلو عليهم ـ وقد عجزوا عنه عن آخرهم ـ كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم، ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا إن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم يظهر عجزهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة وهم أمراء الكلام، إلاّ لأنه ليس من كلام البشر، وأنه كلام خالق القوى والقدر، وهذا القول من[1] الخلافة بمنزل، وقيل: وردت السور مصدّرة بذلك ليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلاً بوجه من الإغراب، وتقدمة من دلائل الإعجاز، وذلك أن النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام، الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسامي الحروف فإنه كان مختصاً بمن خط وقرأ، وخالط أهل الكتاب وتعلم منهم، وكان مستبعداً من الأمي التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة، فكان حكم النطق بذلك مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله، حكم الأقاصيص المذكورة في القرآن التي لم تكن قريش ومن يضاهيهم في شيء من الإحاطة بها، في أن ذلك حاصل له من جهة الوحي، وشاهد لصحة نبوته»[2].

وما وصفه بأنه قول الجمهور هو ما رآه الزمخشري ووصفه بأنه عليه إطباق الأكثرين[3]، وأيده سيبويه[4] في كتابه من قبل، بينما رفض البيضاوي هذا القول وقال: «إن القول بأنها أسماء السور يخرجها إلى ما ليس في لغة العرب، لأن التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً مستكره عندهم»[5].

---

(١) وهو ما قاله الزمخشري أيضاً. انظر: الكشاف: ١/ ١٦.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٩.

(٣) انظر: الكشاف: ١/ ١٣.

(٤) انظر: الكتاب، لسيبويه: ٣/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

(٥) تفسير البيضاوي: ص٦.

أما ابن قتيبة فقد أجاز أن «يكون أقسم بالحروف المتقطعة كلّها، واقتصر على ذكر بعضها كما يقول القائل أ. ب. ت. ث وهو يريد سائر الحروف» وقال الأنباري: «جواب القسم محذوف تقديره: وحروف المعجم لقد بيّن الله لكم السبيل، وأنهجت لكم الدلالات بالكتاب المنزل»(١).

أما تكرار هذه الأحرف في الآيات فهو لتمكين المكرّر في النفوس وتقريره.

قال النسفي: «إنما جاءت مفرقة على السور، لأن إعادة التنبيه على المتحدى به مؤلَّفاً منها لا غير أوصل إلى الغرض»(٢).

٢ ـ إعرابها:

قال النسفي: «ويوقف على جميعها وقف التمام إذا حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده، وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور، ونُعِقَ بها كما ينعق بالأصوات، أو جُعِلَت وحدها أخبار ابتداء محذوف، كقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ١ ـ ٢] أي: هذه الم، ثم ابتدأ: لا إله إلا هو الحي القيوم، ولهذه الفواتح محل من الإعراب فيمن جعلها أسماء للسور، لأنها عنده كسائر الأسماء الأعلام وهو الرفع على الابتداء، أو النصب أو الجر لصحة القَسَم بها، وكونها بمنزلة الله والله على اللغتين، ومن لم يجعلها أسماء للسور لم يتصور أن يكون لها محل في مذهبه، كما لا محل للجملة المبتدأة، وللمفردات المعدودة»(٣).

وهذه الأحرف كلها أسماء عنده، ودليله على ذلك أن كلاً منها يدل على معنى في نفسه، ويتصرف فيها بالإمالة والتفخيم، وبالتعريف والتنكير والجمع

(١) والقول نقله ابن الجوزي في زاد المسير، انظر: ١/ ٢٠ منه.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٩، وهو ما رآه البيضاوي أيضاً: انظر: تفسير البيضاوي: ص٦.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٠، انظر: الكشاف: ١/ ١٨ ـ ١٩، والبرهان: ١/ ١٧١.

والتصغير، وهي معربة وسكنت سكون زيد وغيره من الأسماء حيث لا يمسها إعراب لفقد مقتضيه»(١).

رابعاً ـ ترتيب الآيات والسور (ارتباط الآيات والسور بما قبلها):

وهو من العلوم الدقيقة الجليلة التي تجعل أجزاء الكلام بعضها يأخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، وقد أشار أبو بكر بن العربي في سراج المريدين إلى هذه الناحية فقال: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني منتظمة المباني، علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله ﷻ لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه»(٢).

أما النسفي فقد أشار في تفسيره إلى ارتباط بعض الآيات ببعضها، ورأى أن الآية قد تكون: بساطاً وتمهيداً للآية الأخرى، وهذا ما نراه مثلاً في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[النمل: ٥ ـ ٦] قال: «وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه»(٣) وهو ما رآه أيضاً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[الحجرات: ١] فهي تمهيد لما بعدها قال: «وفي هذا تمهيد لما نقَمَ منهم من رفع أصواتهم فوق صوته ﷺ، لأن من فضّله الله بهذه الأثرة، واختصه هذا الاختصاص كان أدنى ما يجب له من

(١) القول ذكره الزركشي في البرهان: ١/ ٣٦.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٩.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ٢٠٢.

التهيب والإجلال أن يُخَفَض بين يديه الصوت»(١).

وقد تكون الآية سبباً للآيـة الثانيـة، فيربط بينها رابط السببية ومن هذا قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[النساء: ٣١] قال: «ولمّا كان أخذ مال الغير بالباطل، وقتل النفس بغير حق بتمني مال الغير وجاهه، نهاهم عن تمني ما فضل الله به بعضهم على بعض بقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[النساء: ٣٢](٢).

وإذا تابعنا النسفي في ذكره لهذا الأمر، أدركنا أن ارتباط الآي ببعضها لا يخلو عن أن يكون:

١ ـ **عن طريق العطف**: فتعطف الجملة على ما قبلها، وترتبط بها، وتحتاج عندها إلى بيان هذه الرابطة وتوضيحها. ومن هذا قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[البقرة: ١٨٩] قال: «قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة، وعن الحكمة في نقصانها وتمامها: معلوم أن كل ما يفعله الله تعالى لا يكون إلا حكمة، فدعوا السؤال عنه، وانظروا في خصلة واحدة تفعلونها مما ليس من البر في شيء، وأنتم تحسبونها براً، فهذا وجه اتصاله بما قبله، ويحتمل أن يكون ذلك على طريق الاستطراد، لما ذكر أنها مواقيت للحج لأنه كان من أفعالهم في الحج، ويحتمل أن يكون هذا تمثيلاً لتعكيسهم في سؤالهم، وإن مثلهم كمثل من يترك باب البيت ويدخل من ظهره، والمعنى ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكنّ البرّ برّ من اتقى ذلك

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ١٦٥.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢٢٢، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ١/ ٢٣٢.

وتَجَنَّبُهُ، ولم يجسر على مثله ﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾؛ أي: باشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا»[١].

وهذا ما ذهب إليه الزمخشري[٢] والبيضاوي[٣] أيضاً في أثناء تفسيرهما لهذه الآية.

فقد جعل هؤلاء جميعاً وجه ارتباط الآيات ببعضها من وجوه: أحدها: الإشارة إلى أن كل ما يفعله الله حكمة، وثانيها: من باب الاستطراد، وثالثها: من باب التمثيل.

٢ ـ أن تكون الآيات غير معطوفة: وهنا لابد من التفتيش عن رابط يؤذن بارتباط الكلام واتصاله، وتكون القرائن هنا معنوية مؤذنة بالربط، ولهذا أسبابه:

١ ـ إلحاق النظير بالنظير:

إن إلحاق النظير بالنظير من دأب العقلاء كما يقول الزركشي[٤]، ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥] قال النسفي: «الكاف في كما أخرجك في محل النصب على أنه صفة لمصدر الفعل المقدّر، والتقدير قل الأنفال استقرت لله والرسول، وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون»[٥].

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٩٧ ـ ٩٨، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ١/ ٣٢.

(٢) انظر: الكشاف: ١/ ١١٧.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ص٤٠.

(٤) انظر: البرهان: ١/ ٤٧.

(٥) تفسير النسفي: ٢/ ٩٤ ـ ٩٥، انظر: الكشاف: ٢/ ١١٤، تفسير البيضاوي: ص٢٢٤ وهو ما رآه الزمخشري والبيضاوي أيضاً.

٢ ـ المضادة:

ومن هذا النوع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[البقرة: ٦] قال النسفي: «ولما قدّم ذكر أوليائه بصفاتهم المقربة إليه، وبيّن أن الكتاب هدى لهم، قصَّ على أثره بذكر أضدادهم وهم العتاة المَرَدة الذين لا ينفع فيهم الهدى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ . . .﴾[1] الآية.

٣ ـ الاستطراد:

ومما اتصلت ببعضها بهذه الرابطة قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦] قال: «وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب بدو السوءات وخصف الورق عليها، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس، ولِمَا في العري من الفضيحة، وإشعاراً بأن التستر من التقوى»[2].

أما مناسبة السورة لما قبلها فلم يتعرض له، وربما تابع في ذلك الزمخشري الذي لم يتعرض لهذه القضية في كشافه.

خامساً ـ التأليف بين الآيات التي قد يُظَنُّ فيها التناقض:

وقد رأى النسفي هذا الأمر في تفسيره كله، فلم يُعْنَ بنسق القرآن لتفسير آية من آياته فقط، بل راعى النسق القرآني كلّه لإزالة ما قد يظن متناقضاً في بعض آياته، فيوفق بينها ويؤلف، ويزيل هذا الظن.

والناظر في مثل هذه الآيات يرى أن الأسباب الموهمة للاختلاف عنده هي:

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٥.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٤٩ وهو ما قاله الزمخشري في هذه الآية أيضاً. انظر: الكشاف: ٢/ ٥٩.

١ ـ وقوع المخبر به على أحوال مختلفة وتطويرات شتى؛ كقوله تعالى في خلق آدم إنه: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾، و﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾، و﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ قال: «ولا اختلاف في هذا، وفي قوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، و﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾، و﴿مِّن تُرَابٍ﴾ لاتفاقها معنى، لأنه يفيد أنه خلقه من تراب ثم جعله طيناً، ثم حمأ مسنوناً، ثم صلصالاً»(١).

وقال في موضع آخر: «في الأول كان تراباً فعجن بالماء فصار طيناً، فمكث فصار حمأ مسنوناً، فخلص فصار سلالة، فصوّر ويبس فصار صلصالاً فلا تناقض»(٢) وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[الحجر: ٢٦] وقد وفَّقَ بين قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[طه: ٢٠] ومع ما قد يبدو متناقضاً معها في الظاهر فقال: «وإنما وصفت هنا بالحية وبالثعبان وهو العظيم من الحيات، وبالجان وهو الدقيق في غيرها، لأن الحية اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير، وجاز أن تنقلب حية صفراء دقيقة، ثم يتزايد جرمها حتى تصير ثعباناً، فأريد بالجان أول حالها، وبالثعبان مآلها، أو لأنها كانت في عظم الثعبان، وسرعة الجان»(٣) وذلك عندما فسر قوله تعالى المذكور.

وبالطريقة نفسها وفّق بين قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ [آل عمران: ١٣] وقوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾[الأنفال: ٤٤].

٢ ـ **لاختلاف الموضوع**: ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[فصلت: ٥١] وقوله: ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾[فصلت: ٤٩] قال: «ولا منافاة بين قوله

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٢٠٩.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٢٧٢.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ٥١.

تعالى فيؤوس قنوط، وبين قوله: فذو دعاء عريض، لأن الأول في قوم والثاني في قوم، أو قنوط في البر، ذو دعاء عريض في البحر، أو قنوط في القلب، ذو دعاء عريض باللسان، أو قنوط من الصنم، ذو دعاء عريض لله تعالى»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[المؤمنون: ١٠١] وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾[الصافات: ٢٧] قال: «سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون في الدنيا، لأن كلاً مشغول عن سؤال صاحبه بحاله، ولا تناقض بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ فللقيامة مواطن يشتد عليهم الخوف فلا يتساءلون، وفي مواطن يفيقون فيتساءلون»(٢).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[السجدة: ١١] قال: «أي يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بقبض أرواحكم، ثم ترجعون إلى ربكم بعد ذلك، مبعوثين للحساب والجزاء، وهذا معنى لقاء الله، وقيل ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها، والله تعالى هو الآمر لذلك كله، وهو الخالق لأفعال المخلوقات، وهذا وجه الجمع بين هذه الآية، وبين قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[الأنعام: ٦١] وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[الزمر: ٤٢].

٣ ـ لاختلاف الأماكن: ويمكن أن تحمل على هذا المعنى الآية: ﴿لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾[الرحمن: ٣٩] قال: «والتوفيق بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الحجر: ٩٢] وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[الصافات: ٢٤] أن ذلك يوم طويل وفيه مواطن، فيسألون في مواطن ولا يسألون في أُخر»(٣).

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٩٩.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ١٢٨.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ٢١١.

٤ ـ لاختلافهما في جهتي الفعل: وعلى هذا يوفق بين قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال: ١٧] قال: «يعني أن الرمية التي رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله، حيث أثّرت ذلك الأثر العظيم. وفي الآية بيان أن فعل العبد مضاف إليه كسباً، وإلى الله خلقاً، لأنه أثبت الفعل من العبد بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ثم نفاه عنه، وأثبته لله تعالى بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال: ١٧][(١)].

وقد يتوهم التعارض بين القرآن والسنة فيوفق بينهما، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧] وقد صحّ أنه شُجَّ يوم أحد قال[(٢)]: «يحفظك منهم قتلاً، فلم يقدروا عليه، وإن شُجَّ في وجهه يوم أحد، وكُسِرَت رباعيته، أو نزلت بعدما أصابه ما أصابه، والناس: الكفار بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ٦٧]».

سادساً ـ المحكم والمتشابه:

أما قضية المحكم والمتشابه فقد وجد النسفي مجالاً للحديث عنها في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[(٣)].

فعرّف المحكم والمتشابه، ونقل لكل منهما تعريفات كثيرة، كما أبرز الغاية من وجودهما في القرآن.

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٩٨.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢٩٣.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٢٩٣.

١ ـ تعريفهما:

قال النسفي: «المُحْكَمُ ما أُحْكِمَتْ عبارته بأن حُفِظَتْ من الاحتمال والاشتباه»[١] أما المتشابهات منها فهي المحتملات كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥] ورأى أن المحكمات هن أصل الكتاب تحمل المتشابهات عليها وتُرَدُّ إليها، ولهذا رفض تفسير الاستواء بمعنى الجلوس لأن المحكم لا يجيزه قال: «﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصل الكتاب، تُحْمَل المتشابهات عليها وتردُّ إليها ﴿وَأُخَرُ﴾ وآيات أخر ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ مشتبهات محتملات مثال ذلك: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ فالاستواء يكون بمعنى الجلوس، وبمعنى القدرة والاستيلاء، ولا يجوز الأول على الله تعالى بدليل المحكم وهو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى: ١١]»[٢].

ثم عَرَضَ تعريفات كثيرة لكل من المحكم والمتشابه فقال: «أو المحكم ما أمر الله به في كل كتاب أنزله الله نحو قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[الأنعام: ١٥١] الآيات، وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٢٣] الآيات، والمتشابه ما وراءه»[٣] وقد نقل هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما[٤].

وقال أيضاً: «المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما احتمل أوجهاً[٥]» وبه قال محمد بن جعفر بن الزبير[٦].

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٤٦.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٤٦.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٤٦.

(٤) انظر: الإتقان: ٢/ ٤، وتفسير الطبري: ٦/ ١٧٠.

(٥) تفسير النسفي: ١/ ١٤٦.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ١٧٧.

أو: «أو ما يعلم تأويله وما لا يعلم تأويله»[١] وهذا ما اختاره الطبري في تفسيره قال بعد عرضه لهذا القول: «هذا القول الذي ذكرنا عن جابر بن عبدالله أشبه بتأويل الآية»[٢].

وأخيراً قال: «أو الناسخ الذي يُعْمَل به، والمنسوخ الذي لا يعمل به»[٣] وهو مروي عن ابن عباس[٤] أيضاً.

وأشار إلى الاختلاف في معرفة المتشابه، وهل معرفته مّما يختص الله بها، أم يعلمه الراسخون في العلم؟ ورأى أن منشأ هذا الاختلاف هو موقفهم من قضية الوقف، وهل يكون على قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أو على قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وتردد الواو بين العطف والاستئناف، فمنهم من رجح أنها للاستئناف وأن الوقف على إلا الله، وأن الله تُعُبِّدَ من كتابه بما لا يُعْلَمُ معناه وهو المتشابه، ومنهم من رجّح أنها للعطف، لأن الله تعالى لم يكلف الخلق بما لا يعلمون، وضعف (الفريق الثاني) الرأي الأول لأن الله تعالى لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينتفع به عباده.

وقد أيّد النسفي ما أيده غيره من أهل الجماعة[٥] الوقف على قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهو مذهب الصحابة والتابعين وأتباعهم، وجعل المتشابه مما لا يعلمه إلا الله، وأيد رأيه بقراءة عبدالله وقراءة أبي.

قال: «﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ أي: لا يهتدي إلى تأويله الحق الذي يجب أن يُحْمَلَ عليه إلا الله، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾: والذين رسخوا في العلم؛ أي: ثبتوا

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٤٦.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ١٨٠.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٤٦.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ١٧٥، والإتقان: ٢/ ٤.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ٢٠٤، وتفسير القرطبي: ٤/ ١٦، والإتقان: ٢/ ٤.

فيه وتمكنوا، أو عضوا فيه بضرس قاطع مستأنف عند الجمهور، والوقف عندهم على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وفسروا المتشابه بما استأثر الله بعلمه، وهو مبتدأ عندهم، والخبر: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وهو ثناء منه تعالى عليهم بالإيمان على التسليم، واعتقاد الحقية بلا تكييف، وفائدة إنزال المتشابه: الإيمان به واعتقاد حقية ما أراد الله به، ومعرفة قصور أفهام البشر عن الوقوف على ما لم يجعل لهم إليه سبيلاً ويعضده قراءة أُبَي: ﴿ويقول الراسخون﴾ وعبدالله: ﴿إنْ تأويله إلا عند الله﴾ ومنهم مَنْ لا يقف عليه ويقول: بأن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه، و(يقولون) كلام مستأنف موضح لحال الراسخين»[١].

وهو ما رآه الطبري[٢] أيضاً وأيّده في تفسيره، كما أيّده القرطبي من بعد، قال: «يجب الوقوف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهو قول ابن عمر وابن عباس، وعكرمة، وعائشة، وعروة بن الزبير، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم، وهو مذهب الكسائي والأخفش والفراء وأبي عبيد، قال أبو نهيك الأسدي: إنكم تَصِلون هذه الآية وإنها مقطوعة، وما انتهى علم الراسخين إلا إلى قولهم آمنا به كل من عند ربنا»[٣] ويؤيده ما رواه الشيخان عن عائشة ﵂ أنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ . . .﴾ الآية قالت: قال رسول الله ﷺ: (فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذرهم)[٤].

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ١٨٠.

(٣) تفسير القرطبي: ٤/ ١٦.

(٤) الإتقان: ٢/ ٤.

والحديث في مسند أبي داود الطيالسي: ٦/ ٢٠٣ رقم الحديث ١٤٣٣، والطبري في تفسيره: ٦/ ١٩١ رقم الحديث ٦٦١٠.

٢ ـ الحكمة من وجود المتشابه في القرآن:

ويذكر النسفي الحكمة من وجود المتشابه في القرآن فيقول: «إنما لم يكن كل القرآن محكماً لما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتعابهم القرائح في استخراج معانيه، ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة، ونيل الدرجات عند الله تعالى، والإيمان بالمتشابه واعتقاد حقية ما أراد الله به، ومعرفة قصور أفهام البشر عن الوقوف على ما لم يجعل إليه سبيلاً»(١) وهو ما رآه الزمخشري(٢) أيضاً، وإن اختلف معه في أن المتشابه مما يعلمُه الراسخون في العلم.

وكأن النسفي في قوله هذا يجعل المتشابه اسماً لمعنيين: أحدهما: لما التبس من المعنى لدخول شبهة بعضه في بعض نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾[البقرة: ٧٠].

والثاني: اسم لما يوافق بعضه بعضاً ويصدقه قوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

فإن كان المراد بالمتشابه في القرآن الأول، فالظاهر أنه لا يمكنهم الوصول إلى مراده، وهو مما استأثر الله بعلمه كوقت قيام الساعة، ونزول عيسى، ودابة الأرض، وإن كان المراد به الثاني: جاز أن يعلموا مراده ولهذا أشار إلى أن فوائد المتشابه إذا كان مما لا يعلم تأويله إلا الله: التسليم والإيمان والابتلاء، وإن كان من الأمور التي تحمل على المحكم، ويعرف معناها فمن فوائده: نيل الدرجات لما في

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٤٦.

(٢) انظر: الكشاف: ١/ ١٧٥ قال الزمخشري: «ومنهم من يقف على قوله إلا الله، ويبتدئ والراسخون في العلم يقولون ويفسرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه وبمعرفة الحكمة فيه كعدد الزبانية ونحوه، والأول هو الوجه» ١/ ١٧٦.

ذلك من إتعاب العقول للوصول إلى مقصوده، ومعناه الحقيقي[١].

سابعاً ـ أسباب النزول:

وهي الصورة الثانية من صور النسفي المفسر الأثري (النقلي) ـ بعد التفسير بالقرآن والحديث ـ وقد عني بأسباب النزول عناية كبيرة، فهو يجيء بالأسباب المعينة على تجلية النص وتفسيره، فمعرفة السبب تورث[٢] العلم بالمسبّب، أما ذكره لأسباب النزول فهو يأتي بأسباب النزول غالباً مجردة من أسانيدها، مسبوقة بلفظ قيل[٣] أو روي[٤] ولا يعزو الرواية إلى أصحابها.

يقول مثلاً في سبب نزول قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ. . .﴾[النساء: ٧] «روي أن أوس بن ثابت ترك امرأته أم كحة وثلاث بنات، فزوى ابنا عمه ميراثه عنهن، وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال ويقولون: «لا يرث إلا من طاعن بالرماح، وحاز الغنيمة، فجاءت أم كحة إلى النبي ﷺ فشكت فقال: ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله فنزلت الآية، فبعث إليهما لا تفرقا من مال أوس شيئاً فإن الله قد جعل لهن نصيباً، ولم يُبَيِّنْ فنزلت الآية: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[النساء: ١١] فأعطى أم كحة الثمن، والبنات الثلثين، والباقي ابني العم»[٥].

---

(١) انظر: البرهان: ٢/ ٧٤.

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي: ص٤، الإتقان: ١/ ٣٨، والبرهان: ١/ ٢٢.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٩٥، ٩٧، ١٠١، ١٠٤، ١٠٧، ١١١، و٢/ ٣٢، ٨٨، ١٠٢، ١٠٣، و٣/ ١١، ٧٦، ٧٨، ٩٣، ٩٥، و٤/ ٣، ٥٣، ٨٤، ١٠٩، ١٤٣.

(٤) انظر مثلاً: تفسير النسفي: ١/ ٦٥، ٩١، ١٢٩، ١٣٨، ١٤٦، ١٧٣، ١٩١، و٢/ ٧، ١١٢، ١٣٧، ٣٠٥، و٣/ ١٠٨، ٢٥١، ٢٦١، و٤/ ١٦٣، ١٩٨، ٢٣١.

(٥) تفسير النسفي: ١/ ٢٠٩ والحديث أخرجه السيوطي في تفسيره: ٢/ ٤٣٨، والطبري: =

وقـد يورد عدة أسباب لنزول الآية دون أن يرجح بينها، من هذا ما قاله في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[الحجرات: ١١] قال: «روي أن قوماً من بني تميم استهزؤوا ببلال وخباب وعمار وصهيب فنزلت، وعن عائشة ﵂ أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة، وكانت قصيرة، وعن أنس ﵁ قال: عيّرت نساء النبي ﷺ أم سَلَمة بالقِصَر، وروي أنها نزلت في ثابت بن قيس، وكان به وقر فكانوا يرسلون له في مجلس رسول الله ﷺ ليسمع فأتى يوماً وهو يقول: تفسحوا حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال لرجل: تنحَّ فلم يفعل فقال: مَنْ هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان. فقال: لا بل أنت ابن فلانة، يريد أمّاً كان يعيَّر بها في الجاهلية، فَخَجِل الرجل، فنزلت، فقال ثابت: لا أفخر بالأحساب بعدها أبداً»(١).

ولم نره يفصّل رأي، ويرجّح سبباً على غيره إلا فيما رواه في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠ ـ ٣١](٢) قال: «فتحتج عليهم بأنك بلّغت فكذبوا، واجتهدت في الدعوة، فلجّوا في العناد ويعتذرون بما لا طائل تحته، تقول الأتباع أطعنا سادتنا وكبراءنا، وتقول السادات: أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون، قال الصحابة رضي الله عنهم جميعاً: ما خصومتنا ونحن إخوان؟ فلما قُتِل عثمان ﵁ قالوا: هذه خصومتنا، وعن أبي العالية نزلت في أهل القبلة، وذلك في الدماء والمظالم التي بينهم، والوجه هو الأول: ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾[الزمر: ٣١](٣)

= ٤/ ١٧٦، أسباب النزول للواحدي: ص١٠٦، لباب النقول: ص٦٤.

(١) تفسير النسفي: ٤/ ١٧١، انظر: تفسير النسفي أيضاً: ١/ ١٣٧، ١٦٤، ١٨٣، ٢٠٠، و٣/ ٢٤٩، و٤/ ١٧١.

(٢) وفي موضع آخر انظر: تفسير النسفي: ٤/ ١٤٣.

(٣) والحديث أخرجه الطبري: ٢٤/ ٣، والدر المنثور: ٧/ ٢٢٦.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾[الزمر: ٣٣] وما هو إلا بيان وتفسير للذين يكون بينهم الخصومة»[١].

وقد يسند الرواية إلى أصحابها وهذا قليل عنده. قال مثلاً في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٩][٢] «قال أبو هريرة ﷺ: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت الآية»[٣].

وهو ما رأيناه أيضاً في أسباب نزول الآيتين اللتين ذكرناهما قبل قليل.

والصيغة التي استعملها في التعبير عن سبب النزول هي: حَدَثَ كذا[٤] فنزلت، وهي الصيغة الغالبة في تفسيره، وقد يستعمل صيغة نزلت الآية[٥] في كذا، ولعلّ إقلاله من هذه الصيغة كان بسبب دلالتها على السببية وعلى[٦] ما تتضمنه الآية من الأحكام وهو في هذا كله يقدّم سبب نزول الآية على شرحها، مؤمناً أن سبب نزول الآية موضح ومسهل لفهمها، ومساعد لكشف الغموض عنها، كما راعى

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٥٧.

(٢) والحديث أخرجه الطبري: ٢٧/ ٦٥، والواحدي في أسباب النزول: ص٢٩٩، والسيوطي في تفسيره: ٨/ ٦٨٢، وفي لباب النقول: ص٢٠٢.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ٢٠٦، انظر أيضاً: ١/ ١٨٧، و٢/ ٩٣، ١٠٩، و٣/ ٤٠، ٤٤، ٤٢، ١٤٣، ١٦٦، ١٧١، ١٧٣، ٢٠٦، ٣٨٣.

(٤) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٨١، ٩٥، ٩٧، ١٠١، ١٠٤، ١٠٧، ١١٠، ١٦٩، و٢/ ٢٩، ١٠، ٣٢، ١٠٣، ١٩٨، ٢٦٢، و٣/ ١١، ١٠٣، ١٩٨، ٤/ ٨٤، ١٦٣.

(٥) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٠٤، ١١٥، ١٦٥، ٢٠٣، و٢/ ١٠٣، و٣/ ٧٦، ٧٨، ٩٣، ١٣٣، و٤/ ٣، ١٠٩، ١٣٤، ١٤١، ١٦٦ مثلاً.

(٦) انظر: القرآن والتفسير: ص٧٢، والتبيان في علوم القرآن: ص٢٥، ومذكرة في علوم القرآن: ص٣٣.

أن يكون سبب نزول الآية سابقاً لنزولها، أي: راعى ما نزلت الآية مبينة لحكمه أيام وقوعه كما قال السيوطي[١]، فأخرج الأخبار الماضية من أن تكون سبباً للنزول، وهذا ما دعاه إلى إخراج قصة أصحاب الفيل التي اعتبرها الواحدي سبباً لنزولها من هذا الباب، على الرغم من ذكره لها عند تفسيره للآية، مما يشير إلى أنه ـ وإن لم يضع تعريفاً مسبقاً لأسباب النزول ـ أدرك معنى هذا العلم وفائدته وزمنه، كما أدرك طرق معرفته، وهذا ما دعاه إلى الاعتماد على الأحاديث النبوية، أو على أقوال الصحابة ممن شهد الوحي والتنزيل في بيان سبب نزول الآيات، وهو في هذا كله لا ينقل الحديث[٢] بنصه إلا ما ورد منها موجزاً مختصراً، ومن هذا ما نقله في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾[النساء: ١٨٦] قال: «ولمّا قال أعرابي لرسول الله ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه نزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾»[٣].

ومنه أيضاً ما نقله عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[البقرة: ٩٩] قال: «عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال ابن صوريا لرسول الله ﷺ: ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية فنتبعك بها فنزلت الآية»[٤].

---

(١) انظر: الإتقان: ١/ ٤٢.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٩١، ١٤٥، ١٧٠، ١٧٣، ٢٤٩، ٢٦٧، ٢٧٤، ٣٠٦، و٢/ ١٢١، ١٤٣، ٣٠٥، و٣/ ١٠٣، ١٢٤، ١٣٧، ١٥٢، ٢٥١، ٢٩٢، و٤/ ٢٣١، ٢٢٦، ٣٠٧.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢، والحديث أخرجه الطبري: ٢/ ٩٢، والسيوطي: ١/ ٤٦٩ والبغوي: ١/ ١٥٥، ولباب النقول في أسباب النزول: ص٣٣.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٦٥، والحديث أخرجه الطبري: ١/ ٣٥٠، والسيوطي في تفسيره: ١/ ٢٣٢، وفي لباب النقول: ص٢٣.

وما لم ينقله بنصه قدم له بلفظ قيل أو روي، ومن هذا ما قاله في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[النساء: ٥٨] قال: «قيل إن عثمان بن طلحة بن عبد الدار كان سادن الكعبة، وقد أخذ رسول الله ﷺ منه مفتاح الكعبة، فلما نزلت أمر عليا رضي الله عنه أن يردوه إليه، وقال رسول الله ﷺ: لقد أنزل الله في شأنك قرآناً، وقرأ عليه الصلاة والسلام الآية فأسلم عثمان، فهبط جبريل عليه السلام، وأخبر رسول الله ﷺ أن السدانة في أولاد عثمان أبداً»[١] والحديث بنصه في[٢] أسباب النزول للواحدي.

وهو ما فعله أيضاً في حديثه عن سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[النحل: ١٢٦] قال: «روي أن المشركين مثّلوا بالمسلمين يوم أحد، بَقَروا بطونهم، وقطعوا مذاكيرهم، فرأى النبي ﷺ حمزة رضي الله عنه مقبور البطن فقال: أما والذي أحلف به لأمثلن بسبعين مكانك فنزلت ـ فكفّر عن يمينه، وكفّ عمّا أراده»[٣] والحديث بنصه عند السيوطي بسنده[٤].

وقد سار النسفي في أغلب تفسيره على اختيار سبب واحد لنزول الآية، والظاهر أنه يختار عند اجتماع أكثر من سبب لنزولها، ما روي عن ابن[٥] عباس رضي الله عنهما

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٢٣٢، والحديث أخرجه الطبري: ٨/ ٤٩٢، والسيوطي في تفسيره: ٢/ ٥٧٠، وفي لباب النقول: ص٧١، وفي أسباب النزول للواحدي: ص١١٦.

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي: ص١١٦.

(٣) تفسير النسفي: ٢/ ٣٠٥، والحديث أخرجه السيوطي في تفسيره: ٥/ ١٧٩، والواحدي في أسباب النزول: ٢١٤، وفي لباب النقول: ص١٣٥.

(٤) انظر: الدر المنثور: ٥/ ١٧٩.

(٥) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٦٧، ٨١، ٩٧، ١٠٧، ١٢٩، ١٣٧، ١٥٢، و٢/ ١٣٦، ١٣٩، و٣/ ٤١، ٩٥، و٤/ ١٨١، ٢٦٥، ٣١٨، ٣٨٧.

في هذا السبيل، ولا يثنيه عن اختياره هذا ضعف سند ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا ما رأيناه في حديثه عن سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾[البقرة: ١٨٩] قال: «قال معاذ بن جبل: يا رسول الله! ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد ويمتلئ ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا، لا يكون على حالة واحدة كالشمس، فنزلت الآية»[1] وقد ذكر الواحدي سبباً آخر بلا سند لنزولها، وآخر عن قتادة، فاختار النسفي ما روي عن ابن عباس، والحديث في الدر[2] المنثور عن ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس، وكذا في أسباب[3] النزول وقد عزاه الواحدي إلى ابن الكلبي.

وهذا ما نراه أيضاً عند حديثه عن سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾[البقرة: ١٤٣] فقد ورد في سبب نزولها أحاديث كثيرة، نقل أحدها عن البراء، والثاني عن قتادة، وثالث عن السدي، ورابع عن الربيع[4]، واختار النسفي ما روي عن ابن عباس في سبب نزولها دون غيره من هذه الأسباب، ولا أدري سبباً لاختياره هذا إلا ما ورد عند الزركشي بقوله: «إن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة، فإن أمكن الجمع فذاك، وإن تعذر قدّم ابن عباس لأن النبي ﷺ بشّره بذلك حيث قال: (اللّهم علمه التأويل)[5] وقد رجح الشافعي قول زيد في الفرائض لقوله ﷺ: أفرضكم زيد»[6].

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٩٧.

(٢) انظر: الدر المنثور: ١/ ٤٩٠.

(٣) انظر: أسباب النزول: ص٣٥.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٣/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٥) والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك: ١/ ٣٥٩ و٣/ ٥٣٦.

(٦) البرهان: ٢/ ١٧٢.

ثامناً ـ الناسخ والمنسوخ:

وهي النقطة الثالثة في التفسير النقلي عند النسفي، وهي مسألة لها أثر في التفسير، كما أن لها خطرها عند من يدافعون عن الإسلام وقد عني بها كما عني بها غيره من المفسرين، كالطبري والقرطبي، وابن الجوزي، والزمخشري والبيضاوي، وذلك لأنها باب من الأبواب التي ولجها الطاعنون على الإسلام للتشكيك فيه.

ويمكننا أن نقسّم دراستنا لهذا الأمر عند النسفي إلى: تعريف النسخ عنده، وأحكامه، وما يجوز نسخه، وأنواع ذلك، والحكمة منه، ثم منهج النسفي في عرض الناسخ ـ المنسوخ.

١ ـ تعريفه:

عرّف النسفي النسخ لغةً وشرعاً فقال: «النَّسْخُ لغةً: هو التبديل، وشريعةً: بيان انتهاء الحكم الشرعي المطلق الذي تقرر في أوهامنا استمراره بطريق التراخي، فكان تبديلاً في حقنا، بياناً محضاً في حق صاحب الشرع، وفيه جواب عن البَدَاء الذي يدّعيه منكروه ـ أي اليهود ـ ومحلّه: حكم يحتمل الوجود والعدم في نفسه، لم يلحق به ما ينافي النسخ من توقيت أو تأبيد ثبت نصاً أو دلالة»[١].

٢ ـ أحكامه:

ويميّز النسفي كما أجاز غيره من أهل[٢] الجماعة النسخ قبل الفعل، كما يجيزه قبل التمكن، وقد أشار إلى هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[البقرة: ٧١] قال: «لغلاء ثمنها، أو خوف الفضيحة في

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٢/ ٦٦.

ظهور القاتل، روي أنه كان في بني إسرائيل شيخ صالح له عجلة، فأتى بها الغيضة وقال: اللهم إني استودعتكها لابني حتى يكبر، وكان براً بوالديه، فشبت البقرة وكانت من أحسن البقر وأسمنه، فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير، وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة، وهذا بيان من قبيل تقييد المطلق فكان نسخاً، والنسخ قبل الفعل جائز، وكذا قبل التمكن منه عندنا خلافاً للمعتزلة»[١].

ومع إيمانه هذا فقد يطغى عليه أحياناً التأثر[٢] بالزمخشري، حتى يخالف غيره من أهل الجماعة، فيرى أن فداء إسماعيل لا يعد نسخاً بل فداء، على حين اعتبر[٣] القرطبي قصة الذبيح دليلاً على جواز النسخ قبل الفعل، قال النسفي: «ولا يكون النسخ إلا بعد استقرار المراد بالأمر لا قبله، ولذا سمي فداء إسماعيل بكبش فداء لا نسخاً»[٤].

٣ ـ ما يجوز فيه النسخ:

أما ما يجوز فيه النسخ، فهو كما عند الجمهور[٥] في الأحكام لا في الأخبار، لأن النسخ في الأخبار من قبيل التكذيب، وهذا لا يجوز في حق الله تعالى.

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٥٥.

(٢) قال الزمخشري: «وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل، ولا قبل أوان الفعل في شيء، كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام فيه، انظر: الكشاف: ٣/ ٣٠٩.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٢/ ٦٦.

(٤) تفسير النسفي: ٤/ ٢٦ ـ ٢٧.

(٥) انظر: البرهان: ٢/ ٣٣، ومقدمة الراغب الأصفهاني: ص٤١٧، وإرشاد الفحول: ص١٨٦ نواسخ القرآن: ص٩٣ ومباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح: ص٢٦٣، والناسخ والمنسوخ لابن حزم: ص١٣٩.

قال الزركشي: «الجمهور على أنه لا يقع النسخ إلا في الأمر والنهي»[١].

وقال السيوطي: «لا يقع النسخ إلا في الأمر والنهي ولو بلفظ الخبر، أما الخبر الذي ليس بمعنى الطلب فلا يدخله النسخ، ومنه الوعد والوعيد»[٢].

وقال الزرقاني: «إن تعريف النسخ بأنه رفع حكم شرعي بدليل شرعي، يفيد بوضوح أن النسخ لا يكون إلا في الأحكام، وذلك موضع اتفاق بين القائلين بالنسخ، لكن في خصوص ما كان من فروع العبادات والمعاملات، أما غير هذه الفروع من العقائد وأمهات الأخلاق، وأصول العبادات والمعاملات ومدلولات الأخبار المحضة فلا نسخ فيها على الرأي السديد الذي عليه جمهور العلماء»[٣] وقد أشار إلى هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] إلى قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ قال: «تعلق ذلك بالكسب دون العزم، وفي بعضها أنها نسخت بهذه الآية، والمحققون على أن النسخ يكون في الأحكام لا في الأخبار»[٤].

٤ ـ أنواعه:

والنسخ عنده[٥] كما عند الزركشي[٦] والسيوطي[٧]، ثلاثة أقسام:

---

(١) البرهان: ٢/ ٣٣.

(٢) الإتقان: ٢/ ٢٧.

(٣) مناهل العرفان: ٢/ ١٠٧.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ١٤٣.

(٥) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٦٧ ـ ٦٨.

(٦) انظر: البرهان: ٢/ ٣٥ ـ ٤٠.

(٧) انظر: الإتقان: ٢/ ٣١ ـ ٣٢.

- ما نُسخ حكمه دون تلاوته.

- ما نسخ حكمه وتلاوته.

- ما نسخ تلاوته دون حكمه.

ومع أن جميع من تحدث عن النسخ تابع هؤلاء في تقسيماتهم الثلاثية للنسخ، إلا أن الدكتور صبحي الصالح ـ رحمه الله ـ، أشار إلى خطأ هذا التقسيم قال: «والولوع باكتشاف النسخ في آيات الكتاب، أوقع القوم في أخطاء منهجية، كان خليقاً بهم أن يتجنبوها لئلا يحملها الجاهلون حملاً على كتاب الله: لم يكن يخفى على أحد منهم أن القرآنية لا تثبت إلا بالتواتر، وأن أخبار الآحاد ظنية لا قطعية، وجعلوا النسخ في القرآن مع ذلك على ثلاثة أضرب: نسخ الحكم دون التلاوة، ونسخ التلاوة دون الحكم، ونسخ الحكم والتلاوة جميعاً، وليكثروا إن شاؤوا من شواهد الضرب الأول، فإنهم فيه لا يمسّون النص القرآني من قريب أو بعيد، إذ الآية لم تنسخ تلاوتها بل رفع حكمها لأسرار تربوية وتشريعية يعلمها الله، أما الجراءة العجيبة ففي الضربين الثاني والثالث اللّذين نسخت فيهما ـ بزعمهم ـ تلاوة آيات معينة، إما مع نسخ أحكامها، وإما دون نسخ أحكامها.

والناظر في صنيعهم هذا سرعان ما يكتشف فيه خطأ مركباً: فتقسيم المسائل إلى أضرب إنما يصلح لكل ضرب شواهد كثيرة أو كافية ـ على الأقل ـ لتيسير استنباط قاعدة منها، وما لعشاق النسخ إلا شاهد[1] أو اثنان على كل من هذين

---

(١) ما نسخ تلاوته وحكمه شاهده: ما ورد عن عائشة ﵂: «كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرّمن، ثم نسخن بخمس معلومات، وتوفي رسول الله ﷺ وهي فيما يقرأ من القرآن «أما ما نسخ تلاوته دون حكمه فشاهده: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله» مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح: ص٢٦٥ (الحاشية).

الضربين، وجميع ما ذكروه منها أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها»[١] وهو كلام بيِّنٌ دقيق.

والنسفي[٢] يجيز نسخ القرآن بالقرآن، ونسخ القرآن بالسنة، وهو ما ذهب إليه القرطبي[٣] أيضاً قال القرطبي: «وحذاق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة، وذلك موجود في قوله ﷺ (لا وصية لوارث)»[٤].

٥ ـ الحكمة من النسخ:

وهنا لابد لنا من القول: إن النسخ وقع بالشريعة الإسلامية، ووقع فيها على معنى أن الله نسخ[٥] بالإسلام كل دين سبقه، ونسخ بعض أحكام هذا الدين ببعض، وقد بيَّنَ النسفي حكمة نسخ بعض أحكام الإسلام ببعض بقوله: «والحكمة من النسخ هي الابتلاء، واختبار صدق إيمان المؤمنين، ولذا قد يكون النسخ: نسخ الأشق بالأهون، والأهون بالأشق، لأن الحكمة من النسخ موجودة في السهل والصعب على حد سواء»[٦].

٦ ـ منهجه في الناسخ والمنسوخ:

إن معرفة الناسخ والمنسوخ من الأمور الضرورية المهمة لمن أراد تفسير

---

(١) مباحث في علوم القرآن: ص٢٦٥، وانظر: البرهان: ٢/ ٣٩ ـ ٤٠، الإتقان: ٢/ ٣٤.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) تفسير القرطبي: ٢/ ٦٥.

(٤) والحديث: في جامع الأصول: ٩/ ٦٢٢ و١١/ ٦٣٢، ٦٣٣، ٧٥٠ وتخريجه ثمة، رقم الحديث ٧٤١٧، ٩٢٥٣، ٩٢٥٤، ٩٤٤٦ كتاب الوصية، باب في الوصية للوارث.

(٥) انظر: تفسير النسفي: ٤/ ١٤٩.

(٦) تفسير النسفي: ٢/ ٢٩٩.

كتاب الله الكريم، وقد نبّه الصحابة رضوان الله عليهم على أهمية هذا العلم، فقد روي عن علي ﷺ أنه دخل يوماً مسجد الجامع بالكوفة، فرأى فيه رجلاً يُعْرَف بعبد الرحمن بن دأب وكان صاحباً لأبي موسى الأشعري، وقد تحلّق عليه الناس يسألونه، وهو يخلط الأمرَ بالنهي، والإباحةَ بالحظر، فقال له علي ﷺ أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت»[1].

أما طريق معرفته فهي النقل الثابت عن النبي ﷺ وعن صحابته، ولذا يجب التثبت في نقل الرأي الذي يبين نسخ الآية أو إحكامها، كما يجب مراعاة مبادئ النسخ، ومعرفة ما يجوز فيه وزمنه، ومن الطبيعي أن ينحصر[2] النسخ في عصر الرسالة، وعليه يجب رد كل دعوة نسخ[3] لم تُؤْثَرْ عن هذا العصر.

ويبدو هذا القول أكثر وضوحاً إذا عَرَفْنا من له حق النسخ، والذي يقره العقل هو أنه لا يحق النسخ إلا لصاحب التشريع، والمشرّع[4] هو الله تعالى، وهو ما أعلنته الآية الكريمة بشكل جلي، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[يونس: ١٥].

وقد أدرك النسفي هذا كله، فراح يتتبع الآيات التي حكم عليها بالنسخ، ويشير إليها معللاً تارة، مكتفياً بالإشارة إليها تارة أخرى، قال مثلاً في تفسير قوله

---

(١) الناسخ والمنسوخ، (هبة الله بن سلامة): ص٦.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٢/ ٦٦.

(٣) انظر: النسخ في القرآن: ١/ ١٧٤.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٢/ ٦٤، والنسخ في القرآن: ١/ ١٧٤.

تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[المزمل: ١٠][1]: «جانبهم بقلبك وخالفهم مع حسن المحافظة وترك المكافأة، وقيل: هو منسوخ بآية القتال»[2].

وقال في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[المائدة: ١٠٦]: «سافرتم، أو منكم من المسلمين، ومن غيركم من أهل الذمة، وقيل منسوخ إذ لا تجوز شهادة الذمي على المسلم، وإنما جازت في أول الإسلام لقلة المسلمين»[3].

وهو في هذا لا ينسب الآراء إلى أصحابها إلا نادراً، ومن هذا ما قاله مثلاً في قوله تعالى: ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[محمد: ٤] قال: «المن والفداء المذكوران في الآية منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾[التوبة: ٣٦] لأن سورة براءة من آخر ما نزل، عن مجاهد: ليس اليوم مَنٌّ ولا فداء، إنما هو الإسلام، أو ضرب العنق»[4].

وكذا ما سنراه أيضاً في حديثنا عن نسخ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ . . .﴾[النور: ٥٩] الآية بعد قليل.

وربّما أورد آراء العلماء في آية ما من حيث الإحكام والنسخ ويقدّم لهذا

---

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس: ص٢٥٣، نواسخ القرآن: ص٤٩٩ ـ ٥٠٠، وتفسير الطبري: ٢٩/ ٨٤.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٣٠٤، انظر أيضاً تفسيره: ١/ ٢١٩، ٢٨٤، و٢/ ٢٧٧، و٤/ ٢٥٠.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٣٠٧.

(٤) تفسير النسفي: ٤/ ١٥٠، انظر: تفسير الطبري: ٢٦/ ٢٧، الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٢٢٨، الناسخ والمنسوخ للنحاس: ص٢٢١ ـ ٢٢٢.

بقوله: قيل محكمة وقيل منسوخة، وهو ما نراه مثلاً في حديثه عن قوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾[المائدة: ٤٢] قال: «قيل: كان رسول الله ﷺ مُخيَّراً إذا تحاكم إليه أهل الكتاب بين أن يحكم بينهم وبين أن لا يحكم بينهم، وقيل نسخ التخيير بقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[المائدة: ٤٩]»(١).

ومع هذا فقد يبدو أحياناً مرجحاً لنسخ الآية، مؤكداً له غير عارض لما خالفه من الآراء، مكتفياً بقوله نسخت الآية بكذا. قال مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾[البقرة: ٢١٩] قال: «أي الفضل: أي أنفقوا ما فَضُل على قدر الحاجة، وكان القصد بالفضل في أول الإسلام فرضاً، فإذا كان الرجل صاحب زرع أمسك قوت سنته وتصدّق بالفضل، فنُسخت بآية الزكاة»(٢).

ومثل هذا ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ . . .﴾[البقرة: ٢٤٠] قال: «ومعنى ذلك أن حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا، بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً، أي ينفق عليهن من تركته، ولا يخرجن من مساكنهن، وكان ذلك مشروعاً في أول الإسلام ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا﴾ إلى قوله: ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾[البقرة: ٢٣٤] والناسخ متقدم عليه تلاوة ومتأخر نزولاً»(٣).

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٢٨٤، انظر: تفسير النسفي: ١/ ٩٢، و٢/ ١٩١، و٣/ ١٢٧، انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٣٣٣، أحكام القرآن: ٢/ ٦٢٠، والناسخ والمنسوخ للنحاس: ص١٢٨، ونواسخ القرآن: ص٣١١.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١١٠، انظر: تفسير الطبري: ٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥، الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٦٢، الناسخ والمنسوخ للنحاس: ص٥٣، ونواسخ القرآن: ص٢٠٠.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٢٢، انظر: تفسير الطبري: ٥/ ٢٥٩، الجامع لأحكام القرآن: =

ولكنه أحياناً يتبع منهجه العقلي فيفرض شخصيته الناقدة، المتأملة، المرجحة، فيعرض الآراء ويختار ويعلل، فيرفض دعوى النسخ في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾[الفرقان: ٦٣] قال: «سداداً من القول، يسلمون فيه من الإيذاء والإفك، أو تسلماً منكم نتارككم، ولا نجاهلكم، فأقيم السلام مقام التسليم، وقيل: نسختها آية القتال، ولا حاجة إلى ذلك، فالإغضاء عن السفهاء مستحسن شرعاً ومروءة، ولا حاجة إلى ادعاء النسخ ما دامت الدعوة إلى الإغضاء عن السفهاء مستحسنة دائماً»(١).

كما رفض دعوى النسخ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[النور: ٥٩] فقال: «أي الذين بلغوا الحلم من قبل وهم الرجال، أو الذين ذكروا من قبلهم في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾[النور: ٢٧] قال: «والمعنى أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن إلا في العورات الثلاث، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم بلغوا الاحتلام، أو بالسن وَجَبَ أن يُفْطَموا عن تلك العادة، ويُحْمَلوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات كالرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول إلا بإذن، والناس عن هذا غافلون، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاث آيات جحدهن الناس: الإذن كله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[الحجرات: ١٣] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ ﴾ [النساء: ٨] وعن سعيد بن جبير: يقولون هي منسوخة، والله ما هي»(٢).

= ٣/ ٢٢٧، زاد المسير: ١/ ٢٨٧.

(١) تفسير النسفي: ٣/ ١٧٤، تفسير الطبري: ١٩/ ٢١ ـ ٢٢، الناسخ والمنسوخ للنحاس: ص٢٠٢، ونواسخ القرآن: ص٤١٤.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ١٥٤، انظر أيضاً: ٢/ ٤١، انظر: تفسير الطبري: ١٨/ ١٦٤ ـ ١٦٥ =

بينما يؤيد نسخ قوله تعالى: ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ ويعلل قوله كما رأينا قبل قليل.

وإذا عدنا إلى الكتب المختصة بالناسخ والمنسوخ، أو كتب التفسير بالمأثور نرى أن النسفي إذ يرجح نسخ آية أو إحكامها يميل إلى ما مال إليه معظم علماء الأمة ومفسريها، ففي رفضه لنسخ الآية السابقة: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا . . .﴾ الآية يوافق الطبري[1] الذي رأى أن الآية محكمة، وابن الجوزي الذي أعلن رفضه لدعوى النسخ بشكل صريح إذ يقول: «وزعم قوم أن المراد بهم أنهم يقولون للكفار: ليس بيننا وبينكم غير السلام، ثم نسخت بآية السيف، وهذا باطل لأن اسم الجاهل يعم المشرك وغيره، فإذا خاطبهم مشرك قالوا السداد والصواب في الرد عليه، وحسن المحاورة في الخطاب لا ينافي القتال فلا وجه للنسخ»[2].

وهو رأي هبة الله[3] بن سلامة أيضاً، ولن نجد إلا ابن النحاس الذي يستنتج نسخ الآية من كلمة لمحمد بن يزيد في تخطئة سيبويه عندما ادعى النسخ على الآية محتجاً لهذا بأن الآية مكية. قال ابن النحاس، بعد عرضه لما قاله محمد بن يزيد: «وإنما جاز أن تكون منسوخة، لأن معناها معنى الأمر. إذا خاطبكم الجاهلون فقولوا سلاماً، فعلى هذا يكون النسخ فيها»[4].

وهذا ما نقوله أيضاً في حديثنا عن تأييد النسفي إحكام الآية: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ

= وتفسير القرطبي: ١٢/ ٣٠٨.

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٩/ ٢١ ـ ٢٢.

(٢) نواسخ القرآن: ص٤١٤ ـ ٤١٥.

(٣) انظر: الناسخ والمنسوخ: ص٢٤٨.

(٤) الناسخ والمنسوخ: ص٢٠٢ ـ ٢٠٣.

﴿مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فقد أجمع العلماء على إحكامها، فأبو جعفر النحاس يتحدث عن إحكام الآية فيقول: «وهو قول أكثر أهل العلم»[١].

ويصف ابن الجوزي إحكام هذه الآية بأنه رأي الأكثرين[٢]، ويروي الطبري[٣] إحكامها عن ابن عباس بطريق عطاء وابن جبير، وعن القاسم بن محمد والشعبي، وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا . . .﴾ الآية فهو يؤيد نسخ هذه الآية، ويوافق بذلك جميع من تحدثوا عنها، فقد أيد أبو جعفر النحاس[٤] نسخها، كما أيده البغوي[٥]، وابن الجوزي[٦]، والطبري[٧]، والزمخشري[٨].

ولا نراه يخالف هذه القاعدة إلا في تأييده لنسخ قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[البقرة: ٢١٩] فقد جعلها منسوخة بقوله: «نسخت بآية الزكاة» على حين رأى معظم علماء التفسير أن الآية في الفضل والتطوع، وهي محكمة لا منسوخة، ومن هؤلاء: الطبري[٩]، والقرطبي[١٠]، وابن الجوزي[١١]، وابن

---

(١) الناسخ والمنسوخ: ص١٩٧ ـ ١٩٩.

(٢) انظر: زاد المسير: ٦/ ٦٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٨/ ١٢٦.

(٤) انظر: الناسخ والمنسوخ: ص٧٣.

(٥) انظر: تفسير البغوي: ١/ ٢٢٢.

(٦) انظر: زاد المسير: ١/ ٢٨٧، ونواسخ القرآن: ص٢١٦.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ٢٥٩.

(٨) انظر: الكشاف: ١/ ١٤٧.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(١٠) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٦٢.

(١١) انظر: نواسخ القرآن: ص٢٠٢.

كثير[١] فقد رأى أن الأوجه أن تكون الآية مبيّنة بآية الزكاة كما قال مجاهد لا منسوخة. ولم يوافق النسفي في تأييد النسخ إلا البغوي[٢] وهبة الله[٣] بن سلامة والضحاك، الذي قال: «آية الزكاة نسخت كل صدقة في القرآن»، مما يشير إلى وهمهم في إثبات نسخ هذه الآية خلافاً لغيرهم.

وقد خرج النسفي في حديثه عن هذه الآية عن موافقة الزمخشري الذي رأى كما رأى غيره من المفسرين أن الآية محكمة.

وخلاصة القول: إن النسفي لم يكن مجتهداً في مسألة الناسخ والمنسوخ، بل كان تابعاً للزمخشري ولغيره ممّن تحدث عن هذا الأمر، ونقل عنه ما قاله في نسخ آية أو إحكامها ـ وإن حذف نسبة الآراء إلى أصحابها (وهو ما ذكره الزمخشري في تفسيره أحياناً) ـ اللهم إلا ما رأيناه من مخالفته له في تأييد نسخ الآية السابقة، بينما رأى الزمخشري إحكامها كما تحدثنا، وما أدري سبباً لمخالفته هذه، مع أن الزمخشري وافق معظم أهل التفسير في رأيه، كما وافقه البيضاوي فيما بعد.

تاسعاً ـ النسفي والقراءات:

عني النسفي عناية كبيرة بالقراءات ولم يوجه عنايته إلى قضية ما في تفسيره، كما وجهها إليها، فقلما نجد آية من آيات القرآن لم يخرّجْها على القراءات المعتمدة، ولهذا بدا واضحاً لكل ناظر في تفسيره أنه عالم بالقراءات، مهتم بها، ملتزم بالقراءات[٤] السبع التي عرفها كما عرف غيرها وهذه العناية والمعرفة دفعته

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ١/ ٤٥٤.

(٢) انظر: تفسير البغوي: ١/ ١٩٣.

(٣) انظر: الناسخ والمنسوخ: ص٨٤.

(٤) وهي القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة: نافع وعاصم وحمزة وعبدالله بن عامر، وعبدالله =

إلى ذكر القراءات في أغلب الأحيان، والإشارة إلى أصحابها وقرائها. قال مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٢١٤] «يقول بالرفع نافع على حكاية حال ماضيه، نحو شربت الإبل حتى يجيء البعير يجر بطنه، وغيره بالنصب على إضمار أن، ومعنى الاستقبال لأن أن علم له»[١].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾[البقرة: ١٩١] «ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم، فإن قتلوكم حمزة وعلي»[٢].

كما نلمح النسفي يستعين بالقراءة على التفسير، فهي تقوي التفسير وتعضده، وتلقي الضوء عليه، فيعضد تفسير الآية: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ٢٢٦] بقراءة عبدالله قال: «فإن فاءوا في الأشهر لقراءة عبدالله فإن فاءوا فيهن، أي: رجعوا»[٣].

كما يعضد تفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[البقرة: ٢١٣] بقراءة عبدالله أيضاً فيقول: «على دين الإسلام، من آدم إلى نوح عليهما السلام، أَوْ هُمْ نوح ومن كان معه في السفينة فاختلفوا، فبعث الله النبيين يدل على حذفه قوله تعالى: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾[البقرة: ٢١٣]، وقراءة عبدالله: ﴿كان الناس أمة واحدة

= ابن كثير وأبو عمرو بن العلاء، وعلي والكسائي.

(١) تفسير النسفي: ١/ ٩٩، انظر: تفسير النسفي: ١/ ٩٣، ١١٣، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٣٦، ١٥٤، و٢/ ٨، ١٤، ٢٠، ٨٨، ١٣٩، و٣/ ٥، ١٠، ١٩، ٢١، ٢٥، ٢٩٣، و٤/ ٤٦، ٦٥، ١٣٥ مثلاً.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٩٩.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١١٣، انظر: تفسير النسفي: ١/ ٧٧، ١١٣، ١١٨، ١٣٩، ١٤١، و٢/ ٤١، ١٠٨، ١٢٠، و٣/ ٦٥، ١٩٠، ٢٩١، ٢٩٤، ٣٢٥، و٤/ ١٧، ٧٣.

فاختلفوا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[يونس: ١٩][(١)].

وهو يعالج القراءات ليوجه قراءة بعينها إلى أوجهها المعنوية، المختلفات المحتملات، ليكشف عما وراء الآي من ثروة ومعان، فهو يستغل القراءات في خدمة التفسير.

يقول مثلاً في الآية: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الشعراء: ١٣٧] «ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت، واتخاذ الابتناء إلا عادة الأولين، أو ما نحن عليه دين الأولين، إلا خلق الأولين مكي وبصري، ويزيد وعلي، أي: ما جئتَ به اختلاقُ الأولين، وكذب المتنبئين قبلك، كقولهم أساطير الأولين، أو خلقنا كخلق الأولين نموت ونحيا كما حيوا»[(٢)] كما يبين أحياناً ما بين القراءات من فروق لغوية، إذ لذلك - ضرورة - أثر في اختلاف معنى الآي وهو ما نراه مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾[النحل: ٧] قال: «بفتح الشين أبو جعفر وهما لغتان في معنى المشقة، وقيل المفتوح مصدر شَقَّ الأمر عليه شَقاً، وحقيقته راجعة إلى الشَّقِّ الذي هو الصدع، وأما الشِّقُّ: فالنصف كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد»[(٣)].

وقال في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾[الكهف: ٤٤] «الوِلاَية: بكسر الواو حمزة وعلي، فهي بالفَتح النُّصْرَةُ والتَّوَلِّي، وبالكسر السلطان والملك، والمعنى هنالك، أي في ذلك المقام، وتلك الحالة النصرة لله وحده لا يملكها غيره،

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٠٦، انظر أيضاً: ٣/ ١٢٤، ٢٣٦، ٢٧٧، ٣٠٦، و٤/ ٤٤، ١٣٣، ١٦٥، ١٧٩، ١٨٧، و٤/ ٢٥٣، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٨٢.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ١٩١.

(٣) تفسير النسفي: ٢/ ٢٨١.

ولا يستطيعها أحد سواه تقريراً لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٤٣] أي هنالك السلطان والملك لله وحده لا يغلب، أو في مثل تلك الحال الشديدة يتـولى الله، ويؤمن به كل مضطر، يعني أن قوله: يا ليتني لم أشرك بربي أحداً كلمة ألجئ إليها فقالها جزعاً، مما دهاه من شؤم كفره، ولولا ذلك لم يقلها، أو هنالك الولاية لله ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم منهم»(١).

ويعرض للفروق اللغوية في قراءات الآية: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾[الشعراء: ٥٦] فيقول: «شـامي وكوفي وغيرهـم حذرون، فالحذِر المتيقظ والحاذر الذي يجدد حذَرَه، وقيل المؤدي في السلاح، وإنما يفعل ذلك حذراً أو احتياطاً لنفسه»(٢).

إنَّ همَّ النسفي المعنى الذي تتضمنه الآية القرآنية، والقراءة المفضّلة عنده هي التي تحمل معنًى قوياً يحفظ معنى النص القرآني ويُعَمِّقُهُ، وهو ما يدعوه إلى تفضيل قراءة ما لقوة معناها. قال في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[المؤمنون: ٧٢] «حجازي وبصري وعاصم خَرْجاً فَخَراج شامي، خراجاً فَخَراج علي وحمزة، وهو ما تُخرِجُه إلى الإمام من زكاة أرضك، وإلى كل عامل، والخرج أخص من الخراج، تقول خراج القرية، وخَرْج الكوفة، فزيادة اللفظ لزيادة المعنى، ولذا حَسُنَتْ القراءة الأولى»(٣).

فإذا ما أضاعت القراءة جمال الأسلوب القرآني وقوة معناه رفضها وأباها، وآثر غيرها مما يحفظ على القرآن جمـاله، يقول في الآية: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ١٤ ـ ١٥.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ١٨٥، انظر: ٣/ ١٢٤، ٢٣٦، ٢٧٧، ٣٠٦، و٤/ ٤٤، ١٣٣، ١٦٥، ١٧٩، ١٨٧، ٢٥٣، ٣٥٤، ٣٥٧.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ١٢٤.

ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾[البقرة: ٩٦] «بالتنكير يدل على أن المراد حياة مخصوصة، وعلى الحياة المتطاولة، ولذا كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبي: «على الحياة»[١].

والنسفي في تفضيله هذا يقلد الزمخشري ويتأثر به، إلا أنه لم يقع فيم وقع به الزمخشري من رفض قراءة بعض القراء السبعة لعدم اضطرادها والقاعدةَ النحوية، لاعتقاده اطراد الأقيسة النحوية وظنها قطعية، فرفض قراءةَ ابن عامر في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧] قال: «وأما قراءة ابن عامر ﴿قتلُ أولادَهم شركائِهم﴾ برفع القتل، ونصب الأولاد وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء، والفصل بينهما بغير الظرف ـ فشيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر ـ لكان سمجاً مردوداً كما سمج وُرَدّ: زج القلوص أبي مزادة[٢].

فكيف به في الكلام المنثور، فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته، والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم، لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب»[٣].

وقد أنكر ابن المنير قول الزمخشري إنكاراً شديداً[٤].

كما رفض قراءة ابن أبي عبلة في الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ١٢٤.

(٢) أوله: فَزَجَجْتُها بِمَزَجَّةٍ.

(٣) الكشاف: ٢/ ٤٢.

(٤) انظر: الكشاف: ٢/ ٤٣ الحاشية كتاب: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال.

النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غيرِ ناظرين﴾[الأحزاب: ٥٣] للسبب نفسه قال: «وعن ابن أبي عبلة أنه قرأ غير ناظرين مجروراً صفة لطعام، وليس بالوجه لأنه جرى على غير ما حوله، فمن حق ضمير ما هو له ألا يبرز إلى اللفظ فيقال: غير ناظرين إناه أنتم كقولك: هند زيد ضاربته هي»(١) فلم يَرَ النسفي ما رآه الزمخشري، بل نظر إلى القراءة، كما نظر غيره من أهل الجماعة(٢)، أنها سنة متبعة قرأها النبي ﷺ على جبريل، كما أنزلها عليه، ثم تلاها النبي ﷺ على عدد التواتر من الأئمة، ولم يزل عدد التواتر يتناقلونها ويقرؤون بها خلفاً عن سلف، إلى أن انتهت إلى ابن عامر وغيره من القراء، فالقراءة في جميع الوجوه السبعة متواترة جملة وتفصيلاً عن النبي ﷺ، والقاعدة النحوية تَبَع لا أصل يقاس عليه إذا ثبت التواتر في إحدى القراءات.

عاشراً ـ ما ورد في تفسيره من الإسرائيليات(٣):

على الرغم من الاختصار الشديد الذي وجدناه في تفسيره هذا، فهو لا يخلو من بعض الأخبار والقصص التي نقلها عن علماء بني إسرائيل، والتي أشار إلى القليل منها، وأغفل الإشارة إلى معظم هذه الروايات، ويبدو أن النسفي لم يُنبِّه إلاّ إلى ما يمسّ عصمة الأنبياء، فدعى إلى ضرورة التنبيه عليها، وعدم الأخذ به، أما ما لا يمس عصمة الأنبياء فقد أغفل الإشارة إليه.

---

(١) الكشاف: ٣/ ٢٤٤.

(٢) القراءات سنة لا اجتهاد قال عبدالله بن مسعود: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم».

(٣) الإسرائيليات: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ: إسرائيلية، والمراد بها المرويات عن أهل الكتاب، سواء كان ما روي منها مما يتعلق بأديانهم، أم لا صلة له بهذه الأديان، وإنما روي عن طريقهم، إذ إن أغلب الرواة لهذه المرويات كانوا من اليهود الذين دخلوا الإسلام ودانوا به، ومن أشهر هؤلاء: وهب بن منبه، كما دخلت هذه المرويات عن طريق القُصَّاص والمتصوفة وغيرهم، انظر: دراسات في القرآن: ص١١٣.

ومما أشار إليه ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾[ص: ٢١ ـ ٢٢] قال: «روي أن أهل زمان داود عليه السلام كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته، وكان لهم عادة في المواساة بذلك، وكان الأنصار يواسون المهاجرين بمثل ذلك، فاتفق أن داود عليه السلام وقعت عينه على امرأة أوريا فأحبها، فسأله النزول له عنها، فاستحى أن يرده ففعل فتزوجها، وهي أم سليمان عليه السلام فقيل له: إنك مع عظم منزلتك وكثرة نسائك لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له امرأة النزول لك عنها، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك، وقهر نفسك، والصبر على ما امتحنت به.

وقيل: خطبها أوريا ثم خطبها داود، فآثره أهلها، فكانت زلته أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه، وما يحكى أنه بعث مرة بعد مرة أوريا إلى غزوة البلقاء، وأحبَّ أن يُقْتَل ليتزوجها فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين، فَضْلاً عن بعض أعلام الأنبياء.

وقال علي رضي الله عنه: (من حَدّثكم بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مئة وستين جلدة، وهو حدُّ الفرية على الأنبياء، وروي أنه حُدِّثَ بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق، فكذب المحدِّثَ به وقال: إنْ كانت القصة على ما في كتاب الله فَمَا ينبغي أن يلتمس خلافها، وأعظم بأن يقال غير ذلك، وإن كانت على ما ذكرت، وكفّ الله عنها ستراً على نبيه، فما ينبغي إظهارها عليه، فقال عمر: لسماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله بقصته عليه السلام، ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب»[(١)].

وكذا ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٧ وقد نبه عليها أيضاً ابن كثير فيما بعد، انظر: تفسير ابن كثير: ٦/ ٥٣.

ثُمَّ أَنَابَ﴾[ص: ٣٤] قال: «أمّا ما يروى من حديث الخاتم والشيطان، وعبادة الوثن في بيت سليمان ﵇، فمن أباطيل اليهود»(١).

بينما نجد الكثير من الأخبار والقصص الإسرائيلية التي رواها في تفسيره، وأغفل الإشارة إليها، وربما رأى أن هذه الأخبار ما دامت لا تمس عصمة الأنبياء فلا خطر في ذكرها.

ومن هذا ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [النمل: ١٦] فقد أورد في تفسيره لهذه الآية قوله: «وكان سليمان ﵇ يفهم كما يفهم بعضها عن بعض، روي أنه صاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا، وصاح طاوس فقال: يقول: كما تدين تدان، وصاح هدهد فقال: يقول: استغفروا الله يا غافلين، وصاح خطاف فقال: يقول: قدموا خيراً تجدوه، وصاحت رخمة فقال: تقول سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه، وصاح قُمْري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى، وقال: الحدأة تقول: كل شيء هالك إلا الله، والقطاة تقول: من سَكَتَ سلم، والدِّيكُ يقول: اذكروا الله يا غافلين، والنسر يقول: يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت، والعقاب يقول: في البعد عن الناس أنس، والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس»(٢).

فعلى الرغم من أنها إسرائيلية لم يعقب عليها، كما قال الذهبي(٣) في حديثه عنه فيما بعد.

أما ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٤٢، انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٢١٥.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٢٠٥.

(٣) انظر: التفسير والمفسرون: ٣/ ٣٠٨.

وَمَرُوتَۚ﴾[البقرة: ١٠٢] فعلى الرغم من أن القاضي عياض أشار إلى إسرائيليتها قبله، فلم يذكر هذا.

قال النسفي: «إنهما ملَكَان اختارتهما الملائكة لتركّب فيهما الشهوة، حين عيّرت بني آدم، فكانا يحكمان في الأرض، ويصعدان بالليل، فهويا زهرة فحملتهما على شرب الخمر فزنيا، فرآهما إنسان فقتلاه فاختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة، فهما يعذَّبان منكوسين في جبّ ببابل، وسميت ببابل لتبلبل الألسن بها»(١).

وقد عقب القاضي عياض في «الشفا» قبله على هذا القول بقوله: «وما ذَكَرَ فيها ـ أي قصة هاروت وماروت ـ أهل الأخبار، ونقلة المفسرين، وما روي عن علي وابن عباس في خبرهما وابتلائهما، فاعلم أكرمك الله أن هذه الأخبار لم يرو منها شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ، وليس هو شيئاً يؤخذ بقياس، والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه، وأنكر ما قال بعضهم فيه كثير من السلف كما سنذكره، وهذه الأخبار من كتب اليهود وافترائهم، كما نصه الله تعالى أول الآيات من افترائهم على سليمان وتكفيرهم إياه»(٢).

ونبَّه ابن كثير عليها أيضاً فيما بعد فقال: «وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن البصري، وقتادة، وأبي العالية، والزهري والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح، متصل الإسناد إلى الصادق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب، فنحن

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٦٦.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ٢/ ٨٥٣ ـ ٨٥٤.

نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال»[١].

وقال القرطبي: «هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره، لا يصح منه شيء فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة، الذين هم أمناء الله على وحيه، وسفراؤه إلى رسله، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون»[٢].

أما أبو بكر بن العربي فقال في تعقيبه عليها: «وتحقيق القول أنه لم يصح سنده، ولكنه جائز كله في العقل، لو صح في النقل»[٣].

أما ما يذكره النسفي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾[النمل: ٤٤] وهو قوله: «روي أن سليمان أمر قبل قدومها فبني له في طريقها قصر من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه السمك وغيره، ووضع سريره في صدره فجلس عليه، وعَكَفَ عليه الطير والجن والإنس، وإنما فَعَل ذلك ليزيدها استعظاماً لأمره، وتحقيقاً لنبوته، وقيل إن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضي إليه بأسرارهم لأنها كانت بنت جنية، وقيل خافوا أن يولد له منها ولد يجمع فطنة الجن والإنس؛ فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد، فقالوا له: إن في عقلها شيئاً وهي شعراء الساقين، ورجلها كحافر الحمار، فاختبر عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليعرف ساقها ورجلها، فكشفت عنهما فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً، إلا أنها شعراء فَصَرفَ بصره وقال لها: إنه صرح ممرّد من قوارير، مملس مستو، ومنه الأمرد، من قوارير: من الزجاج، وأراد سليمان تزوجها فكره شعرها، فعملت له الشياطين النورة فأزالته، فنكحها سليمان وأحبها، وأقرها في ملكها وكان

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٢٤٨.

(٢) تفسير القرطبي: ٢/ ٥٢.

(٣) انظر: أحكام القرآن: ١/ ٣٠.

يزورها في الشهر مرة، فيقيم عندها ثلاثة أيام، وولدت له»(١).

وقد جاء بعده ابن كثير فنبّه على خطأ هذا القول فقال: «هو منكر غريب جداً، لعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والأقرب من مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب، مما وجد في صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما الله تعالى، فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان وما لم يكن، ومما حُرف ويُدل ونُسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ»(٢).

وكذلك ما رواه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾[النمل: ٣٥] قال: «بقبولها أم بردها، لأنها عرفت عادة الملوك، وحسن مواقع الهدايا عندهم، فإن كان ملكاً قبلها وانصرف، وإن كان نبياً ردّها ولم يرض منّا إلاّ أن نتبعه على دينه إلى أن يقول: «وكتبت كتاباً فيه نسخة الهدايا، وقالت فيه: إن كنت نبياً فميّز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما في الحق واثقب الدرة ثُقباً، واسلك في الخرزة خيطاً، ثم قالت للمنذر إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك منظره، وإن رأيته بشاشاً لطيفاً فهو نبي، فأقبل الهدهدُ وأخبر سليمانَ الخبرَ كله، فأمر سليمان الجن فضربوا لِبَنَاتِ الذهب والفضة، وفرشوها في ميدان بين يديه، طوله سبعة فراسخ جعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر، فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبنات، وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير، فأُقيموا عن اليمين واليسار، ثم قعد على سريره والكراسي من جانبيه، واصطفت الشياطين صفوفاً فراسخ، والإنس صفوفاً فراسخ، والوحش والسباع والطيور والهوام، كذلك فلما دنا القوم ورأوا الدواب تروث على اللَّبِنِ،

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٢١٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥/ ٢٤٠.

رموا بما معهم من الهدايا، ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم سليمان بوجه طلق، فأعطوه كتاب الملكة، فنظر فيه وقال: أين الحق، فأمر الأرضة، فأخذت شعرة ونفذت في الدرة وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها، ونفذت فيها، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى، ثم تضرب به وجهها، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه، ثم ردّ الهدية وقال للمنذر ارجع إليهم»(١).

وقد عقَّبَ الذهبي فيما بعد على هذه الرواية التي ذكرها النسفي فقال: «فقد ذكر خبر هدية بلقيس لسليمان، وما كان من امتحانها له، وهو خبر أشبه ما يكون بقصة نسجها خيال شخص مسرف في تخيله، ومع ذلك لم يعقب عليها، كما لم يعقب على سابقتها»(٢).

أما ابن كثير فقال فيها: «وذكر بعضهم أنها أرسلت إليه بقدح ليملأه ماء رواء، وبخرزة وسلك ليجعله فيها ففعل ذلك والله أعلم أكان ذلك أم لا، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات، والظاهر أن سليمان عليه السلام لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية ولا اعتنى به، بل أعرض عنه»(٣).

ومن هذا النوع من الروايات أيضاً ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[طه: ١٨] قال: «ولمّا ذكر بعضها شكراً، أجمل الباقي حياء من التطويل، أو ليسأل عنها الملك العلاّم، فيزيد في الإكرام، والمآرب الأخرى: أنها كانت تماشيه وتحدثه، وتحارب العدو والسباع وتصير رشاء فتطول بطول البئر، وتصير شعبتاها دلواً، وتكونان شمعتين بالليل، وتحمل زاده ويركزها فتثمر ثمرة يشتهيها، ويركزها فينبع الماء، فإذا رفعها نضبت، وكانت تقيه الهوام، والزيادة على

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٢١١.

(٢) التفسير والمفسرون: ١/ ٣٠٨.

(٣) تفسير ابن كثير: ٥/ ٣٣٤.

الجواب لتعداد النعم شكراً أو لأنها جواب سؤال آخر، ولأنه قال: هي عصاي، قيل له: ما تصنع بها فأخذ يعدد مناقبها»(١).

وقد عقب ابن كثير فيما بعد على هذا القول فقال: «وقوله ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي مصالح ومنافع، وحاجات أخر غير ذلك وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من هذه المآرب التي أُبْهِمَتْ، فقيل: كانت تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام، وقول الآخر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة»(٢).

وكذا ما رواه النسفي أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾[غافر: ٧] قال: «روي أن حَمَلة العرش أرجلهم في الأرض السفلى، ورؤوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم»(٣) فقد ذكر صاحب الإسرائيليات وأثرها في الحديث بعد حديثه عن خطر الإسرائيليات: «أنها تصور الإسلام في صورة دين خرافي، يعني بترّهات وأباطيل لا أصل لها، وكلها نسيج عقول ضالة، وخيالات جماعات مضللة، من ذلك ما قيل من أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤسهم قد خرقت العرش»(٤).

وكذا ما قيل في سورة ﴿ص﴾ في شأن قصة داود عليه السلام فقال: «ومن أمثلة ذلك ما يروى في شأن داود عليه السلام من أنه سجد لله تعالى أربعين ليلة، وبكى حتى ينبت

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٥٠ ـ ٥١.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٠٠.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ٧٠ ـ ٧١.

(٤) الإسرائيليات في التفسير والحديث: ص٤٢ ـ ٤٣.

العشب من دموع عينيه، ثم زفر زفرة هاج لها ذلك النبات»[١].

إضافة إلى تلك التفاصيل التي ذكرها في تفسيره، والتي لا سبيل إلى التثبت والتوثق منها، والتي تؤلف سمة أصيلة للإسرائيليات ومن ذلك تحديد الأمكنة: كتحديد المكان الذي هاجر منه إبراهيم من كوثى بالعراق[٢]، ومكان قتل قابيل[٣] وهابيل عند عقبة حراء أو بالبصرة، والمقتول ابن عشرين[٤] سنة، وتحديد قبر آدم في سرنديب[٥] بأرض الهند، ومجمع البحرين[٦] هو ملتقى بحر فارس والروم ووادي النمل[٧] بالشام، وقرية لوط[٨] سدوم، واسم ابنة شعيب[٩] صفراء، والثانية صفيراء، والنملة[١٠] طاخية وهذه التحديدات قد يكون منها الصحيح[١١]، ومنها

---

(١) الإسرائيليات في التفسير والحديث: ص٤٢ ـ ٤٣.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٢٥٥، قال ابن كثير: «قال قتادة: هاجروا جميعاً من كوثى وهي من سواد الكوفة والشام»: ٤/ ٣١٨.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٢٨١.

(٤) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٢٨١.

(٥) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ٤٩.

(٦) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ١٨.

(٧) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٢٠٦، قال ابن كثير: «ومن قال من المفسرين بأن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، وأن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل فلا حاصل لها» تفسير ابن كثير: ٥/ ٢٢٧.

(٨) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ١٧٠.

(٩) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٢٣٢.

(١٠) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٢٠٦.

(١١) انظر: تفسير قتادة: ص١١٤.

الخطأ، والمحكّ على التاريخ والتمحيص والعلم في ذلك كله.

هذا الأمر الذي وقع فيه النسفي، عدم الإشارة إلى الإسرائيليات دائماً، يوقع قارئ هـذا التفسير في شيء من الضيـاع والخطأ في تمييز الصحيح من الكذب، كما جعل مجالاً للشك في كثير من أخباره الصحيحة، على أنها من الإسرائيليات كقصة دابة الأرض التي تحدث عنها واسمها الجساسة ـ لولا ما كتبه الذهبي عنها من أن حديث الجساسة لم يرد فيها نص صحيح ولا ضعيف فهو مقبول قال: «أما قصة الجساسة وإن كان مشتملاً على غرائب وعجائب، لا يمنع من قبوله وتصديقه ما فيه من ذلك، مـا دام قد روي عن طريق صحيحـة، لا مطـعن فيها ولا مغمز، ما دام العقل لا يحيله، والدين لا يعارضه»[1].

* * *

(١) الإسرائيليات في التفسير والحديث: ص١٢٣.

الفصل الثالث

منهجه اللغوي والنحوي

في دراسة منهجه اللغوي لن نجد شخصية عالم نحوي أو لغوي مسرف في هذا الجانب حتى يغلب عليه طابع اللغة والإعراب، إنما نلمس شخصية المفسر الذي أدرك دور الإعراب واللغة في التفسير، وفي تسهيل هذه العملية، وتثبيت الرأي وتقويته، فهو يعالج النحو واللغة من الناحية التي تخدم التفسير، وتنسق معانيه وتوضحها، وعلى هذا فقد عالج بعض الأمور المتعلقة بالإعراب، كما عالج بعض الأمور اللغوية أيضاً في أسلوب موجز وعبارات مختصرة، مختاراً في ذلك كله ما يناسب مبدأه الفقهي والديني الذي يدافع عنه في تفسيره. ولهذا نجد الحديث في منهجه اللغوي ينقسم إلى الجوانب اللغوية، والجوانب النحوية والصرفية.

أ ـ الجوانب اللغوية في تفسيره:

ويتناول حديثنا عن الجوانب اللغوية في تفسيره شرحه للألفاظ المفردة، وتعرضه للأصل الحسي للفظ، والتضمين ورأيه فيما ورد في القرآن من غير لغة العرب، وترجمة القرآن وقراءته بغير العربية والرسم القرآني وكتابة القرآن.

١ ـ شرح الألفاظ المفردة:

والنسفي قبل تفسيره للآية القرآنية، يشرح بعض ألفاظها التي رآها بحاجة إلى تفسير وشرح، وتلمس في هذا المعنى المباشر والسهل للفظة القرآنية، إذ يأتي بمعناها في صورة مرادف بسيط ودقيق بعيد عن الغموض والتعقيد، أو شرح موجز، قال مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٦] قال: «السراط: الجادة من

سَرَطَ الشيء إذا ابتلعه، كأنه يسرط السابلة إذا سلكوه»[١].

وقال في تفسير لفظ ينعق من قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾[البقرة: ١٧١] قال: «والنعيق: التصويت»[٢].

وفي تفسيره الشَّفَا من قوله تعالى: ﴿... عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾[التوبة: ١٠٩][٣] قال: «والشَّفَا: الحرف، والشفير، وجرف الوادي: جانبه»[٤].

وقد ينقل أحياناً تفسير اللفظة عن بعض اللغويين، وربما كان السبب في هذا حرصه على أن يأتي بالمعاني الدقيقة فيجمع ما يراه، مع ما يراه غيره ممن أعلم منه باللغة والتفسير، فنقل شرح الكثير من الألفاظ عن الفراء[٥]، والزَّجاج[٦]، وأبي عبيدة[٧]، والخليل[٨]، والمبرد[٩]، وثعلب[١٠] والأصمعي[١١]، وإن كان نقله عن

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٧، وقال صاحب اللسان: سَرَطَ الطعام؛ أي: ابتلعه، وسَرَطَ الشيء في حلقه سار سيراً سهلاً، انظر: اللسان: (سَرَطَ).

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٨٨، قال صاحب اللسان: نَعَقَ: صاح، اللسان (نَعَقَ).

(٣) انظر: اللسان: (جَرَفَ).

(٤) تفسير النسفي: ٢/ ١٤٦، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ٢/ ٩٣، و٣/ ١٥٣، و٤/ ١٢، ٤٥، ٢٣٩، ٣٠٤ مثلاً، وأماكن كثيرة أخرى.

(٥) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٣٠٣، و٢/ ٣٢٩، و٤/ ١١٣، ٢٥٦.

(٦) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ١٢٣، ٣٠٧، و٣/ ٤، ١٩، ٥٧، ٦٤، ١٥٠، و٤/ ١٨٩، ٣٤٠.

(٧) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٢٧.

(٨) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ١٩٤.

(٩) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٣١٣.

(١٠) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٣٣١.

(١١) انظر: تفسير النسفي: ٤/ ١٩.

الزجاج هو الغالب في تفسيره.

٢ ـ الأصل الحسي للَّفظ:

ومع عنايته الشديدة بشرح الألفاظ المفردة، فهو يذكر أصل اللفظ الحسي، وينبّه عليه في كثير من آيات القرآن، قال مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾[البقرة: ٢٥] «ومنه: البَشَرة، لظاهر الجلد، وتباشير الصبح: ما ظهر من أوائل ضوئه»[1].

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ﴾[النساء: ٢٥] «أصل العَنَتِ: انكسار العظم بعد الجبر، فاستعير لكل مشقة وضرر، ولا ضرر أعظم من مواقع: الإثم»[2].

وهو مع هذا كله يدرك أن لِلَفْظِ ما من البلاغة ما ليس في غيره، لذا فإن اختيار القرآن لهذا اللفظ، ـ وإن كان غيره يحمل بعض معناه ـ له من البلاغة والقوة والجزالة ما ليس لغيره، فكل زيادة في اللفظ[3] تحمل زيادة في المعنى، كما رأى ذلك قبله كل من الزمخشري[4] والبيضاوي[5]، ولذا فقد رأى أن لفظ الرحمن يحمل

(١) تفسير النسفي: ١/ ٣٣، وكذا قال ابن بُزُرْج، في اللسان (بَشَرَ)، انظر أيضاً تفسير النسفي: ١/ ١٨٢، ٢٢٠ ـ ٢٤٠ ـ ٢٤٦ ـ ٢٧٩.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢٢٠ وقال صاحب اللسان: «معناه أنه يِهَيضُه: وهو كَسْرٌ بعد انجبار» رواه عن الأزهري، اللسان (عَنَتَ).

(٣) وقد رفض ابن المنير هذا القول ورأى أن هذا الأمر قد يكون في بعض المواضع لا فيها كلها، انظر: الانتصاف: ١/ ٦ (حاشية الكشاف).

(٤) انظر: الكشاف: ١/ ٦.

(٥) انظر: تفسير البيضاوي: ص٣.

من المبالغة ما لم يحمله لفظ الرحيم. قال في تفسير قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[الفاتحة: ١] «وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم، لأن في الرحيم زيادة واحدة، وفي الرحمن زيادتين، وزيادة اللفظ تدل على زيادة المعنى»(١).

كما يرى أن لفظ استعف أبلغ من عفّ في مكانها. قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[النساء: ٦] «واستعف أبلغ من عفّ كأنه طالب زيادة العفة»(٢).

ويرى أن لفظ الملكوت(٣) أبلغ من الملك، لأن الواو والتاء تزادان للمبالغة، وكذا لفظ قيّماً(٤) واستعصم(٥)، واستيْأس(٦).

٣ ـ التضمين:

ولما كان القرآن يسير على لغة العرب وقوانينها اللغوية وقد أشار النسفي في تفسيره إلى هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب: ٧٢] قال: «وقيل معنى الآية أن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام، وأقواه فأبى حمله وأشفق منه وحمله الإنسان على ضعفه إنه كان ظلوماً جهولاً، حيث حمل الأمانة ثم لم يفِ بها، وضمنها ثم خاس بضمانه

(١) تفسير النسفي: ١/ ٥.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٢.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ١٩، سورة الأنعام: ٦/ ٧٥.

(٤) سورة الكهف آية ١٨/ ٢، انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٢.

(٥) سورة يوسف آية ١٢/ ٣٢، انظر: تفسير النسفي: ٢/ ٢٢٠.

(٦) سورة يوسف آية ١٢/ ٨٠، انظر: تفسير النسفي: ٢/ ٢٣٣.

فيها ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب، وما جاء القرآن إلا على أساليبهم من ذلك قولهم: لو قيل للشحم أن تذهب لقال: أسوي العوج»[1].

فقد يُضَمِّنُ القرآن اللفظ معنى لفظ آخر، ولهذا أهميته وفائدته، فالكلمة الجديدة تحمل معناها القديم ومعنى الكلمة التي ضمنت معناها، وهذا ما أشار إليه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[الكهف: ٢٨] قال: «ولا تجاوز، عدّاه إذا جاوزه، وعُدِّي بعن لتضمن عدا معنى نبا في قوله نَبَتْ عنه عَيْنُه، وفائدة التضمين إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ»[2].

كما رأى أنَّ قوله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ ضمّن معنى ولا تنحرف في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[المائدة: ٤٨] قال: «نهى أن يحكم بما حرفوه ويدلوه اعتماداً على قولهم، ضمّن معنى ولا تتبع معنى ولا تنحرف، فلذا عُدِّي بعن فكأنه قيل ولا تنحرف عما جاءك من الحق»[3] وهذا كثير[4] في القرآن.

والنسفي بعد هذا كله يشير إلى ما في بعض ألفاظ القرآن من معان دقيقة، فيرى أن في لفظة مذبذبين في قوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[النساء: ١٤٣] تكريراً ليس في الذب، قال: «وحقيقة المذبذب الذي يذب عن كلا الجانبين، أي يُذاد ويُدْفَع فلا يقرّ في جانب واحد، إلا أنّ الذبذبة فيها تكرير

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٣١٦.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ١١.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٢٨٦.

(٤) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٢٨٦، و٢/ ١٢٦، ٢٧٦، و٣/ ١١، و٤/ ٢٩٠.

ليس في الذب»[١].

وفي لفظ صرصر تكرار أيضاً قال: «صرصر: شديدة الصوت من الصرّة الصيحة، أو باردة من الصر، كأنها التي كررّ فيها البرد وكثر فهي تحرق بشدة بردها»[٢].

كما يرى أن في تأذّن معنى ليس في آذن قال: «ونظير تأذن وآذن: توعّد وأوعد، ولابد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل كأنه قيل وإذا آذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك والشبه»[٣].

٤ ـ ما ورد في القرآن من غير لغة العرب:

اختلف العلماء في هذه القضية، فرأى بعضهم أن القرآن عربي ليس فيه من غير لغة العرب، ورأى آخرون أن في القرآن بعض الألفاظ الأعجمية، وقد أشار السيوطي ـ رحمه الله ـ إلى هذا الاختلاف فقال: «قال الجمهور ليس في كتاب الله سبحانه شيء من غير لغة العرب لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[الزخرف: ٣] وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء: ١٩٥] وادعى ناس أن في القرآن ما ليس بلغة العرب حتى ذكروا لغة الروم والقبط والنبط»[٤].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «أمّا لغات العجم في القرآن فإن الناس اختلفوا فيها، فروي عن ابن عباس وعن مجاهد وابن جبير وعطاء، وعكرمة وغيرهم من أهل العلم أنهم قالوا في أحرف كثيرة إنها بلغات العجم منها طه، واليم والطور والربانيون،

---

(١) تفسير النسفي: ٩/ ٢٥٨.

(٢) قال في تفسير سورة الحاقة آية ٦ والآية: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، تفسير النسفي: ٤/ ٢٨٦.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ٢٨٦.

(٤) المزهر: ١/ ٢٦٦.

فيقال إنها بالسريانية، ومنها الصراط والقسطاس والفردوس يقال: إنها بالرومية، ومنها قوله: كمشكاة وكِفْلَيْن فيقال إنها بالحبشية وقوله هيت لك يقال إنها بالحورانية. قال: فهذا قول أهل العلم من الفقهاء، وزعم أهل العربية أن القرآن ليس فيه من كلام العجم شيء، وأنه كله بلسان عربي مبين يتأولون قوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[الزخرف: ٣] وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء: ١٩٥]»[1].

وقال الجواليقي رحمه الله: «ما ورد منه من الكلام الأعجمي في القرآن فقد اختلف فيه أهل العلم، فقال بعضهم: كتاب الله تعالى ليس فيه من غير العربية»[2].

ويأتي في مقدمة هؤلاء ـ من قال إن القرآن ليس فيه من غير العربية ـ الطبري، وقد أعلن رفضه المطلق لوجود المعرّب في القرآن فقال: «وذلك أنه غير جائز أن يتوهم على ذي فطرة صحيحة مقر بكتاب الله ممّن قد قرأ القرآن وعرف حدود الله أن يعتقد أن بعض القرآن فارسي لا عربي، وبعضه نبطي لا عربي، وبعضه رومي لا عربي، وبعضه حبشي لا عربي، بعد أن أخبر الله تعالى ذكره عنه أنه جعله قرآنا عربياً، لأن ذلك إن كان كذلك فليس قول القائل: القرآن حبشي أو فارسي، ولا نسبة من نسبه إلى بعض ألسن الأمم التي بعضه بلسان دون العرب ـ بأولى من قول القائل هو عربي، ولا قول القائل هو عربي بأولى بالصحة والصواب من قول ناسبه إلى بعض الأجناس التي ذكرنا، إذ كان الذي بلسان غير العرب من سائر ألسن أجناس الأمم فيه نظير الذي فيه من لسان العرب»[3].

ويتابع الطبري قوله فيقول: «وقد دللنا على صحة القول على أن الله جل

---

(١) المهذب: ص٦٠ ـ ٦١.

(٢) المعرّب: ص٤.

(٣) تفسير الطبري: ١/ ١٨ ـ ١٩.

ثناؤه أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من سائر ألسن أجناس الأمم، وعلى فساد قول من زعم أن منه ما ليس بلسان العرب ولغاتها»(١).

كما شدّد الشافعي ـ رحمه الله ـ رفضه وجود المعجم في القرآن فقال: «وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساك أولى به، وأقرب من السلامة له إن شاء الله، فقال منهم قائل: إن في القرآن عربياً وأعجمياً، والقرآن يدل على أنه ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب، ووجد قائل هذا القول من قِبَلَ ذلك منه تقليداً له وتركاً للمسألة له عن حجته، ومسألة غيره ممن خالفه»(٢).

وقال أبو عبيدة ـ رحمه الله ـ: «وإنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أن كذا بالنبطية فقد أكبر القول. قال: وقد يوافق اللفظُ اللفظَ ويفارقه ومعناهما واحد، وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها قال: فمن ذلك الإستبرق بالعربية وهو الغليظ من الديباج، وهو اسْتَبْره بالفارسية قال: وأهل مكة يسمّون المَسْحَ الذي جعل فيه أصحاب الطعام البُرّ البَلاس، وهو بالفارسية بَلاس فأمالوها وأعربوها فقاربت الفارسيةُ العربيةَ في اللفظ والمعنى، ثم ذكر أبو عبيدة: البالغاء(٣)، وذكر المقمجر(٤)، وذكر الدَّشت(٥)،

(١) تفسير الطبري: ١/ ٢١.

(٢) الرسالة: ١/ ٤١ ـ ٤٢.

(٣) وهي الأكارع في لغة أهل المدينة، اللسان (بلغ).

(٤) المُقَمْجِر: القوّاس فارسي معرّب، اللسان (قمجر).

(٥) وهي الصحراء أنشد أبو عبيدة للأعشى:

قد عملت فارسٌ وحمير والأ ... عراب بالدَّشْتِ أيكم نزلا

اللسان (دشت).

والخِيم(١) والسَّخْت(٢) ثم قال: وذلك كله في لغات العرب، وإن وافقه في لفظه ومعناه شيء من غير لغاتهم»(٣).

وأيّد ابن فارس ـ رحمه الله ـ موقف أبي عبيدة، ورأى أن القرآن عربي مبين ليس فيه من غير لغة العرب شيء، لأن من قال ذلك فقد قال عظيماً. قال: «وليس كل من خالف قائلاً في مقالته فقد نسبه إلى الجهل، وذلك أن الصدر الأول اختلفوا في تأويل آي من القرآن، فخالف بعضهم بعضاً، ثم خلف من بعدهم من خلف، فأخذ بعضهم بقول، وأخذ بعض بقول حسب اجتهادهم، ومادلتهم الدلالة عليه، فالقول إذاً ما قاله أبو عبيدة وإن كان قوم من الأوائل قد ذهبوا إلى غيره، فإن قال قائل: فما تأويل قول أبي عبيدة فقد أعظم وأكبر. قيل له: تأويله أنه أتى بأمر عظيم وكبير، وذلك أن القرآن لو كان فيه من غير لغة العرب شيء، لتَوَهَّمَ متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها، وفي ذلك ما فيه»(٤).

بينما رأى ابن عطية ـ رحمه الله ـ أن في القرآن من غير لغة العرب قال: «فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعرّبتها، فهي عربية بهذا الوجه، وقد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات وبرحلتي قريش، وسفر مسافرين كسفر عمر ابن الخطاب ﷺ، وكسفر عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة، وكسفر الأعشى إلى الحيرة، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة، فعلقت

---

(١) ما يبنى من الشجر والسَّعَفِ يستظل به الرجل إذا أورد إبله الماء، اللسان (خيم).

(٢) السخت: أول ما يخرج من بطن ذي الخف ساعة تضعه أمه قبل أن يأكل اللسان (سخت).

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة: ١/ ١٧ ـ ١٨.

(٤) الصاحبي: ص٦١ ـ ٦٢.

العرب بهذا كله ألفاظاً أعجمية غيّرت بعضها بالنقص من حروفها، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الصحيح، ووقع بها البيان وعلى هذا الحد نزل بها القرآن، فإن جهلها عربي ما فكجهله الصريح بما في لغة غيره، كما لم يعرف ابن عباس ﷺ معنى فاطر إلى غير ذلك»[١] ويتابع ابن عطية قوله فيقول: «وما ذهب إليه الطبري ـ رحمه الله ـ من أن اللغتين اتفقتا في لفظة لفظة فذلك بعيد، بل إحداهما أصل والأخرى فرع في الأكثر[٢]. . . إلى أن يقول: «فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعرّبتها، فهي عربية بهذا الوجه»[٣] وهو ما ذهب إليه الزمخشري في تفسيره، فرأى أن ما في القرآن من ألفاظ أعجمية فهي وإن كانت أعجمية في أصلها إلا أنها عُرّبت، قال الزمخشري: «الإستبرق ما غلظ من الديباج، وهو تعريب استبر، وقد ساغ أن يقع في القرآن العربي المبين، لأنه إذا عُرّب خرج عن أن يكون أعجمياً، لأن معنى التعريب أن يجعل عربياً بالتصرف فيه، وتغييره عن منهاجه، وإجرائه على أوجه الإعراب»[٤].

وهو ما ذهب إليه النسفي وصرّح به في تفسيره، في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[الدخان: ٥٢ ـ ٥٣] فقال: «ما غلظ منه، وهو تعريب استبر، واللفظ إذا عُرِّب خرج من أن يكون أعجمياً، لأن معنى التعريب أن يجعل عربياً بالتصرف فيه، وتغييره عن منهاجه، وإجرائه على أوجه

(١) مقدمتان في علوم القرآن: ص٢٧٧.

(٢) مقدمتان في علوم القرآن: ص٢٧٨.

(٣) مقدمة ابن عطية في التفسير: ص٢٧٨.

(٤) الكشاف: ٣/ ٤٣٥.

الإعراب، فساغ أن يقع في القرآن العربي»[١].

واتخذ أبو عبيد القاسم بن سلام موقفاً وسطاً بين هذين الرأيين، وألف بينهما فقال: «والصواب عندي مذهبٌ فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك لأن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، ولكنها وقعت للعرب فعرّبتها بألسنتها وحوّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال إنها أعجمية فصادق»[٢].

٥ ـ ترجمة القرآن وقراءة القرآن بغير العربية:

ترجمة القرآن والقول فيها من المسائل الشائكة التي تعرض لها الكثير من الفقهاء والعلماء، والحقيقة التي وصل إليها هؤلاء جميعاً هي عدم جواز ترجمة القرآن إلى لغة أخرى، فللعربية خصائصها ومميزاتها التعبيرية التي لا يستطيع المترجمون نقلها إلى لغة أخرى، واشترطوا في ترجمة القرآن ـ إن جازت ـ أن تكون نقلاً تاماً لمعاني القرآن الكريم دون زيادة أو نقصان وبالطبع فهذه المسألة ـ إن لم نقل مستحيلة ـ صعبة شاقة، وقد علّل ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ هذا بقوله: «وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل، والقلب والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار، والتعريض والإفصاح، والكناية والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، وبكل هذه المذاهب نزل القرآن، ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة، كما نقل الإنجيل عن السريانية

(١) تفسير النسفي: ٤/ ١٣٢.

(٢) المهذب: ص٦٥، والمعرّب: ص٤ ـ ٥، والصاحبي: ص٦٠ ـ ٦١.

إلى الحبشيـة والرومية، وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله تعالى بالعربية، لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب، ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قول الله تعـالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ لم تستـطع أن تأتي بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذي أودعته حتى تبسط مجموعها، وتصل مقطوعها، وتظهر مستـورها، فتقول: إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد فخفت منهم خيانة ونقضـاً، فأعلمهم أنك قد نقضـت ما شرطت لهم، وآذنهم بالحرب لتكونوا أنتم وهم في العلم بالنقض على استواء»[١].

وهو ما ذهب إليه ابن فارس أيضاً في كتابه الصاحبي فقال: «وقد قال بعض علمائنا حين ذكر ما للعرب من الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير وغيرها من سنن العرب في القرآن فقال: ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبـور وسـائر كتب الله ﷻ بالعربيـة، لأن العجـم لم تتسـع في المجـاز اتساع العرب»[٢].

ثم جاء الزمخشري وأكد هذا في تفسيره فقال في أثناء حديثه عن عدم جواز ترجمة القرآن: «وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كَلاَ إجازة، لأن في كلام العرب خصوصـاً في القرآن الذي هو معجز بفصاحتـه وغرابة نظمه، أساليبَ من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها»[٣].

بينما رأى الشاطبي أنه يجوز ترجمـة المعاني الأصليـة للقرآن، أما المعاني

(١) تأويل مشكل القرآن: ص٢٠ ـ ٢١.

(٢) الصاحبي: ص٤١ ـ ٤٢.

(٣) الكشاف: ٣/ ٤٣٤.

الثانوية فلا يجوز تفسيرها، قال: «اللغة العربية من حيث هي ألفاظ دالة على معان، نظران: أحدهما: من جهة كونها ألفاظ وعبارات مطلقة دالة على معان مطلقة، وهي الدلالة الأصلية، والثاني من جهة كونها ألفاظاً وعبارات مقيدة دالة على معان خادمة وهي الدلالة التابعة، فالجهة الأولى هي التي يشترك فيها جميع الألسنة، وإليها تنتهي مقاصد المتكلمين، ولا تختص بأمة دون أخرى، فإنه إذا حصل في الوجود فعل لزيد مثلاً كالقيام ثم أراد كل صاحب لسان الإخبار عن زيد بالقيام، تأتّى له ما أراد من غير كلفة، ومن هذه الجهة يمكن في لسان العرب الإخبار عن أقوال الأولين ممن ليسوا من أهل اللغة العربية، وحكاية كلامهم ويتأتى في لسان العجم حكاية أقوال العرب، والإخبار عنها وهذا لا إشكال فيه، وأما الجهة الثانية فهي التي يختص بها لسان العرب في تلك الحكاية، وذلك الإخبار فإن كل خبر يقتضي في هذه الجهة أموراً خادمة لذلك الإخبار بحسب المُخْبِر والمُخْبَرِ عنه والمُخْبَرِ به، ونفس الأخبار في الحال والمساق، ونوع الأسلوب من الإيضاح والإخفاء، والإيجاز والإطناب وغير ذلك»[1].

ويتابع قوله: «وإذا ثبت هذا فلا يمكن مَنِ اعتبر هذا الوجه الأخير أن يترجم كلاماً من الكلام العربي، بكلام العجم على حال فضلاً عن أن يُتَرْجَم القرآن، ويُنْقَل إلى لسان غير عربي إلا مع فرض استواء اللسانين في اعتبارين عيناً، كما إذا استوى اللسانان في استعمال ما تقدم تمثيله ونحوه، فإذا ثبت ذلك في اللسان المنقول إليه مع لسان العرب، أمكن أن يترجم أحدهما إلى الآخر، وإثبات مثل هذا - بوجهٍ بيّنٍ - عسيرٌ جداً، وربما أشار إلى شيء من ذلك أهل المنطق من القدماء، ومن حذا حذوهم من المتأخرين ولكنه غير كاف، ولا مغن في هذا المقام، وقد نفى ابن قتيبة إمكان الترجمة في القرآن يعني على هذا الوجه الثاني، فأما على الوجه الأول فهو

---

(١) الموافقات: ٢/ ٤٤.

ممكن، ومن جهته مع تفسير القرآن وبيان معناه للعامة، ومن ليس له فهم يقوى على تحصيل معانيه، وكان ذلك جائزاً باتفاق أهل الإسلام، فصار هذا الاتفاق حجة على صحة الترجمة على المعنى الأصلي»[1].

وقد أجاز الإمام الزرقاني ـ رحمه الله ـ في العصر الحديث ترجمة تفسير القرآن، لنقل معانيه الأساسية إلى كل لسان قال: «وإذا كان تفسير[2] القرآن بياناً لمراد الله بقدر الطاقة البشرية، فهذا البيان يستوي فيه ما كان بلغة العرب، وما ليس بلغة العرب لأن كلاً منهما مقدور للبشر، وكلاً منها يحتاجه البشر، بَيْد أنه لا بد من أمرين: أن يستوفي هذا النوع شروط التفسير باعتبار أنه تفسير، وأن يستوفي شروط الترجمة باعتبار أنه نقل لما يمكن من معاني اللفظ العربي بلغة غير العربية»[3] واشتُرِطَ لهذا العمل أن يُصَدَّر هذا التفسير المترجم بمقدمة تنفي عنه في صراحة أنه ترجمة للقرآن نفسه، وتبين أن ترجمة القرآن نفسه بالمعنى المتعارف عليه أمر دونه خرط القتاد، لأن طبيعة تأليف هذا الكتاب تأبى أن يكون له نظير يحاكيه، لا من لغته ولا من غير لغته[4].

بينما ذهب الدكتور القطان في حديثه عن ترجمة القرآن، إلى أن ترجمة معاني القرآن الأصلية لا تخلو من فساد، ولذا فقد رأى أن ما قاله الشاطبي من جواز

---

(١) الموافقات: ٢/ ٤٥ ـ ٤٦، وهو ما ذهب إليه الدكتور محمد الخضر حسين أيضاً، انظر: بلاغة القرآن: ص١٢ ـ ١٤.

(٢) ويعني تفسير القرآن ترجمته إلى لغة أجنبية (ترجمة معانيه) انظر: مناهل العرفان: ٢/ ٢٩ ـ انظر حديثه عن ترجمة القرآن مناهل العرفان: ٢/ ٢٧ ـ ٦٩.

(٣) مناهل العرفان: ٢/ ٢٩.

(٤) انظر: مناهل العرفان: ٢/ ٣٢.

ترجمة القرآن بمعانيه الأصلية، تنحصر بمقدار الضرورة في إبلاغ الدعوة بالتوحيد وأركان العبادات، على حين يؤمر من أراد الزيادة بتعلم العربية[١].

أما النسفي فقد رأى جواز ترجمة القرآن، وقد أشار إلى هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . . .﴾[الشعراء: ١٩٦ ـ ١٩٧] قال: «وفيه دليل على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية»[٢]. وهو كل ما رأيناه له في تفسيره وفي كتبه المطبوعة والمخطوطة التي اطلعنا عليها في هذا السبيل.

قراءة القرآن بغير العربية:

وكما اختلف في ترجمة القرآن، اختلف في جواز قراءته بغير العربية، فأجاز أبو حنيفة[٣] وأتباعه القراءة بالفارسية، وقيّد صاحباه أبو يوسف[٤] ومحمد بن الحسن[٥] قراءة القرآن بالفارسية للعاجز فقط دون القادر، جاء في معراج الدراية:

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن: ص٣١٥.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ١٩٦ ما ورد غير ما ذكرت في تفسيره وفي هذا المكان فقط.

(٣) ويروى رجوعه عن هذا الرأي، وروى رجوعه هذا عبد العزيز البخاري في شرح البزدوي، والذين لم يطلعوا على الرجوع من أصحابه قالوا: أراد به عند الضرورة والعجز عن القرآن فإن لم يكن كذلك امتنع، وحكم بزندقة فاعله، وقد صح رجوعه عن هذا القول، انظر: البرهان: ١/ ٢٨٨، وبلاغة القرآن: ص١٥.

(٤) وهو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد، كان صاحب حديث، حافظاً، لزم أبا حنيفة وغلب عليه الرأي، كان أول من وضع الكتب على مذهب أبي حنيفة، وأملى المسائل، ونشرها وبث علم أبي حنيفة (ت١٨٣هـ)، انظر ترجمته في: الفوائد البهية: ص٢٢٥، وتاج التراجم: ص٨١.

(٥) محمد بن الحسن بن واقد، أبو عبدالله الشيباني، أصله من الشام، نشأ بالكوفة، وصحب أبا حنيفة، وأخذ عنه الفقه، وعن أبي عبيد: «ما رأيت أعلم بكتاب الله من محمد بن =

«إنما جوزنا القراءة بترجمة القرآن للعاجز، إذا لم يخلّ بالمعنى لأنه قرآن من وجه باعتبار اشتماله على المعنى، فالإتيان به أولى من الترك مطلقاً، إذ التكليف بحسب الوسع»[١].

وقد أشار الزمخشري إلى قول أبي حنيفة، ورأى أن أبا حنيفة لم يكن يُحْسِنُ الفارسية حتى أجاز القراءة بها، قال الزمخشري: «ومنه أجاز أبو حنيفة رحمه الله القراءة بالفارسية على شريطة، وهي أن يؤدي القارئ المعاني على كمالها من غير أن يخرم منها شيئاً، وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية فلم يكن ذلك منه على تحقق وتبصّر، وروى علي بن الجعد عن أبي يوسف عن أبي حنيفة مثل قول صاحبيه في إنكار القراءة بالفارسية»[٢].

إلا أنه أجاز إبدال كلمة مكان كلمة إذا كانت مؤدية معناها، وقد أشار إلى هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾[الدخان: ٤٣ ـ ٤٤] فقال: «وهو الفاجر، وعن أبي الدرداء أنه كان يقرئ رجلاً فكان يقول: طعام اليتيم فقال: قلْ طعام الفجر يا هذا، وبهذا يُستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها»[٣].

وقد ذكر النسفي جواز قراءة القرآن بالفارسية ـ وإن لم يقطع برأي حاسم في هذا الموضوع ـ في مواضع كثيرة من تفسيره. كان أولها في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الشعراء: ١٩٦] قال: «وفيه دليل على أن القرآن قرآن

= الحسن». انظر ترجمته في: الفوائد البهية: ص١٦٣.

(١) القول منقول عن بلاغة القرآن: ص١٤ ـ ١٥، انظر أيضاً: نكت الانتصار: ص٣٣٧.

(٢) الكشاف: ٣/ ٤٣٤.

(٣) الكشاف: ٣/ ٤٣٤.

إذا ترجم بغير العربية، فيكون دليلاً على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة»[١].

وكرّر ذلك مرة أخرى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤] قال: «وفيه إشارة إلى أنه لو أنزله بلسان العجم لكان قرآناً، فيكون دليلاً لأبي حنيفة ـ رحمه الله ـ في جواز الصلاة إذا قرأ بالفارسية[٢] إلاّ أنه ذكر ما قاله الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ قال في نهايته: «ويُروى رجوعه (رجوع أبي حنيفة) إلى قولهما وعليه الاعتماد»[٣].

ثم عاد في نهاية تفسيره، واستدل بالآية على صحة قراءة القرآن بالفارسية، فقال في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨ ـ ١٩] قال: «هذا إشارة إلى قوله قد أفلح إلى أبقى، أي: أن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف، أو إلى ما في السورة كلها، وهو دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة؛ لأنه جعله مذكوراً في تلك الصحف، مع أنه لم يكن فيها بهذا النظم وبهذه اللغة»[٤].

أما غير الأحناف فقد رفضوا ترجمة القرآن سواء كان المصلي عاجزاً أم قادراً، وقد أشار ابن العربي إلى هذا في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ قال: «قال علماؤنا: وهذا يبطل قول أبي حنيفة في

(١) تفسير النسفي: ٣/ ١٩٦.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٩٧.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ١٣١.

(٤) تفسير النسفي: ٤/ ٣٥٠.

قوله: إن ترجمة القرآن بإبدال اللغة العربية فيه بالفارسية جائز، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ﴾ كذا لنفي أن يكون للعجمة إليه طريق، فكيف يصرف إلى ما نهى الله عنه، فأخبر أنه لم ينزل به، وقد بيناه في مسائل الخلاف، وأوضحنا أن التبيان والإعجاز إنما يكون بلغة العرب، فلو قلب إلى غير هذا لما كان قرآناً ولا بياناً، ولا اقتضى إعجازاً»(١).

كما رفض أبو بكر الباقلاني قراءة القرآن بغير العربية فقال: «جميع ما تقدم في الباب الذي قبل هذا دليل على منع قراءة القرآن بالفارسية وقد أوضحنا أن القرآن سنة متبعة، وأن ذلك مذهب الخلف والسلف من الأمة، وأنه لا يجوز بدل اللفظة منه بما هو في معناها من العربية بالفارسية، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن حدث خلاف بين أصحاب أبي حنيفة فبعضهم ينكره على أبي حنيفة، وبعضهم يثبته، وذكر قوم أنه سئل عن القراءة بالفارسية فقال: إن كان يسمّى قرآناً أبين ولم يبين ما ذهب هو إليه، وقيل إنه لمّا أجاز ذلك في مواضع معروفة نحو ما ذكرنا من طعام الأثيم، وقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن لا يجوز الصلاة إذا قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية، فإن كان لا يفصح بها أجزناه»(٢).

كما عرض رأي الكرخي أيضاً، والذي يفهم منه رفض الكرخي لقراءة القرآن بالفارسية فقال: «إن المحفوظ عن أبي حنيفة أنه قال: من قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية أجزأه، وأنه قارئ قرآن، ولم يحكِ عنه هذا إلا الكرخي، وهو مخالف لما حكي عنه» وقال الكرخي: «وهي مسألة تكلم عليها أبو حنيفة وهي غير موجودة في كتاب الله تعالى، ولا في سنة رسول الله ﷺ، ولا في إجماع الأمة،

---

(١) أحكام القرآن: ٤/ ١٦٦٥.

(٢) نكت الانتصار: ص٣٣٧ باب القول في إبطال جواز القراءة بالفارسية.

وهي من الحوادث التي الكلام عليها كالكلام على سائر الحوادث»[١].

وقال ابن فارس في حديثه عن هذه الناحية: «وإذا كان كذا فلا وجه لقول من يجيز قراءة القرآن بالفارسية، لأن الفارسية ترجمة غير معجزة وإنما أمر الله ـ جل ثناؤه ـ بقراءة القرآن العربي المعجز، ولو جازت القراءة بالترجمة الفارسية، لكانت كتب التفسير والمصنفات في معاني القرآن باللفظ العربي أولى بجواز الصلاة بها، وهذا لا يقوله أحد»[٢].

وهو ما ذهب اليه أيضاً الحافظ ابن حجر[٣] وابن تيمية[٤] وغيرهم من فقهاء الشافعية والحنابلة والمالكية.

٦ ـ الرسم القرآني:

وكما اختلف في ما ورد في القرآن من غير لغة العرب، اختلف في قضية الرسم القرآني، وتوزعت آراء العلماء في هذه القضية على ثلاثة مذاهب:

١ ـ فمنهم من قال: إن رسم القرآن توقيفي لا تجوز مخالفته، واستدل هؤلاء على رأيهم هذا بما رووه عن النبي ﷺ أنه قال لمعاوية أحد كتبة الوحي: «ألق الدواة، وحّرف القلم، وانصب الباء، وفرّق السين، ولا تعوّر الميم، وحسّن الله، ومدّ الرحمن، وجوّد الرحيم، وضعْ قلمك على أذنك اليسرى فإنه أذكر لك»[٥].

وقد تحمّس لهذا الرأي ابن المبارك فقد ذكر في كتابه الإبريز عن شيخه

---

(١) نكت الانتصار: ص٣٤٠.

(٢) الصاحبي: ص٦٢.

(٣) انظر: مباحث في علوم القرآن: ص٣١٩، وبلاغة القرآن: ص١٥.

(٤) انظر: مباحث في علوم القرآن: ص٣١٩، وبلاغة القرآن: ص١٥.

(٥) مناهل العرفان: ١/ ٣٧٠، ومباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح: ص٢٧٦.

عبد العزيز الدباغ أنه قال: ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة، وإنما هو توقيف من النبي ﷺ، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها لأسرار لا تهتدي إليها العقول، وهو سر من الأسرار التي خصَّ الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية، وكما أن القرآن معجز فرسمه معجز»[1].

وهو ما ذهب إليه ابن فارس فقال: «والذي نقول فيه: إن الخط توقيف، وذلك لظاهر قوله ﷻ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وقال جل ثناؤه: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وإذا كان ذلك كذا فليس ببعيد أن يُوقِّفَ آدم عليه السلام أو غيره من الأنبياء عليهم السلام على الكتاب، فأما أن يكون مخترع اخترعه من تلقاء نفسه، فشيء لا تعلم صحته إلا من خبر صحيح»[2].

٢ ـ وذهب آخرون إلى أن الرسم القرآني لم يكن توقيفاً عن النبي ﷺ ولكنه اصطلاح ارتضاه عثمان رضي الله عنه وتلقته الأمة بالقبول فيجب التزامه ولا يجوز مخالفته، وقد أيد هؤلاء رأيهم بما نقل عن أشهب أنه قال: «سئل مالك: هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال: لا إلا على الكِتْبَةِ الأولى»[3] وقال أبو عمر الداني: «ولا مخالف له من علماء الأمة»[4].

وقال في موضع آخر: سئل مالك عن الحروف في القرآن مثل الواو والألف أن تغير من المصحف إذا وجدا فيه كذلك؟ قال: لا. قال أبو عمرو: يعني الواو

---

(١) الإبريز، لابن المبارك: ص٥٢، انظر: تتمة حديثه: ص٥٣.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة: ص٣٤ ـ ٣٥، انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان: ص١٤٩.

(٣) المقنع في مرسوم مصاحف أهل الأمصار: ص٩.

(٤) المقنع: ص٩.

والألف المزيدتين في الرسم، المعدومتين في اللفظ نحو «أولوا»[١].

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «تَحْرُمُ مخالفة خط المصحف، مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك»[٢] وهو ما أعلنه ابن دُرُسْتُوَيْه أيضاً فقال: «خطَّان لا يقاسان، خط المصحف لأنه سنة، وخط العروض لأنه يثبت فيه ما أثبته اللفظ، ويسقط عنه ما أسقطه»[٣].

وقال الزمخشري ـ رحمه الله ـ: «وقد اتفقت في خط المصحف أشياء خارجة عن القياسات التي بني عليها علم الخط والهجاء، ثم ما عاد ذلك بضير ولا نقصان لاستقامة اللفظ وبقاء الحفظ، وكان اتباع خط المصحف سنة لا تخالف»[٤] وقد أكد هذا في أكثر من موضع من تفسيره[٥].

وقال الفراء: «اتباع خط المصحف إذا وجدْتُ له وجهاً من كلام العرب، وقراءة القراء أحبّ إلي من خلافه»[٦].

وقد دعا الإمام الزرقاني ـ رحمه الله ـ إلى ضرورة الحفاظ على الرسم القرآني؛ لأن إخضاع المصحف لمصطلحات الخط الحديثة ربما يجر إلى فتنة أشبه بالفتنة التي حدثت أيام عثمان ﷺ، وحملته على أن يجمع القرآن فربما يقول بعض الناس لبعض، أو بعض الشعوب لبعض عند اختلاف قواعدهم في رسم المصحف:

---

(١) البرهان: ١/ ٣٧٩.

(٢) البرهان: ١/ ٣٧٩.

(٣) الكشاف: ١/ ١٦، والبرهان: ١/ ٣٧٦.

(٤) الكشاف: ١/ ١٥.

(٥) انظر: الكشاف: ١/ ٢٣٢ أيضاً.

(٦) الصاحبي: ص٣٩.

رسمي خير من رسمك، أو مصحفي خير من مصحفك، أو رسمي صواب ورسمك خطأ، وقد يجر ذلك إلى أن يؤثِّم بعضهم بعضاً، أو يقاتل بعضهم بعضاً، ومن المقرر أن درء المفاسد قُدِّم على جلب المنافع»[١].

٣ ـ وذهب آخرون إلى أن خط المصحف اصطلاحي، ولا مانع من مخالفته إذا اصطلح الناس على رسم خاص للإملاء، وأصبح شائعاً بينهم، وهو ما ذهب إليه القاضي أبو بكر الباقلاني فقال: «وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة منها شيئاً. إذ لم يأخذ على كُتَّاب القرآن وخطاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره، أوجبه عليهم وترك ما عداه، إذ وجوب ذلك لا يُدْرَك إلاّ بالسمع والتوقيف، وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحدٍّ محدود لا يجوز تجاوزه، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه القياسات الشرعية، بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل، لأن رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه، ولم يبيّن لهم وجهاً معيناً ولا نهى أحداً عن كتابته، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف.

فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح، وأن الناس لا يخفى عليهم الحال، ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول، وأن يجعل الكلام على صورة الكاف، وأن تعوج الألفات، وأن يكتب على غير هذه الوجوه، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة، وجاز أن يكتب بين ذلك، وإذا كانت خطوط المصحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة، وكان الناس قد أجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته، وما هو

(١) مناهل العرفان: ١/ ٣٩١، انظر: مباحث في علوم القرآن: (مناع القطان) ص١٤٩.

أسهل وأشهر وأولى، من غير تأثيم ولا تناكر، عُلِمَ أنه لم يُؤْخذ في ذلك على الناس حدٌّ محدود مخصوص، كما أُخِذَ عليهم في القراءة، والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز، فكل رسم دالّ على الكلمة، مقيّد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أية صورة كانت، وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه، وأنّى له ذلك»[(١)].

وقال ابن خلدون في مقدمته: «وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها، ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركاً[(٢)] ويتبع رسمه خطأً أو صواباً، وأين نسبة ذلك من الصحابة فيها كتبوه فاتُّبع ذلك وأُثْبِتَ رسماً، ونبّه العلماء بالرسم على مواضعه، ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط، وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم، ليس كما يتخيل بل لكلها وجه، يقولون في مثل زيادة الألف في ﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ أنه تنبيه على أن الذبح لم يقع، وفي زيادة الياء في ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادة الخط، وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته، وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة

---

(١) أورده ابن المبارك في كتابه الإبريز: ص٥٢.

(٢) بما رسمه أصحاب الرسول ﷺ وخير الخلق من بعده، المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه، كما يُقْتَفى لهذا العهد خطُّ وليٍّ أو عالم تبركاً.

من رسمه، وذلك ليس بصحيح»[١].

وقد وافق الدكتور صبحي الصالح ـ رحمه الله ـ الباقلاني وقال: «إن رأي القاضي أبي بكر هذا لجدير أن يؤخذ به، وحجته ظاهرة، ونظره بعيد، فهو لم يخلط بين عاطفة الإجلال للسلف، وبين التماس البرهان على قضية دينية تتعلق برسم كتاب الله، أما الذين ذهبوا إلى أن الرسم القرآني توقيفي أزلي فقد احتكموا في ذلك إلى عواطفهم، واستسلموا استسلاماً شعرياً صوفياً إلى مذاويقهم ومواجيدهم، والأذواق نسبية لادخل لها في الدين، ولا يستنبط منها حقيقة شرعية»[٢].

والناظر في تفسير النسفي يرى أنه تابَعَ الزمخشري في رأيه، ورأى أن كتابة القرآن سنة لا تغير، وقد أشار إلى هذا المعنى في أماكن من تفسيره، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾[آل عمران: ١٧٨]: «ما مصدرية من حقها في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة، ولكنها وقعت في الإمام متصلة فلا يخالف»[٣].

وقال في موضع آخر في أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[الفرقان: ٧] قال: «وقعت اللام في المصحف مفصولة عن الهاء، وخط المصحف سنة لا تُغيّر»[٤].

ويتعرض لهذا الأمر مرة ثالثة في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾[الأعراف: ٣٧] فقال: «في خط المصحف موصولة بأين، وحقها أن تكتب

(١) مقدمة: ابن خلدون: ص٤١٩.

(٢) مباحث في علوم القرآن: ص٢٧٩.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٩٦، والمقصود بالأمام: مصحف عثمان ﷺ الذي نقلت عنه بقية المصاحف.

(٤) تفسير النسفي: ٣/ ١٥٩.

مفصولة لأنها موصولة»[١] وهذا كل ما ذكره النسفي عن هذه القضية في تفسيره.

ب ـ النحو والصرف:

وأول ما يلفت انتباهنا في هذا الميدان أن مذهب النسفي النحوي، وعنايته الكبيرة بإعراب الكثير من ألفاظ الآيات وصرفها كما فعل قبله الزمخشري والبغوي (ت٥١٦هـ) والبيضاوي، وهم في هـذا يختلفون تمامـاً عن الطبري وابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) والقرطبي(ت٦٧١هـ) الذين قلت عنايتهم بهذا الأمر في تفاسيرهم.

١ ـ مذهبه البصري:

والملاحظ من خلال تفسير النسفي أنه تابع مذهب البصريين اللغوي، ويبدو هذا واضحـاً في إكثاره من ذكر سيبويه[٢] والأخفش[٣] والخليل[٤] إذ ترددت هذه الأسماء في تفسيره بشكل ظاهر، فأخذ عنهم تفسير بعض الألفاظ، أو إعراب كلمة ما، أو تصريف أخرى.

كما يبدو تأييده لهذا المذهب[٥] أيضاً من خلال معالجته للقضـايا النحويـة والصرفية، فقد اختار في الكثير منها مبدأ البصريين وأورده منفـرداً مستقـلاً، ممّا يشير إلى اعتماده مذهبهم، وقوله بقـولهم، وهذا ما بدا مثلاً في حديثـه عن لفظ

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٥٢.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢١، ٢٩، ٣٦، ١٤١، ٢١٧، و٢/ ٥، ١٠، ٦٤، و٣/ ٤٢، ٢٢٩، و٤/ ٣٣، ١٣٣، ١٤٣، ٢٠١.

(٣) تفسير النسفي: ٢/ ٥، ١٠، ٢/ ١٦٢، و٣/ ٥٠، و٤/ ٧، ٢٠، ٣٣، ٩٧، ١٣٣، ١٥، ٢٧١، ٢٩٦، ٣٥٣، ٣٥٤.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٣٠٥، و٣/ ٤٢، ٦٦، ٧٤، ١٩٤، و٤/ ٣٣، ٥٦، ١١٢، ٢٥، ٢٩٤، ٣٦٠.

(٥) مذهبه البصري في تفسيره: ١/ ٧٦، ٧٨، ١٠٨، و٤/ ١٣٣، ٢٥٣.

اسم في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في بداية تفسيره، فقد رأى أن هذا اللفظ من الأسماء المحذوفة الأعجاز، مشتق من السمو قال: «والاسم من الأسماء التي بنوا أوائلها على السكون كالابن والابنة وغيرها، فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همـزة تفادياً عن الابتداء بالساكن تعذراً، وإذا وقعت في الدرْج لم يفتقر إلى زيادة شيء، ومنهم من لم يزدْها واستغنى عنها بتحريك الساكن فقال: سِمٌ وسُمٌ وهـو من الأسماء المحذوفة الأعجاز كـ «يد» ودم، وأصله سَمَوَ بدليل تصريفه كأسماء وسُمَيَ وسميت، واشتقاقه من السُّمو وهو الرفعة، لأن التسمية تنويه بالمسمى، وإشادة بذكره»[١] وهذا القول من قول[٢] البصريين، بينما ذهب الكوفيون إلى أن الاسم مشتق من الوَسْمِ وهو العلامة، لأن الاسم وَسْمٌ على المسمّى وعلامة له يعرف به.

وهو المذهب الذي مال إليه أيضاً في حديثه عن مسألة إنسان، إذ جعل أصل ناس: أناس فقال: «وأصل ناس: أناس، حذفت همزته تخفيفاً، وحذفها كاللازم مع لام التعريف لا يكاد يقال الأناس، ويشهد لأصله إنسان وأناسي وإنس وسموا به لظهورهم وأنهم يؤنسون؛ أي: يبصرون، كما سُمّي الجنّ جناً لاجتنانهم، ووزن ناس فعال، لأن الزنة على الأصول»[٣] وهو ما قاله البصريون في هذه المسألة.

وذهب الكوفيون إلى أن أصل إنسان من النسيان فقالوا: وأصله إنسيان على إفعلان من النسيان، وحُذِفَت منه الياء لكثرته في استعمالهم، والذي يدل على أن إنسان مأخوذ من النسيان أنهم قالوا في تصغيره أُنَيْسِيَان فردّوا الياء في حال التصغير[٤].

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٤.

(٢) الإنصاف في مسائل الخلاف: ١/ ٦ وما بعدها.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٨.

(٤) الإنصاف في مسائل الخلاف: ٢/ ٨٠٩ ـ ٨١٤.

وفي مسألة (اللّهم) من قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران: ٢٦] يأخذ ما قاله البصريون فيقول: «الميم عوض من يا، ولا يجتمعان، وهذا بعض خصائص هذا الاسم، كما اختص بالتاء في القسم، وبدخول حرف النداء عليه، وفيه لام التعريف، وبقطع همزته في الله، وبالتفخيم»[١] بينما ذهب الكوفيون إلى أن الميم ليست عوضاً من «يا» التي للتنبيه في النداء[٢].

وكذا ما اختاره في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ﴾[البقرة: ١٣٢] فقال: «على إضمار القول»[٣] وهو اختيار البصريين[٤] ويزداد هذا الأمر وضوحاً إذا لا حظنا تأييده لمذهب سيبويه، والتمثيل على صحة قوله بما قالته حذام، وهذا ما نجده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[البقرة: ١٣٨] إذ يقول: «صبغة تمييز، أي: لا صبغة أحسن من صبغته، يريد الدين والتطهير ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ عطفاً على آمنا بالله، وهذا العطف يدل على أن صبغة الله داخل في مفعول قولوا آمنا؛ أي: قولوا هذا وهذا، ونحن له عابدون، ويردّ قول من زعم أن صبغة الله بدل من ملة إبراهيم، أو نصب على الإغراء، بمعنى عليكم صبغة الله لما فيه من فكّ النظم وإخراج الكلام عن التئامه، وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيبويه[٥] والقول

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٥١.

(٢) انظر: الخلاف بين البصريين والكوفيين في الإنصاف في مسائل الخلاف: ١/ ٣٤١ ـ ٣٤٧.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٧٦.

(٤) الكشاف: ١/ ٩٥.

(٥) وتمام البيت:

إذا قالت حذام فصدّقوها ... فإنّ القولَ ما قالت حذام =

ما قالت حذام»[١].

وهو مع تأييده لمذهب البصريين بشكل عام، ينصر مذهب سيبويه منهم بشكل خاص ويفضله على غيره، وهذا ما بدا واضحاً في حديثه عن قول الله تعالى السابق: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ ومن تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام: ١٢].

قال: «الذين خسروا أنفسهم نُصِبَ على الذم؛ أي: أريد الذين خسروا أنفسهم باختيارهم الكفر، وقال الأخفش: «الذين» بدل من «كم» في ليجمعنكم؛ أي: ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم، والوجه هو الأول لأن سيبيويه قال: لا يجوز مررت بي المسكين ولا بك المسكين، فتجعل المسكين بدلا من الباء أو الكاف لأنهما في غاية الوضوح فلا يحتاجان إلى البدل والتفسير»[٢].

وهو ما فعله أيضاً في حسمه الخلاف في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الجاثية: ٣ ـ ٥] قال: «وهذا من العطف على عامِلَيْنِ سواء نصبتَ أو رفعتَ، فالعاملان إذا نصبت «إن» و«في»، أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر في «واختلاف»، والنصب في «آيات»، وإذا رفعت فالعاملان الابتداء و«في»، عملت الواو الرفعَ في «آيات»، والجرَّ في «واختلاف»، هذا مذهب الأخفش لأنه يجوِّز العطفَ على

= وهو لدَيْسَم بن طارق أحد شعراء الجاهلية، جرى مجرى المثل وصار يضرب مثلاً لكلّ من يعتدّ بكلامه، ويُتَمَسَّك بمقاله، ولا يلتفت إلى ما يقوله غيره، وكأن النسفي يريد أن سيبويه هو الرجل الذي يعتد بقوله ويعتبر نقله، شرح ابن عقيل: ١/ ١٠٥.

(١) تفسير النسفي: ١/ ٧٨.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٥.

عاملين، وأما سيبويه فإنه لا يجيزه، وتخريج الآية عنده بأن يكون كل إضمار «في»، والذي حسنه: تقديم ذكر «في» في الآيتين قبل هذه الآية ويؤيده قراءة ابن مسعود ﷺ ﴿وفي اختلاف الليل والنهار﴾»[١].

٢ ـ الإعراب والصرف:

والنسفي يعنى عناية كبيرة بالإعراب، كما فعل قبله الزمخشري والبيضاوي، فقد أدرك هؤلاء قيمة الإعراب وأهميته في تقريب معنى الآية وتوضيحها، فأعربوا الكثير من ألفاظ القرآن إيمانا منهم أن إعراب هذه الألفاظ خدمة للتفسير، وهو ما فعله النسفي في تفسيره فأعرب وبدت عنايته[٢] بهذا الأمر جلية لقارئ تفسيره، قال مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] «منهزمين ولا يضروكم بقتل أو أسر، ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم، وفيه تثبيت لمن أسلم منهم لأنهم كانوا يؤذونهم بتوبيخهم وتهديدهم، وهو ابتداء إخبار معطوف على جملة الشرط والجزاء، وليس بمعطوف على يولوكم، إذ لو كان معطوفاً عليه لقيل ثم لا ينصروا، وإنما استؤنف ليؤذن أن الله لا ينصرهم قاتلوا أم لم يقاتلوا، وتقدير الكلام: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون، وثم للتراخي في المرتبة، لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار»[٣].

وتبدو عنايته بالمعنى في إعرابه أكثر وضوحاً في حديثه عن قوله تعالى:

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ١٣٣.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٤، ٢٠، ٢٨، ٣٦، ٥٩، ٦٤، ٧٧، و٢/ ٨٦، ١٠٠، ١٠٤، ١٠٧، ١١٥، و٣/ ١١، ١٣، ٤٢، و٤/ ١٣٣، ١٣٦، ١٤١،...

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٧٥ ـ ١٧٦.

﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾[النساء: ١٧١] إذ يقول: «ولا تقولوا ثلاثة خبر مبتدأ محذوف، أي لا تقولوا الآلهة ثلاثة، انتهوا عن التثليث ﴿خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ والذي يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، وأن المسيح ابن الله من مريم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾[المائدة: ١١٦] وقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: ٣٠] فهو يراعي المعنى عندما يعرض الحكم الإعرابي للآية كما رأينا.

وهو ما رفضه الإمام عبد القاهر الجرجاني ـ رحمه الله ـ، فقد رأى أن الصحيح في هذه الآية أن تكون ثلاثة صفة مبتدأ، ويكون التقدير: ولا تقولوا لنا آلهة ثلاثة، قال: «وذلك أنهم ذهبوا في رفع ثلاثة إلى أنها خبر مبتدأ محذوف، وقالوا التقدير: ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة، وليس ذلك بمستقيم، وذلك أنَّا إذا قلنا آلهتنا ثلاثة كان ذلك ـ والعياذ بالله ـ شبه الإثبات... إلى أن يقول: والوجه أن تكون ثلاثة صفة مبتدأ، أو يكون التقدير: ولا تقولوا لنا آلهة ثلاثة، أو في الوجود آلهة ثلاثة، ثم حُذِفَ الخبر الذي هو لنا وفي الوجود، كما حذف من لا إله إلاّ الله»[1].

فالنحو عنده إذن كما قدّمنا خادم للمعنى، تابع له، وعليه الاعتماد في ترجيح وجه إعرابي على غيره، ولذا فهو يفضل دائماً الوجه الذي يفيد معنًى قوياً، فهو يرجّح الاعتراض على العطف في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾[النساء: ١٢٥] لأنّه يفيد معنى لا يفيده العطف فيقول: «وهي جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب كقوله: ـ والحوادثُ جمّة ـ[2] وفائدتها تأكيد وجوب اتباع ملته وطريقته،

---

(١) دلائل الاعجاز: ص٢٣ ـ ٢٤.

(٢) وتمام البيت:

وقد أَدْركتني والحوادثُ جمة ... أسنَّةُ قومٍ لا ضعاف ولا عزل =

ولو جعلتها معطوفة على الجمل قبلها لم يكن لها معنى»[١]. وربّما دفعته عنايته هذه إلى رفض وجه إعرابي لأنه يخلّ بنظم[٢] الآية، لهذا نراه يرفض وجه الإغراء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾[البقرة: ١٣٨] وقد تحدثنا عن هذا قبل قليل، كما دفعه إلى ترجيح أن تكون ما موصولة لحفظها نظم الآية في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[الشمس: ٥ ـ ٨] قال: «أي: وبنائها وطحوها؛ أي: بسطها، وتسوية خلقها في أحسن صورة عند البعض، وليس بالوجه لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ لما فيه من فساد النظم، والوجه أن تكون موصولة، وإنما أوثرت على مَنْ لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل: والسماءِ والقادرِ العظيم الذي بناها، ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها»[٣].

وإلى مراعاة التناسب المعنوي في القرآن كله، لا في الآية الواحدة فحسب، ويبدو هذا الأمر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟

= وهو لجويرية بنت زيد.

(١) تفسير النسفي: ١/ ٢٥٣.

(٢) قال الإمام عبد القاهر الجرجاني ـ رحمه الله ـ في تعريف النظم: «فقد أراك ذلك إن لم تكابر عقلك أن النظم يكون في معاني الكلم دون ألفاظها وأن نظمها هو توخي معاني النحو فيها»، دلائل الإعجاز: ص٣١٧.

وقال في موضع آخر: «ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم»، دلائل الإعجاز: ص٣٠٠.

وقد عَرّف الدكتور محمد الخضر حسين النظم فقال: «أن تقع كل كلمة منه موقعها اللائق بحيث تكون كلماته متناسبة يأخذ بعضها برقاب بعض»، بلاغة القرآن: ص٧.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٧٨.

﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٣] قال: «ومن مثله متعلقة بسورة صفة لها، والضمير لما نزلنا، أي بسورة كائنة من مثله، يعني فأتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب وعلو الطبقة في حسن النظم، أو لعبدنا؛ أي: فأتوا بمن هو على حاله من كونه أمياً لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء ولا قصد إلى مثل ونظير هنالك، وردُّ الضمير إلى المُنْـزَلِ أَوْلى لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[يونس: ٣٨] و﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾[هود: ١٣] و﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾[الإسراء: ٨٨] ولأن الكلام مع ردِّ الضمير إلى المُنزَل أحسن ترتيباً، وذلك أن الحديث في المُنزل لا في المنزَل عليه، وهو مسوق إليه فإن المعنى: إن ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا أنتم نُبُذاً مما يماثله، وقضية الترتيب لو كان الضمير مردوداً إلى رسول الله ﷺ أن يقال وإن ارتبتم في أنَّ محمداً منزل عليه فهاتوا قرآنا من مثله، ولأن هذا التفسير يلائم قوله: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم﴾[البقرة: ٢٣]»[1].

وهو في هـذا كلّه يتتبع طريق الزمخشري في تفسيره، ويسلك منهجه وإن خالفه في بعض المواضع، فقد خالفه مثلاً في حديثه عن قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[غافر: ٣١] يقول: «وهو أبلغ من قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] حيث جعل المنفي إرادة ظلم منكر، ومن بَعُدَ عن إرادة ظلم منكر، ومن بَعُدَ عن إرادة ظلم ما لعباده، كان عن الظلم أبعد وأبعد، وتفسير المعتزلة[2] بأنه لا يريد لهم أن يظلموا بعيد، لأن أهل اللغة قالوا: إذا قال الرجل لآخر: لا أريد ظلماً لك معناه: «لا أريد أن أظلمك»[3] وما نسبه إلى المعتزلة موجود في كشاف

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٣١.

(٢) انظر: الكشاف: ٣/ ٣٩٤.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ٧٧ ـ ٧٨.

الزمخشري وإن لم يصرّح به صراحة.

كما يشير إلى ضعف رأي الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[الأحزاب: ٢١] فيقول: «أي: خاف الله ويخاف اليوم الآخر، أو يأمل ثواب الله ونعيم اليوم الآخر. قالوا[١]: «لِمَنْ» بدل من «لكم» وفيه ضعف؛ لأنه لا يجوز البدل من غير ضمير المخاطب، وقيل: «لمن» يتعلق «بحسنة»، أي: إسوة حسنة كائنة لمن كان»[٢].

ويشير صراحة إلى الزمخشري ويضعّف رأيه في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[الإسراء: ٣٦] فيقول: «وعنه في موضع الرفع بالفاعلية، أي: كل واحد منها كان مسؤولا عنه، فمسؤول مسند إلى الجار والمجرور كالمغضوب في غير المغضوب عليهم، يقال للإنسان: لِمَ سمعت ما لم يحلّ لك سماعه، ولِمَ نظرت إلى ما لم يحلّ لك النظر إليه، ولِمَ عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه، كذا في الكشاف وفيه نظر[٣] لبعضهم، لأن الجار والمجرور إنما يقومان مقام الفعل إذا تأخرا عن الفعل، فأما إذا تقدّما فلا»[٤].

وما قلناه في حديثنا عن الإعراب نقوله عن الصرف، فالصرف في نظر النسفي كغيره من المفسرين له فائدة كبيرة في التفسير، ومعرفته ضرورية للمفسر، وقد

---

(١) وهو الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٢٣٢.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٢٩٩.

(٣) قال ابن هشام: «ومن الوهم قول بعضهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ...﴾ إن عنه مرفوع المحل بمسؤولاً، والصواب أن اسم كان ضمير المكلف وإن لم يجر له ذكر، وأن المرفوع بمسؤولاً مستتر فيه راجع إليه أيضاً، وأن عنه في موضع النصب»، مغني اللبيب: ص٧٦٩.

(٤) تفسير النسفي: ٢/ ٣١٤.

يقع المفسر في الخطأ نتيجة جهله بهذا العلم، وخطئه في اشتقاق الكلمة، فرأى مثلاً أن بعض المفسرين وقعوا في الخطأ في أثناء تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾[الكهف: ١٢] نتيجة جهلهم في اشتقاق كلمة أحصى فقال: «أمداً: غاية، وأحصى: فعل ماض، وأمداً: ظرف لأحصى أو مفعول له، والفعل الماضي خبر المبتدأ، وهو؛ أي: والمبتدأ مع خبره سدّ مسد مفعولي نعلم، والمعنى أيّهم ضبط أمداً لأوقات لبثهم، وأحاط علماً بأمد لبثهم، وَمَنْ قال: أحصى أفعل من الإحصاء وهو العدّ فقد زلّ لأن بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس»(١).

كما تعرض لتعريف الاشتقاق في بداية تفسيره فقال: «الاشتقاق هو أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنًى واحد»(٢) وذكر اشتقاق(٣) بعض الألفاظ القرآنية، ونقل اشتقاق بعضها عن الخليل وسيبويه، قال مثلاً في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[البقرة: ١٤] «عن سيبويه أن نون الشياطين أصلية بدليل قوله تشيطن، وعنه أنها زائدة واشتقاقه من شطن إذا بَعُدَ لبعده عن الصلاح والخير، أو من شاط إذا بطل ومن أسمائه الباطل»(٤).

وكذلك ما قاله في حديثه عن اشتقاق كلمة شيء في أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[المائدة: ١٠١] قال: «قال الخليل وسيبويه وجمهور البصريين أصله شيئاً بهمزتين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٤ وهو المكان الوحيد الذي يشير فيه إلى خطأ التصريف.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٤.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٣١، ٢/ ١٢٣ أيضاً.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٢١.

ءَامَنُوٓاْ . . .﴾ بينهما ألف وهي فعلاء من لفظ شيء، وهمزتها الثانية للتأنيث، ولذا لم تنصرف كحمراء وهي مفردةٌ لفظاً وجمعٌ معنًى، ولمّا استثقلت الهمزتان المجتمعتان قُدّمت الأولى التي هي لام الكلمة، فجعلت قبل الشين فصار وزنها لفعاء)[1].

ونقل عنهم أيضاً اشتقاق كلمة اسم كما رأينا قبل قليل.

ولـم يكتف بذكر اشتقـاق بعض هذه الألفاظ بل وَزَنَ[2] بعضها وأشار إلى ما جرى في بناء بعضها الآخر من القلب[3] والإبدال[4] والإدغام[5].

قال مثلاً في تفسير قوله تعالـى: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ﴾[البقرة: ٢٤٧] «الطاء في اصطفاه بدل من التاء لمكان الصاد الساكنة؛ أي: اختاره، وهو أعلم بالمصالح منكم»[6].

وقـال في حديثـه عن قـولـه تعـالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾[النساء: ٥] «أصل قيام: قوام، فجعلت الواو ياء لانكسار ما قبلها»[7].

وتحدث أيضاً عما في «اداركوا» من إبدال فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[الأعراف: ٣٨] «أصله: تداركوا؛ أي: تلاحقوا واجتمعوا في النار، فأبدلت التاء

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٣٠٥.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٥، ٦٠، ١٤٥، و٢/ ١٠٤، ٢٧٨، و٣/ ١٢٥، ٢٤٤، ٢٨٥.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٢، ١/ ١٩٧، ٢٠٧، و٢/ ١٠٤، ٢٢٤، و٣/ ٣١، ٤/ ٢٣٩.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٤٧، ١٢٤، و٢/ ٥٢، ٨٢، ١٨٦، و٤/ ٢٠٣، ٢٠٧، ٣١٦.

(٥) تفسير النسفي: ٢/ ٧١، ١٢٦، و٣/ ٢١٥، ٢١٩.

(٦) تفسير النسفي: ١/ ١٢٤.

(٧) تفسير النسفي: ١/ ٢٠٧.

دالا وسكنت للإدغام، ثم أدخلت همزة الوصل»[١].

وقد انحصر بحثه في الصرف فيما ذكرناه قبل قليل فهو لا يهمه من أمر الصرف إلاّ ما هو بحاجة إليه في تفسيره.

٣ ـ طريقته في الاستشهاد:

إن دراسة متعمقة لتفسير النسفي تبيّن بشكل واضح منهجه في الاستشهاد، فالنسفي كغيره من المفسرين احتج بالقرآن الكريم وبالحديث الشريف، وبأقوال الصحابة والتابعين، وبأقوال العرب وشعر شعرائهم، على معنى الآية، وقد تحدثنا عن احتجاجه بالقرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الصحابة والتابعين في حديثنا عن منهجه في التفسير، وسأعرض منهجه في الاستشهاد بالشعر العربي وأقوال العرب، وهنا نجد أن النسفي استشهد بالشعر العربي على ما في القرآن من ظواهر نحوية، واستشهد بالشعر العربي وبالحديث الشريف أحياناً وبأقوال العرب على لغة الآية ومعناها مما يجعلني أقسم الحديث عن هذا الأمر إلى:

أ ـ استشهاده بالشعر على النحو:

وهو في هذا يتابع غيره من المفسرين وبشكل خاص الزمخشري والبيضاوي، وهو أمر طبيعي فالقرآن عربي يسير على سنن العربية وقوانينها، وقد أشار النسفي إلى هذا في أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢][٢].

وأمام هذا فقد وجد النسفي في الشعر ما يؤيد كثيراً من الظواهر[٣] النحوية

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٥٢.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٣١٦.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٤، ٥٤، ٢/ ١٩٦، ٣/ ١٧٥، ٤/ ١٧٨.

الواردة في بعض آيات القرآن، ومن هذا مثلاً ما رآه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٦] قال: «أولئك إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد، لأن أولئك كما يكون إشارة إلى العقلاء، يكون إشارة إلى غيرهم قال جرير:

ذمُّ المنازلِ بَعْدَ منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام»[1]

كما يجد لجزم الفعل في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾[الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩] مثلاً في شعر العرب فيقول: «يُضاعفْ بدلاً من يلق لأنها في معنى واحد، إذ مضاعفة العذاب هي لقاء الآثام، كقوله:

متى تأتنا تلممْ بنا في ديارنا تجدْ حطباً جزلاً وناراً تأججا[2]

فجزم تلمم لأنه بمعنى تأتنا إذ الإتيان هو الإلمام»[3].

ويؤيّد قراءة علي ومدني لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾[هود: ٦٦] بالشعر فيقول: «﴿ومن خزي يومَئذ﴾ بإضافة الخزي إلى اليوم وانجرار اليوم بالإضافة، وبفتحها علي ومدني لأنه مضاف إلى «إذ» وهو مبني، وظروف الزمان إذا أضيفت إلى الأسماء المبهمة والأفعال الماضية بنيت واكتسبت البناء من المضاف إليه كقوله:

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٣١٤، والبيت من البحر الكامل، لسان العرب (أولى).

(٢) والبيت من شواهد الكتاب ولم ينسب إلى قائله، وهو من البحر الطويل، الكتاب ٣/ ٨٦.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ١٧٥.

على حين عاتبت المشيب على الصبا(١)(٢)

أما ظاهرة الحذف في القرآن الكريم فيجد لها مثلاً من الشعر العربي فقد يحذف من الآية الخبر كما يخذف من الشعر، وقد أشار إلى هذا في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ﴾[المائدة: ٦٩](٣) قال: «قال سيبويه وجميع البصريين: ارتفع الصابئون بالابتداء، وخبره محذوف والنية به التأخير عمّا في حيّز إنّ واسمها وخبرها، كأن قيل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون، والصابئون كذلك، أي مَنْ آمن بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم مقدّم و«خوفٌ» الخبر كقوله(٤):

فمن يك أمس بالمدينة رحله فإني وقيّار بها لغريب

أي: فإني لغريب وقيّار كذلك، ودلّت اللاّم على أنه خبر «إن»، ولا يرتفع بالعطف على محل إن واسمها، لأن ذا يصح قبل الفراغ من الخبر لا تقول: إن زيداً وعَمْراً منطلقان، وإنما يجوز: إن زيداً منطلق وعَمْراً، والصابئون مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولا محلّ لها، كما لا محلّ للتي

---

(١) هذا صدر البيت وعجزه:

وَقُلْتُ: أَلَمّا تَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ؟

من البحر الطويل، وهو للنابغة لسان العرب (وزع).

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ١٩٦.

(٣) وتمام الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

(٤) البيت لضابئ بن حارث البرجمي وهو في الخزانة: ٤/ ٣٢٣، وفي مغني اللبيب: رقم ٨٥٤.

عْطِفَتّ عليها وفائدة التقديم التنبيه على أن الصابئين ـ وهم أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً وأشدهم غياً ـ يتابُ عليهم إن صحّ منهم الإيمان فما الظن بغيرهم»[١].

وقد يُحْذَف من آيات القرآن مفعول شاء وأراد، وحذفه في لسان العرب كثير، وأشار إلى هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾[البقرة: ٢٠] فقال: «ومفعول شاء محذوف لدلالة الجواب عليه؛ أي: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بهما، ولقد تكاثر هذا الحذف في شاء وأراد لا يكادون يُبرِزون المفعول إلا في الشيء المستغرب كنحو قوله[٢]:

فلو شِئْتَ أَنْ أبكي دماً لبكيته عليه ولكنّ ساحةَ الصبرِ أَوْسَعُ

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾[الأنبياء: ١٧] وقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[الزمر: ٤].

وهو في كل ما ذكرت يلتزم ما التزم به اللغويون من حصر دائرة استشهاده بشعر القدامى، كما رأينا من خلال الأمثلة المذكورة، وهو ما لا يراعيه في أثناء استشهاده بالشعر على لغة الآية ومعناها كما سنرى بعد قليل.

ب ـ منهجه في الاحتجاج على لغة الآية ومعناها:

وقد احتج على معنى الآية بالشعر[٣] العربي والحديث[٤] النبوي

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢٧ ـ ٢٨، والبيت للخزيمي وهو: يعقوب بن إسحاق بن حسان الخزيمي يرثي عامر بن عمّار، التلخيص: ص١٢٨، والبيت من البحر الطويل.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٤٠، ١٨٤، و٢/ ٧٠، ١٠٠، ١٣٠، ٢٤٤.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٥، ٨، ١٩، ٣٤، ٤٦، ٧٥، و٢/ ٥٦، ٥٧، ٩١، ١٠٦، ١٠٩، و٣/ ٢٤، ٢٧، ٣٩...

والأمثال[١] العربية، خلافاً لما رأيناه في استشهاده على النحو، وهو في استشهاده على المعنى مع اللغة لا يلتزم ما التزم بـه النحاة من حصر دائـرة استشهاده بشعر القدامى، بل استشهد بشعر القدامى والمحدثين، فاستشهد بشعر النابغة[٢] وزهير[٣] والنمر بن[٤] تولب من القدامى، كما احتج بشعر أبي نواس من المُحْدَثين في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ قال: «إنه كان وحده أمة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير كقوله:

لـــيس علـــى الله بمـــستنكر أَنْ يجمـــع العـــالم فـــي واحـــد

وبشعر أبي الطيب في تفسير قوله تعالى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[الرعد: ١١ ـ ١٢] قال: «والمعنى يخاف من وقوع الصواعق عند لمع البرق، أو يطمع في الغيث، قال أبو الطيب:

فتى كالسحاب الجونُ يخشى ويُرتجى يرجّى الحيا منه وتخشى الـصواعق[٥]

وبشعر أبي تمام في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[النور: ٣٥][٦].

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٣٢٨، ٣٤٤، و٤/ ٢٤، ٤٨.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٧٠.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٤٠.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ١٨٤.

(٥) تفسير النسفي: ٢/ ٢٤٤، والبيت من البحر الطويل.

(٦) تفسير النسفي: ٣/ ١٤٥ ـ ١٤٦.

كما احتج بالشعر على تفسير ألفاظ[١] الآيات، فاستعان به مثلاً على تفسير كلمة ﴿بينكم﴾ من قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[الأنعام: ٩٤] قال: «بينكم: وصلَكم، عن الزجاج، والبَيْن: الوَصْلُ والهَجْرُ قال:

فَوَ الله لولا البَيْنُ لم يكن الهوى ولولا الهوى ما حنّ للبَيْنِ آلف[٢]

وقد يستعين بالأمثال العربية على تفسير ألفاظ الآية، فاستعان بها في تفسير معنى بقيّة من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾[هود: ١١٦][٣] قال: «أولو فضل وخير، وسمي الفضلُ والجوُد بقيةٌ، لأن الرجل يستبقي ممّا يخرجه أجودهَ وأفضلَه، فصار مثلاً في الجودة والفضل ويقال: فلان من بقيّة القوم، أي: خيارُهم، ومنه قولهم: في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا»[٤].

وعلى معنى مبينات من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾[النور: ٣٤] قال: «أي: بيّنت، هي الأحكام والحدود، جُعِلَ الفعل لها مجازاً، أو من «بيَنَ» ومنه المثل: قد بيَنَ الصبح لذي عينين»[٥].

وأحياناً ـ وهذا قليل جداً ـ قد يستعين بالحديث الشريف على تفسير بعض الألفاظ ومن هذا مثلاً ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾[آل عمران: ١١٨] قال: «بِطانةُ الرجل ووليجتُهُ خصيّصه وصفيّه، شبه

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٢٤، ٧٠، و٣/ ١١٧، و٤/ ٢٠، ١٧٠، ٣٤٥.

(٢) والبيت من البحر الطويل، انظر: لسان العرب: مادة (بين) ونَسَبَهُ لقيس بن ذريح.

(٣) تفسير النسفي: ٢/ ٢٤.

(٤) تفسير النسفي: ٢/ ٢٠٨.

(٥) تفسير النسفي: ٣/ ١٤٤، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ٣/ ٢٧٠، والمثل في مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، ص٩٩، ويُضْرَبُ لأمر يظهر كل الظهور.

بطانة الثوب كما يقال: فلان شعاري وفي الحديث (الأنصار شعار والناس دثار)[١].

وهو ما فعله أيضاً في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢][٢] وقوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨][٣] وقوله ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ [يونس: ٧١][٤].

واستشهاده بالحديث في هذا المجال قليل إذا قيس باستشهاده به على معنى الآية وتفسيرها.

وعلى هذا نجد أن طريقة استشهاد النسفي تختلف باختلاف الموضوع، فبينما حصر دائرة استشهاده على النحو بالشعر العربي وبشعر القدامى منهم خاصة، وسَّع دائرة استشهاده على معنى الآية ولغتها فاستشهد بشعر القدامى والمحدَثين، وبالحديث الشريف وبأمثال العرب أيضاً.

أما طريقة عرضه للشعر العربي في استشهاده اللغوي والمعنوي والنحوي فهي واحدة، فقد ينسب البيت إلى صاحبه كما فعل في بيت أبي تمام، وأبي الطيب، وامرىء[٥] القيس، أو يأتي به مجرداً كما وجدنا في بيت أبي نواس والنابغة وزهير، وأحياناً يستغني عن ذكر البيت كاملاً ويكتفي بذكر[٦] شطره الذي يريد الاحتجاج به

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٧٧ والحديث: في جامع الأصول: رقم ٦١٥٩ عن عبدالله بن زيد بن عاصم: ٨/ ٣٨٩، وتخريجه ثمة.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١١.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١١٤.

(٤) تفسير النسفي: ٢/ ١٧١.

(٥) تفسير النسفي: ١/ ٢٥.

(٦) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٦، ٨٩، ١٠٧، ١٣٧، ١٨٧، ٢٤٦.

في موضع ما وهذا كثير عنده.

وبدراستنا لمنهجه اللغوي والنحوي نرى أن النسفي وإن عُنِيَ عناية كبيرة باللغة والنحو والصرف، لم يتخذ شخصية اللغوي والنحوي المسرف في هذين الجانبين، فدراسته لها لم تكن لمجرد اللغة والنحو إنما كانت لخدمة التفسير، فظهر بشخصية العالم الذي أدرك قيمة هذه العلوم في تفسير القرآن، وفي توضيح معانيه وتقريبها، الملمّ بالعلوم اللازمة للمفسر، فعُنِيَ عناية كبيرة بشرح الألفاظ.

كما عني بالإعراب، فأعرب ما رآه بحاجة إلى الإعراب متبنياً في ذلك كلّه مذهب البصريين كما رأينا، كما ذكر أحياناً وَزْنَ بعض الكلمات واشتقاقها وما جرى فيها من قلب وإبدال، وتعرّض لمسائل كثيرة كترجمة القرآن ورسمه، وما ورد فيه من غير لغة العرب، وهي من المسائل التي تعرض لها الكثيرون.

وهو في هذا كله قد تابع الزمخشري إذ جعل تفسيره مثلاً لتفسيره، وإن خالفه في المبادئ الأساسية التي انطلق منها كل منهما، ممّا دفعه أحياناً إلى الإختلاف مع الزمخشري في بعض القضايا، كمسألة ترجمة القرآن وقراءته باللغة الفارسية وهي من الأمور التي قطع الزمخشري[1] بعدم جوازها، كما خالفه في بعض المسائل اللغوية كما رأينا في حديثنا عن هذه الناحية قبل قليل.

* * *

(١) الكشاف: ٣/ ٤٣٤.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

منهجه العقلي والأدبي والتربوي

أ ـ منهجه العقلي:

إن إيمان النسفي بالعقل، ونظرته إليه على أنه حجة ملزمة، دفعه إلى التزام منهج عقلي ظهر في تفسيره كله، كما ظهر في تفسير الزمخشري قبله، هذا اللقاء كثيراً ما يدفعه إلى نقله نظرات الزمخشري بعينها، وتقليباته العقلية مما يجعلنا نقارن بينه وبين الزمخشري دائماً في حديثنا عن هذا الجانب ـ وإن كان اسم الزمخشري سيظهر في غيره أيضا كما ظهر فيه ـ ويتجلى منهجه العقلي في صور مختلفة فهو:

١ ـ يقلِّب الآية على وجوهها المعنوية المختلفة(١):

وهو ما نراه مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ﴾[البقرة: ٧٢] قال: «فاختلفتم واختصمتم في شأنها، لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً؛ أي: يدفع، أو توافقتم بمعنى طرح قتلَها بعضُكم على بعض، فيدفع المطروح عليه الطارح، أو لأن الطرح في نفسه دفع»(٢).

وقد يؤدي هذا التقليب أحياناً إلى أوجه تفسيرية مختلفة، وهذا ما رآه مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾[البقرة: ٥٣] قال: «الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل وهو التوراة، ونظيره رأيت

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٣، ١٠٧، و٤/ ٢٩.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٥٥، انظر: الكشاف: ١/ ٧٥.

الغيث والليث تريد الجامع بين الجود والجرأة، أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من االعصا واليد وغيرهما من الآيات، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام»(١).

ونحوه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] قال: «فهو أبلغ من قولك وما يخرجون منها، وأطلق الإيمان في الثاني بعد تقييده في الأول، لأنه يحتمل أن يراد التقييد ويترك لدلالة المذكور عليه، ويحتمل أن يراد نفي أصل الإيمان وفي ضمنه نفي المذكور أولاً، والآية تنفي قول الكُرّامية: إن الإيمان هو الإقرار باللسان لا غير، لأنه نفى عنهم اسم الإيمان مع وجود الإقرار منهم، ويؤيّد قول أهل السنة إنه إقرار باللسان وتصديق بالجنان، ودخلت الباء في خبر «ما» مؤكدة للنفي، لأنه يستدل به السامع على الجحد إذا غَفِلَ عن أول الكلام، ومن موحد اللفظ ولذا قيل: يقول وجمع وما هم بمؤمنين نظراً إلى معناه»(٢).

وهو ما نجده عنده أيضاً في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[النساء: ٤٣] قال: «فلم تقدروا على استعماله لعدمه أو بعده، أو فقد آلة الوصول إليه، أو لمانع من حية أو سبع أو عدو، وأدخل في حكم الشرط أربعة وهم: المرضى والمسافرون إذا عدموه لبعده، والمحدِثون وأهل الجنابة إذا لم يجدوه لبعض الأسباب فلهم أن يتيمموا»(٣).

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٤٨.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٠١.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٢٢٧، انظر: الكشاف: ١/ ٢٧٠، وتفسير النسفي: ١/ ٢٧٢، ٣/ ٩٥ أيضاً.

٢ ـ ينبّه على الألفة بين الفاصلة ونسقها المعنوي:

وهو في هذا يتبع خطوات الزمخشري قبله، فكلامه أشار إلى الألفة بين الفاصلة ونسقها المعنوي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١١ ـ ١٣].

قال النسفي: «وإنما ذُكِرَ هنا «لا يعلمون» وفيما تقدم «لا يشعرون» لأنه قد ذكر السفه وهو جهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له، ولأن الأيمان يحتاج فيه إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة، أما الفساد في الأرض فأمر مبني على العادات فهو كالمحسوس»(١).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[الأنعام: ٩٧ ـ ٩٨] «وإنما قيل يعلمون ثم يفقهون هنا، لأن الدلالة ثَمَّ أظهر، وهنا أدق، لأن إنشاء الإنس من نفس واحدة، وتصريفهم بين أحوال مختلفة أدق، فكان ذكر الفقه الدالّ على تدقيق النظر أوفق»(٢).

٣ ـ وهو يستخرج أدلة على أمور غيبية(٣) من النص القرآني:

فالنسفي لا يكتفي بما يوحيه النص القرآني، بل كان يجوب في الآية القرآنية

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٢١، انظر: الكشاف: ١/ ٣٤.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٢٥، الكشاف: ٢/ ٣٠.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٨٠، ١٧١، ١٩١، ٢٥١، و٤/ ١٦٨.

ويغوص وراء معانيها، ويُعْمِل عقله فيها، ويحاول استنتاج أشياء توحي بها الآية القرآنية، كما يحاول اختراق حجب الغيب بعقله، ليستخرج الأدلة على بعض الأمور الغيبية التي لم يرد بها حديث نبوي أو نص صريح، ولهذا هو يلحظ جملة من الأمور منها:

أن خلق العرش والماء كان قبل خلق السموات والأرض، وهذا ما استخرجه من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[هود: ٧] فقال: «أي: فوقه؛ يعني: ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض إلاّ الماء، وفيه دليل على أنّ العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السموات والأرض»[١] كما يستنتج أن الجنة فوق النار من خلال قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾[الأعراف: ٤٩ ـ ٥٠] قال: «وفيه دليل على أن الجنة فوق النار»[٢].

وأن الجنة مخلوقة وهو في هذا يناقض الزمخشري ويخالفه، وقد أشار إلى هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[الحديد: ٢١] قال: «هذا دليل على أن الجنة مخلوقة»[٣].

أما الملائكة فهم مكلفون وهم بين الخوف والرجاء، وقد رأى هذا من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[النحل: ٥٠] قال: «وفيه دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهي، وإنهم بين الخوف والرجاء»[٤].

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ١٨١، الكشاف: ٢/ ٢٠٨.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٥٧، الكشاف: ٢/ ٦٥.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ٢٢٨.

(٤) تفسير النسفي: ٢/ ٢٢٨، الكشاف: ٢/ ٣٣١.

كما وقد تهديه الآيات القرآنية إلى بعض الأدلة الدينية والجدلية، فاستطاع أن يتوصل إلى ضرورة الخروج على أمراء الجور من خلال قول الله تعالى ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩] يقول: «فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر في شيء من أمور الدين فردوه إلى الله والرسول؛ أي: ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر؛ أي: أن الإيمان يُوجب الطاعة دون العصيان، ودلّت الآية على أن طاعة الأمراء واجبة إذا وافقوا الحق، فإن خالفوه فلا طاعة لهم لقوله عليه السلام: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[1]»[2].

واستدلّ على جواز الجدل والمناظرة كما أجازها الزمخشري، إلا أنه لا يجيز خلافاً للزمخشري الانتقال من حجة إلى حجة، وأشار إلى هذا الأمر في أماكن متعددة من تفسيره؛ أولها في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾[البقرة: ٢٥٨] قال: «وهذا ليس بانتقالٍ من حجة إلى حجّة كما زعم[3] البعض، لأن الحجة الأولى كانت لازمة، ولكن عاندَ اللعين حجة الإحياء بتخلية واحد وقتل آخر، كلّمه من وجه لا يعانَد وكانوا أهل تنجيم، وحركة الكواكب من الغرب إلى الشرق معلومة لهم، والحركة الشرقية المحسوسة لنا قسرية كتحريك الماء النمل على الرحى إلى غير جهة حركة النمل، فقال: إن ربي يحرك الشمس قسراً على غير حركتها، فإن كنت ربا فحركها فهو أهون ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ تحيّر ودهش ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

---

(١) والحديث في الكنز العمال جزء ٥ رقم الحديث ١٤٤٠١، ١٤٤١٣، وجزء ٦ رقم الحديث ١٤٨٧٥ وتخريجه ثمة.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢٣٢، الكشاف: ١/ ٢٧٥.

(٣) والزاعم هو الزمخشري، انظر: الكشاف: ١/ ٤١.

وقالوا: إنما لم يقل نمرود فليأت ربك بالشمس من الغرب، لأن الله تعالى صرفه عنه، وقيل: إنه كان يدّعي الربوبيـة لغيره، والآية تدل على إباحة التكلم في علم الكلام والمناظرة فيه لأنه قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾، والمحاجّة بين تكون اثنين، فدلّ على أن إبراهيم حاجّه أيضاً، ولو لم يكن مباحاً لَمَا باشرها إبراهيم ﵇، لكون الأنبياء معصومين عن ارتكاب الحرام، ولأنا أمرنا بدعاء الكفرة إلى الإيمان بالله وتوحيده، وإذا دعوناهم إلى ذلك لابد أن يطلبوا منّا الدليل على ذلك، وذا لا يكون إلا بعد المناظرة»[(١)].

وأكد جـواز المناظرة مرة ثانية في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل: ١٢٥] قال: «بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة، وهو رد على من يأبى المناظرة في الدين»[(٢)].

٤ ـ الجمع بين ما قد يبدو متناقضاً:

وقد تحدثنا عن هذا الأمر في علوم القرآن[(٣)].

٥ ـ رفض التقليد:

وقد أعلن هذا في أثناء تفسير قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢] قال: «وهذا يردّ قول من زعم من الروافض أن القرآن لا يفهم معناه إلا بتفسير الرسول ﷺ والإمام المعصوم، ويدل على صحة القياس وبطلان التقليد»[(٤)].

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٣٠ ـ ١٣١.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٣٠٥، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ٢/ ٢٠، و٣/ ٢٦٠.

(٣) ارجع إلى ص٢٠٨، وما بعدها.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٢٣٩.

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿... أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[الأعراف: ١٧٣] قال: «فاقتدينا بهم لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبّهوا عليه قائم معهم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه والاقتداء بالآباء، كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم»[1].

٦ ـ الاستطراد[2]:

كالذي نراه مثلاً في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[التغابن: ٣] قال: «أي: جعلكم أحسن الحيوان كله وأبهاه، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور، ومن حسن صورته أنه خُلِقَ منتصباً غير مُنْكَب، ومن كان دميماً مشوّه الصورة، سمْجَ الخلقة فلا سماجة ثَمَّ، ولكنّ الحُسْنَ على طبقات فلانحطاطها عمّا فوقها لا تستملح، ولكنها غير خارجة عن الحسن، وقالت الحكماء: شيئان لا غاية لهما: الجمال والبيان»[3].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزخرف: ٥١] قال: «أي: أنهار النيل تجري من تحت قصري، وقيل بين يَدَيَّ في جناني، والواو عاطفة للأنهار على ملك مصر، وعن الرشيد أنه لما قرأها قال: لأُوَلينّها أخسّ عبيدي فولاّها الخصيب، وكان خادمه على وضوئه، وعن عبدالله بن

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٨٥، انظر أيضاً: تفسيره: ٤/ ١١٦.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٢٠٢، ٢١٦، و٢/ ٦٦، ٦٧، ٣١٩، و٣/ ١٠، ٥٢، والاستطراد لغة: مصدر استطرد الفارس من قِرْنه في الحرب، وذلك إذا فرّ من بين يديه يوهمه الانهزام، ثم يعطف عليه على غرة منه، وهو ضرب المكيدة، واصطلاحاً: ان يكون الشاعر في غرض من أغراض الشعر يوهم أنه مستمر فيه، ثم يخرج منه الى غيره لمناسبة بينهما. معجم البلاغة العربية د. طبانة: ١/ ٤٥٩.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ٢٦١، الكشاف: ٤/ ١٠٤ ـ ١٠٥.

طاهر أنه وليها فخرج إليها فلما شارفها قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: أليس لي ملك مصر؟ والله لهي عندي أقل من أن أدخلها فثنى عنانه»[١].

ب ـ منهجه الأدبي:

إلى جانب نظرة النسفي العقلية وتحليلاته، فقد بدا أديباً عارفاً باللغة مهتماً بالشعر، مدركاً لدور الشعر في تفسير القرآن وتوضيح معانيه، فالقرآن عربي وما جاء إلا على أساليب العربية وقوانينها، وهو ما دعا إليه الصحابة رضي الله عنهم، قال عمر رضي الله عنه: «عليكم بديوانكم لا تضلوا هو شعر العرب، فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم»[٢].

وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغتهم، رجعنا إلى ديوانهم فالتمسنا معرفة ذلك منه»[٣].

وقد دعاه هذا إلى الاستعانة بالشعر العربي في تفسيره لكتاب الله الكريم، واتخذ الشعر في تفسيره صورة المُعِين على تفسير الآية (كما رأينا في حديثنا عن منهجه في الاستشهاد)[٤] وصورة المُؤَيِّد لتفسيره، كما وجد مجالاً للحديث عن الشعر والغاية منه في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾[الشعراء: ٢٢٤] فعرّف الشعر كما فعل الزمخشري[٥] قبله والبيضاوي[٦] والسكاكي[٧] ومن قبلهم ابن

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ١٢١، الكشاف: ٣/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

(٢) تفسير البيضاوي: ص٣٥٧.

(٣) الإتقان: ٢/ ١٠، والتحرير والتنوير: ١/ ٢٢.

(٤) ارجع إلى ص٢٣٠.

(٥) الكشاف: ٣/ ٢٩٢.

(٦) تفسير البيضاوي: ص٥٨٧.

(٧) مفتاح العلوم: ص٥١٥.

فارس[1] وتعرض للفاصلة القرآنية التي رآها مقابلة للقافية في الشعر، وذكر أثرها في الآيـة، كما خرّج بعض الآيات على الأمثال واللهجات العربية، وأشار إلى أنه قد يرد في القرآن مستحسناً ما يعد في الشعر عيباً فذكر التضمين في نهاية تفسيره.

١ ـ تأييد تفسيره[2] للآية بالشعر:

وهو في أثناء تفسيره للآية القرآنية، يُقرّب معناها ويوضحه بما قيل على لسان شعراء العرب، لذا فهو عندما يفسر قول الله تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴾[الزخرف: ٣٩] يدعم قوله بقول الخنساء قال: «ولن ينفعكم اشتراككم في العذاب، أو كونكم مشتركين في العـذاب، كما كان عموم البلوى يطيّب القلب في الدنيا كقول الخنساء:

ولـــولا كثـــرةُ البـــاكين حـــولي ... علـــى إخـــوانهم لقتلـــت نفـــسي

ولا يبكـــون مثـــلَ أخـــي ولكـــن ... أعـــزّي الـــنفس عنـــه بالتأســـي

أما هؤلاء فلا يؤسيهم اشتراكهم، ولا يروحهم لعظم ماهم فيه»[3].

وهو ما فعله أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ ﴾[البقرة: ٢٦] قال: «جار مجرى التفسير والبيان للجملتين المصدرتين بأما، وأن فريق العالميـن بأنه الحق، وفريق الكافريـن الجاهلين المستهزئين به كلاهما موصوف بالكثرة، وأن العلم بكونه حقاً من باب الهدى، وأن الجهل بحسن مورده من باب الضلالة، وأهل الهدى كثير في أنفسهم، وإنّما يوصفون بالقلة بالقياس إلى

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة: ص٢٧٣.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٤٠، و٢/ ٢٤، ١٠٠، ١٦٠، ٣٠٣، و٤/ ١٧٠، ٣٤٥.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ١١٩.

أهل الضلالة، ولأن القليل من المهتدين كثير في الحقيقة، وإن قلّوا في الصورة:

إنّ الكرامَ كثيرٌ في البلاد وإنْ   قلّوا كما غيرهم قلَّ وإن كثروا[1]

وقد يجعل الشعر شاهداً على صحة تفسيره للآية، ومثاله ما فعله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[النمل: ٨٨] قال: «أي مثل مر السحاب، والمعنى أنك إذا رأيت الجبال وقت النفخة ثابتة في مكان واحد لعظمها وهي تسير سيراً سريعاً كالسحاب إذا ضربته الريح، وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحركت لا تكاد حركتها تبين كما قال النابغة في صفة الجيش:

بِأَرْعَنَ مثل الطَّوْدِ تحسَبُ أنهم   وُقوف لِحَاجٍ والركابُ تُهَمْلِجُ[2]

٢ ـ الشعر تعريفه وغايته:

ومع اشتغال النسفي بالتفسير لم ينس أن يضع تعريفاً للشعر عندما فسر قول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾[يس: ٦٩] قال: «الشعر كلام موزون مقفّى يدل على معنى»[3] وهو نفسه ما قاله ابن فارس في تعريفه للشعر، والسكاكي والبيضاوي والزمخشري وأبو بكر[4] الباقلاني ويشير إلى أنه لا علاقة بين القرآن والشعر، إذ لا وزن ولا قافية[5] في القرآن، كما ويصبغ النسفي نظرته الأدبية هذه، وإحساساته النفسية والجماليه بصيغة دينية حتى تطغى عليه هذه العاطفة، وينظر

(١) تفسير النسفي: ١/ ٣٧، البيت من البحر البسيط.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٢٢٣، انظر: لسان العرب (هملج)، والبيت للنابغة الجعدي.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ١٢، وهو ما قاله الزمخشري أيضاً الكشاف: ٣/ ٢٩٢.

(٤) إعجاز القرآن: ص٥٦.

(٥) تفسير النسفي: ٤/ ١٢.

إلى الفن على أنه إصلاح، وإلى الشعر على أنه مقبول ما لم يدفع إلى معصية كما فعل الزمخشري، وقد أشار كصاحبه إلى هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦] فقال: «لا يتّبعهم على باطلهم وكذبهم، وتمزيق الأعراض، والقدح في الأنساب، ومدح من لا يستحق المدح، ولا يَسْتَحْسِنُ ذلك منهم إلا الغاوون؛ أي: السفهاء؛ أي: الراوون، أو الشياطين، أو المشركون. قال الزجاج: إذا مدح أو هجا شاعر بما لا يكون، وأحبَّ ذلك قومٌ وتابعوه فهم الغاوون ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ خبر «أن»؛ أي: في كل فن من الكذب يتحدثون، أو في كل باطل ولغو يخوضون، والهائم: الذاهب على وجهه لا مقصد له، وهو تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول، واعتسافهم حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة، وأبخلَهم على حاتم، وعن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

فَبِتْنَ بجانبيَّ مصرّعات وبِتُّ أفضُّ أغلاقَ الختام

فقال: «وجب عليك الحد، فقال: قد درأ الله عني الحدَّ بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ حيث وصفهم بالكذب والخَلَفِ في الوعد»، ثم استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين بقوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ كعبدالله ابن رواحة، وحسان بن ثابت، وكعب بن زهير وكعب بن مالك ﷺ ﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ أي: كان ذكر الله وتلاوة القرآن أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعراً قالوه في توحيد الله تعالى والثناء عليه، والحكمة والموعظة والزهد، والأدب ومدح رسول الله ﷺ والصحابة وصلحاء الأمة، ونحو ذلك مما ليس فيه ذنب»[1].

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٢٠٠، انظر: الكشاف: ٣/ ١٣١، والبيت في لسان العرب: (غلق).

٣ ـ المعاني النفسية التي يستوحيها من النص القرآني[١]:

والنسفي فوق هذا كلّه يستوحي بعض المعاني النفسية من النص القرآني فيعرضها في تفسيره، وهو ما فعله الزمخشري[٢] قبله في المفسرين السابقين له، قال مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾[الأعراف: ١١٥] «وفيه دلالة على أن رغبتهم في أن يلقوا قبله، حيث أكّد ضميرهم المتصل بالمنفصل، وعرّف الخبر. قال لهم موسى عليه السلام: ألقوا، تخييرهم إياه أدبٌ حسنٌ راعوه معه، كما يفعل المتناظرون قبل أن يتحاوروا الجدال، وقد سوّغ لهم موسى ما رغبوا فيه ازدراء لشأنهم وقلة مبالاة بهم، واعتمادا على أن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً»[٣].

كما تعرض للمعاني النفسية التي يوحيها له قول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[الأعراف: ٦٦ ـ ٦٨] قال: «وإنما قال هنا وأنا لكم ناصح أمين لقولهم: وإنا لنظنك من الكاذبين؛ أي: ليقابل الاسم الاسم، وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام من ينسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم عليه من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وتَرْكُ المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم، أدبٌ حسنٌ وخلقٌ عظيمٌ»[٤].

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٣٧.

(٢) الكشاف: ٢/ ٨١.

(٣) تفسير النسفي: ٢/ ٦٩.

(٤) تفسير النسفي: ٢/ ٥٩.

٤ ـ الفاصلة القرآنية وأثرها:

لم يضع النسفي تعريفاً واضحاً للفاصلة القرآنية، كما لم يتعرض لما قاله العلماء[1] في هذا السبيل، ولكنه رأى أن الفاصلة تقابل القافية في الشعر، كما رأى ذلك من قبله الزركشي[2]، وأشار إلى فائدة الفاصلة في أثناء تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[الأحزاب: ٦٧] قال: «يقال: ضلّ السبيل وأضلّه إياه، وزيادة الألف لإطلاق الصوت، جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع، وأن ما بعده مستأنف»[3] وهو ما رآه الزمخشري[4] أيضاً وأشار إليه في تفسيره.

وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة، والتي أشار إليها النسفي في تفسيره فعثرت على سبعة أحكام منها وهي:

١ ـ زيادة حرف لأجلها:

ولهذا السبب ألحقت الألف بـ (الظنون) من قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾[الأحزاب: ١٠] قال النسفي: «قرأ أبو عمرو وحمزة الظنون بغير ألف في الوَصْل والوقف، وهو القياس، وبالألف فيهما مدني وشامي، وأبو بكر، إجراء

---

(١) فقد عرّف الفاصلة القرآنية الدَّانِيُّ، وابن منظور في اللسان مادة (فَصَلَ) والرُّمانِيُّ والجعبري والقاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن، والزركشي في برهانه، والسيوطي في الإتقان. انظر: البرهان: ١/ ٥٣ وما بعدها، والإتقان: ٢/ ١٢٤ وما بعدها، إعجاز القرآن للباقلاني: ص٢٧٠، والنكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ص٨٩.

(٢) البرهان: ١/ ٥٣.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ٣١٤.

(٤) الكشاف: ٣/ ٢٤٨.

للوصل مجرى الوقْف، وبالألف في الوقف مكي وعلي وحفص، ومثله الرسولا والسبيلا، زادوهما في الفاصلة كما زادها من قال:

أقلّـي اللّـومَ عـاذلَ والعتابـا[1] . . . .

وقد علّل من أيد هذا الرأي زيادتها بقوله: «ولما كانت فواصل هذه السورة ألفات منقلبة عن تنوين في الوقف، زيد على النون ألف تساوي المقاطع، وتناسب نهايات الفواصل ومثله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ و﴿وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾[الأحزاب: ٦٦]»[2].

وأنكر بعض المغاربة ذلك وقالوا: «لم تزد الألف لتناسب رؤوس الآي كما قال قوم؛ لأن في سورة الأحزاب ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ وفيها ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ وكل واحدة منها رأس آية، وثبتت الألف بالنسبة إلى حالة أخرى غير تلك الحالة في الثاني دون الأول، فلو كان لتناسب رؤوس الآي لثبت في الجميع»[3].

٢ ـ تقديم ما حقه التأخير:

وهو ما رآه في قول الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[طه: ٧٠][4] قال:

---

(١) هذا صدر البيت وعجزه:

. . . . وقـولي إن أصـبْتُ لقـد أصـابا

إذا غَـضِبَت علـيّ بنـو تمـيم وجـدت النـاس كلهـم غـضابا

والبيتان لجرير من البحر الوافر، النسفي: ٣/ ٢٩٦.

(٢) البرهان: ١/ ٦١.

(٣) البرهان: ١/ ٦١.

(٤) بينما رأى الباقلاني أن التقديم والتأخير كان لأمر آخر وهو: «أن إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفـة تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر به الفصاحة وتتبين به البلاغة»، إعجاز القرآن: ص٦١.

«وإنما قدّم هارون هنا، وأخّر في الشعراء محافظة على الفاصلة، ولأن الواو لا توجب ترتيباً»(١).

٣ ـ إفراد ما حقّه التثنية:

ومن هذا القبيل قول الله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾[طه: ١١٧ ـ ١١٨] قال: «فتتعب في طلب القوت، ولم يقل فتشقيا مراعاة لرؤوس الآي»(٢).

٤ ـ العدول عن صيغة الماضي إلى المضارع:

وهو ما رآه في قول الله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[البقرة: ٨٧] قال: «ولم يقلْ قتلتم لوفاق الفواصل»(٣).

٥ ـ الانتقال من الإفراد إلى الجمع:

وهو ما نراه في قول الله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[آل عمران: ٢٢] قال: «جُمِعَ لوقف رؤوس الآي، وإلاّ فالواحد النكرة في النفي يعم»(٤).

٦ ـ العدول عن الجملة الفعلية:

ومن هذا القبيل قول الله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣] قال: «والعدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية لرؤوس الآي»(٥).

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٥٩.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٦٨.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٦١.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ١٥١.

(٥) تفسير النسفي: ٢/ ٩١.

٧ ـ إيراد أحد القسمين غير مطابق للآخر:

وهو ما نراه في قول الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦] قال: «لا نقبل كلامك ودعوتك أوعظت أم سكت، ولم يقل أم لم تعظ لرؤوس الآي»[١].

٥ ـ تخريج بعض الآيات على اللهجات العربية:

وقد يخرّج النسفي بعض آيات القرآن على بعض اللهجات العربية، ومن هذا ما قاله في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾[طه: ٤٠] قال: «قيل الغم: القتل، بلغة قريش»[٢].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[الأنبياء: ٣٧] فقال: «وقيل العَجَل: الطين بلغة حِمْير قال شاعرهم:

والنّخل ينبت بين الماء والعَجَلِ»[٣]

وخرّج آيات أخرى على لغة اليمن[٤]، وأهل عُمان[٥]، وقوم من النخع[٦] وهذيل[٧].

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ١٩١.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٥٩.

(٣) هذا عجز البيت وصدره:

النبع في الصخرة الصماء مَنْبِتُه، والبيت من البحر البسيط.

(٤) فسر قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ قال: «هو القرن بلغة اليمن» تفسير النسفي: ٢/ ١٩.

(٥) تفسير النسفي: ١/ ٦٥، و٢/ ٢٢١ فهم يسمون القاضي فتّاحاً، والخمر عنباً.

(٦) تفسير النسفي: ٢/ ٢٥٠.

(٧) تفسير النسفي: ٢/ ٢٠٥.

٦ ـ تخريج بعض الآيات على الأمثال العربية:

وقد تحدثنا عن هذا في حديثنا عن منهجه[1] في الاستشهاد.

٧ ـ التضمين:

والنسفي يرى أنه قد يأتي في القرآن مستحسنا ما يُعَدُّ في الشعر عيباً، ومن هذا ما يشبه التضمين في الشعر، وهو ما رآه في قول الله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ فقال: «متعلق بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾[قريش: ٣][2] أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين، ودخلت الفاء في الكلام من معنى الشرط، أي: أن نِعَمَ الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة، أو بما قبله؛ أي: فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، يعني أن ذلك الإتلاف لهذا الإيلاف، وهذا كالتضمين في الشعر، وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصّح إلاّ به، وهما في مصحف أُبَيّ سورة واحدة بلا فصل»[3].

ج ـ منهجه التربوي:

وكما عني النسفي بالنواحي الأدبية والعقلية اهتم بالنواحي التربوية اهتمام الزمخشري بها، وحاول أن يجعل من أهداف تفسيره التوجيه إلى بعض الجوانب الأخلاقية والتربوية موجهاً الفرد تارة، والمجتمع تارة أخرى، متبعاً في ذلك مجموعة من الأساليب التربوية.

---

(١) ارجع إلى ص٢٣٠.

(٢) فقد عد أبو هلال العسكري التضمين عيباً، وجعله ابن المعتز من محاسن الكلام. انظر: الصناعتين: ص١٣، ومعجم البلاغة العربية: ١/ ٤٣٧.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ٣٧٨.

أ ـ توجيه الفرد:

والنسفي في توجيهه للفرد يغلب عليه طابع التوجيه والإرشاد، وقد يعتمد أحياناً أسلوب الترغيب والترهيب، فقد دعا الفرد إلى إعداد النفس وتوطينها قبل المفاجأة، وذلك من خلال تفسير قول الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّـٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾[البقرة: ١٤٢] قال: «وفائدة الإخبار بقولهم قبل وقوعه، توطين النفس إذ المفاجأة بالمكروه أشد، وإعداد الجواب قبل الحاجة إليه أَقْطع للخصم، فقبل الرمي يراش السهم»(١).

كما دعاه إلى التأدب بأدب القرآن في الكتاب في حديثه، وذلك من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[البقرة: ٢٢٣] قال: «من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، فعلى كل مسلم أن يتأدب بها ويتكلّف مثلها في المحاورات والمكاتبات»(٢).

وإلى الاستعانة على كيد العدو بالصبر والتقوى، وقد استخلص هذا من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[آل عمران: ١٢٠] قال: «هذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى، وقال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك»(٣).

ويشيد بدعوة القرآن والسنة إلى الاقتصاد في الأكل والشرب في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[الأعراف: ٣١](٤) قال: «عن ابن عباس رضي الله عنهما:

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٧٩.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١١٢، انظر: الكشاف: ١/ ١٣٤.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٧٨.

(٤) تفسير النسفي: ٢/ ٥٠ ـ ٥١، انظر: الكشاف: ٢/ ٦٠.

كلْ ما شئت واشربْ ما شئت، والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة، وكان للرشيد طبيب نصراني حاذق فقال لعلي بن الحسن بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان، فقال له علي: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه وهو قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ فقال النصراني: ولم يَرِدْ عن رسولكم شيء في الطب، فقال: قد جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة وهي قوله ﷺ (المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وأعط كل بدن ما عودته)، فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً»[1].

ويدعو الفرد إلى ضرورة أخذ العلم[2] عن أهله، وإلى عدم الإطالة[3] في الجلوس، ووجوب السكوت[4] عن السفهاء، إضافة إلى مجموعة أخرى من الأخلاق الفاضلة كاحترام[5] الأب، والتوكل على الله[6]، وضرورة الهجرة[7] من أجل إقامة الدين، وآداب[8] الاستئذان واحترام رجال العلم[9].

---

(١) والحديث لم أجده في كتب الحديث، ووجدته بلفظ آخر (المعدة حوض البدن) مجمع الزوائد (باب في المعدة): ٥/ ٨٦ وتخريجه ثمة.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢٧١.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ٣١١.

(٤) تفسير النسفي: ٣/ ٣٣.

(٥) تفسير النسفي: ٣/ ٣٧.

(٦) تفسير النسفي: ٤/ ٢٦٦.

(٧) تفسير النسفي: ١/ ٢٤٦.

(٨) تفسير النسفي: ٣/ ١٣٩.

(٩) تفسير النسفي: ٣/ ٢٠.

٢ ـ الترغيب والترهيب:

وكما اتبع النسفي أسلوب التوجيه لم يخل تفسيره من عنصري الترغيب والترهيب اللَّذين اتبعهما أحياناً في تفسيره، فهو يحذر مثلاً من كشف العورة، وجعلها من عظائم الأمور ودعا إلى هذا من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا﴾[الأعراف: ٢٠] قال: «وفيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور، وأنه لم يزل مستقيماً في الطباع والعقول»(١).

وحذّر أيضاً من أكل ما لم يُذكر عليه اسم الله من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٢١] قال: «ومن حقّ المتديّن أن لا يأكل ممّا لم يذكر عليه اسم الله لما في الآية من التشديد العظيم»(٢).

وقد يجد في آيات القرآن مجالاً لترغيب الفرد ببعض الصفات الفردية، فحبب إليه الزينة للصلاة من خلال قول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] قال: «وقيل الزينة: المشط والطيب، والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئاته للصلاة؛ لأن الصلاة مناجاة الرب فيَستحب لها التزين والتعطر، كما يجب التستر والتطهر»(٣).

وهو بعد ذلك يحض الناس على القتال من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[آل عمران: ١٤٥] فالحذر لا ينفع ولا يموت أحد قبل بلوغ أجله قال: «وفيه تحريض على الجهاد وتشجيع على لقاء العدو، وإعلام

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٤٨.
(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٣١.
(٣) تفسير النسفي: ٢/ ٥٠.

بأن الحذر لا ينفع، وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله وإنْ خاضَ المهالك واقتحمَ المعارك»[١].

ب ـ توجيه المجتمع:

ولم يكتف النسفي بتوجيه الفرد، بل توجه إلى توجيه المجتمع، وإلى نقد ما فيه من عادات وأخلاق فاسدة، فهو يتحسر على مجتمعه لتركهم النهي عن المنكر من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٩] قال: «وفيه دليل على أن ترك النهي عن النكر من العظائم، فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عنه»[٢].

والغالب على نقده للمجتمع النقد الخفي المستور، فهو ينقد نظرة مجمعه المادية وتقويمه الفاسد للفرد، فميزان الإنسان مَالُهُ ناسين أن الأسباب الدنيوية لا تعطي الإنسان وزناً ولا قيمة، ولا تقرب من الله أحداً بل تبعده منه، وقد أعلن هذا في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[هود: ٢٧] قال: «وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية، ولأنهم كانوا جهّالاً فما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال، ألا ترى أن أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم، ولقد زلَّ منهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله، وإنما يبعده، ولا يرفعه بل يضعه»[٣].

ويلمح غلبة الشحّ على أهل زمانه فينعى على مجتمعه ذلك ويجد مجالاً

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٦٨.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢٩٧.

(٣) تفسير النسفي: ٢/ ١٨٥، الكشاف: ٢/ ٢١٣.

لهـذا الأمر في أثنـاء تفسير قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ . . .﴾[النور: ٦١] قال: «أما الآن فقد غلب الشحّ على الناس فلا يُؤْكَلُ إلاّ بإذن»(١).

كما يتألم النسفي من انتشار الشائعات وذيوعها، ويتمنى لو يجد في مجتمعه من يسمع فيسكت ويستر عيوب إخوانه، أشار إلى هذا في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[النور: ١٢] قال: «وهـذا من الأدب الحسن الذي قلّ القـائم به والحافظ له، وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه بإخوانه»(٢).

* * *

(١) تفسير النسفي: ٣/ ١٥٥.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ١٣٥، الكشاف: ٣/ ٦٥.

الفصل الخامس

منهجه البلاغي ورأيه في إعجاز القرآن

قبل الحديث عن رأي النسفي في إعجاز القرآن وبلاغته لا بد من الإشارة إلى ما نعنيه بالبلاغة وإلى أهميتها في بيان إعجاز القرآن.

معنى البلاغة وأهميتها في بيان إعجاز القرآن:

وما نريده بالبلاغة علومها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع لا الملكات العربية السليمة الناطقة بمأثور بلاغات العرب من شعر ونثر، ولعل الباعث الحقيقي على تدوين أصول البلاغة هو انحراف الملكات وفساد الأذواق، مما حدا بعلماء العربية إلى وضع ميزان سليم لوزن بلاغة الكلام وبيان صحته، إضافة إلى باعث ديني لهذا العمل وهو فهم أسرار إعجاز القرآن وإقامة الأدلة العلمية عليه، وألّف كتابُ أبي عبيدة (٢٠٧هـ) بداية هذه المؤلفات، ثم جاء بعده الجاحظ (٢٢٥هـ) فحاول فهم البلاغة وبيان معناها فألف كتابه البيان والتبيين، كما ألف ابن قتيبة (٢٧٦هـ) كتابه تأويل مشكل القرآن، إلاّ أنّ أوّل مؤلَّف بلاغي مستقل هو كتاب البديع لابن المعتز (٩٦هـ) ثم تتابعت الدراسات البلاغية من بعده، ووصلت إلى القمة بمؤلفات الإمام عبد القاهر الجرجاني، وكان مَنْ بعده عالة عليه، وقد حاول هؤلاء جميعاً الإستعانة بهذا الفن على معرفة أسرار الإعجاز في القرآن، وأشار الكثيرون منهم إلى أهمية هذا العلم في هذا الميدان ومن المفيد أن نذكر أقوال بعضهم، ملتزمين الترتيب التاريخي لأصحابها ويأتي في مقدمتهم:

أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ) قال: «وإنما يعرفُ فضلَ القرآن مَنْ أَكْثَرَ نظره فيه واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في

الأساليب، وما خصت به لغتها دون جميع اللغات»[١].

وقال أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ): «اعلم ـ علمّك الله الخير ودلَّكَ عليه وقيّضه لك، وجعلك من أهله ـ أنّ أحقّ العلوم بالتعلم، وأولاها بالتحفظ ـ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه ـ علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحق، الهادي إلى سبيل الرشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة، التي رفعت أعلام الحق وأقامت منار الدين، وأزالت شُبَهَ الكفر ببراهينها، وهتكت حجب الشك بيقينها.

وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلَّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصَّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف. . .»[٢].

أما الإمام عبد القاهر الجرجاني فقد أشار إلى أهمية البلاغة للمفسّر فقال: «ومن عادة قوم مِمَّن يتعاطى التفسير بغير علم، أن توهموا أبداً في الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها ـ أي على الحقيقة ـ فيفسدوا المعنى بذلك، ويُبْطلوا الغرضَ، ويمنعوا أنفسهم والسامعَ منهم العلمَ بموضع البلاغة، وبمكان الشرف، وناهيك بهم إذا هم أخذوا في ذكر الوجوه، وجعلوا يكثرون في غير طائل، هنالك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه، وزند ضلالة قد قدحوا به»[٣].

ونختم هذه الأقوال بما قال السكاكي في مفاتحه (ت٦٢٦هـ): «لا علم في باب التفسير بعد علم الأصول، أَقْرَأ على المرء لمراد الله من كلامه من علمي

(١) تأويل مشكل القرآن: ص٢٢ ـ ٢٣.

(٢) كتاب الصناعتين: ص٧.

(٣) دلائل الإعجاز: ص٢٣٦.

البيان والمعاني، ولا أعونَ على تعاطي تأويل متشابهاته، ولا أنفعَ في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشفَ للقناع عن وجه إعجازه، ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها، واستُلِبَتْ ماءها ورونَقَهَا، إن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها في مآخذ مردودة، وحملوها على محامل غير مقصودة»[1].

وهذا ما دعا العلماء إلى دراسة البلاغة بشكل عام، والبلاغة القرآنية بشكل خاص، ولن أتحدث هنا عن تطور الدراسات البلاغية العامة، إنما سأكتفي بعرض تاريخي موجز لبدايات الدراسات البلاغية القرآنية منذ نشأتها وحتى عصر النسفي.

ويأتي في مقدمة الدراسات:

١ ـ مجاز القرآن لأبي عبيدة معمّر بن المثنى (ت٢٠٩هـ)، وهدفه في كتابه بيـان كيفية التوصل إلى فهم المعاني القرآنية، باحتذاء أساليب العرب في كلامهم وسننهـم في وسائل الإبانـة عن المعـاني، حين أحسّ أن الناس بحاجة إلى وَصْل حاضر الأمة بسالفها بَعْدَ بُعْدِهم عن موطنها الأصلي، وقد أطلق أبو عبيدة لفظ المجاز وأراد به معناه اللغوي وهو المعبر أو الطريق والممر إلى تفسير آيات القرآن، فكأن مجاز القرآن عنده هو طريق الوصول إلى فهم المعاني القرآنية، ويستوي عنده أن يكون طريق ذلك تفسير الكلمات اللغوية التي تحتاج إلى تفسير بالجملة الموضحة، أو بالمرادف المفسر من المفردات، ومن أمثلة هذا قوله في تفسير قوله تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾[التوبة: ٢٨] قال: هي مصدر عال فلان: أي افتقر، فهو يعيل.

٢ ـ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، وفيه رَدٌّ على طعن الطاعنين، وشبهات الملحـدين قال في مقدمتـه: «وقد اعترض كتـابَ الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه

---

(١) مفتاح العلوم: ص٤٢١ ـ ٤٢٢.

وهجروا، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرّفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة واللحن وفساد النظم والاختلاق، وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغُمْر، والحَدَثَ الغِرّ، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور. . . إلى أن يقول: «فأحببت أن أنضح عن كتاب الله وأرمي من ورائه بالحجج النيّرة، والبراهين البينة، وأكشف للناس ما يلبسون، فألفت هذا الكتاب جامعاً لتأويل مشكل القرآن»[١] وقد عني بما في القرآن من وجوه المجاز لأن أكثر غلط المتأولين كان من جهته.

٣ ـ كتاب في إعجاز القرآن البلاغي لأبي عبدالله محمد بن يزيد الواسطي (ت٣٠٦هـ)، سار فيه مؤلفه كما يقول محقق كتاب بديع القرآن على نظرية من يقول: «إن بلاغة القرآن أصل في إعجازه»[٢] والكتاب مفقود.

٤ ـ النكت في إعجاز القرآن: للرّماني (ت٣٨٦هـ)، ورأى فيه أن إعجاز القرآن كان من سبع جهات «ترك معارضته مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصَرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة»[٣].

٥ ـ بيان إعجاز القرآن لحَمَد بن إبراهيم بن خطّاب البُستي (ت٣٣٨هـ)، ورأى فيه صاحبه أن القرآن «صار معجزة لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضّمناً أصحّ المعاني من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له عن صفاته،

---

(١) تأويل مشكل القرآن: ص٢٢ ـ ٢٣.

(٢) انظر: مقدمة بديع القرآن: ص٤٧.

(٣) النكت في اعجاز القرآن: ص٦٩ (ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن).

ودعاء إلى طاعته»[١].

٦ ـ إعجاز القرآن للباقلاني (ت٤٠٣هـ).

٧ ـ كتاب عن مجازات القرآن للشريف الرضي (ت٤٠٦هـ).

٨ ـ إلاّ أن قمة هذه المؤلفات والدراسات تجلّت في مؤلفات الإمام عبد القاهر[٢] الجرجاني ـ رحمه الله ـ متمثلة في كتابيه «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» الذي درس فيه قوانين علم البلاغة ـ علم المعاني وعلم البيان ـ أما كتابه الدلائل فكان تطبيقاً عملياً لفنون البلاغة، وحاول فيه أن يثبت بلاغة القرآن لإثبات إعجازه وهو في كتابيه لا يهتم بعلم البديع ـ وهو الفرع الثالث من علوم البلاغة ـ كما حددها السكاكي فيما بعد ـ وإن أشار إلى بعضه ـ لأنه يرى أن فَنَّ البديع فن التكلف، ولا يهمه منه إلاّ ما جاء مؤتلفاً مع المعنى خادماً له، مسوقاً لبيانه، وبهذا استطاع الإمام الجرجاني بكتابيه هذين أن يقرر قواعد هذا العلم الذي لقي من الضيم مالم يلقه[٣] علم آخر، ومني من الحَيْف بما مُني به، ودخل الناس من الغلط في معناه ما دخل عليهم فيه ـ على الرغم من أهميته وشرفه ـ فأراد الجرجاني أن يوفيَّه حقه ويقرر قواعده تقريراً يليق به، وكان عمله هذا أساساً للدراسة البلاغية فيما بعد، وقد أثمرت هذه النظرية ثمارها على يد الإمام الزمخشري في كتابه الكشاف.

٩ ـ الكشاف: لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ويأتي

(١) بيان إعجاز القرآن: ص٢٤ ـ ٢٥.

(٢) وهو عبد القاهر بن عبد الرحمن أبو بكر الجرجاني النحوي والبلاغي المشهور (ت٤٧١هـ) انظر ترجمته في: فوات الوفيات: ٢/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠، رقم الترجمة ٢٩٣، وبغية الوعاة للسيوطي: ٢/ ١٠٦، رقم الترجمة ١٥٥٧، وإنباه الرواة للقفطي: ٢/ ١٨٨ ـ ١٩٠.

(٣) دلائل الإعجاز: ص٥.

الزمخشري في تفسيره الكشاف ليكون خير تطبيق على ما اهتدى إليه الإمام الجرجاني ـ رحمه الله ـ من قواعد علمي المعاني والبيان ولم يعن بعلم البديع ـ كما فعل الجرجاني قبله لما ذكرناه قبل قليل ـ ولذا لم يتعرض لِمَا ورد منه في آيات القرآن إلاّ عَرَضاً، وذلك لأنه لم يعدّ هذا العلم أصلاً قائماً بذاته، مستقلاً عن غيره بل عدّه تابعاً كما فعل الجرجاني، الذي جاء كلامه عن بعض فنونه في معرض الاستدلال على نظريته القائلة: إن الألفاظ ليست لها مزية ذاتية في الكلام من حيث هي ألفاظ، وإنما المزية تأتي دائماً من قبل التراكيب وصورة نظمها وتأليفها، فذكر بعض فنونه في معرض الاستدلال على نظرية النظم، التي وُجِدَت عند الزمخشري أيضاً، فلم يقف إلاّ على علمي البيان والمعاني، وإن أشار إشارات خفيفة إلى ما ورد في بعض آي القرآن من فنون البديع مثل: الطباق[١] والمشاكلة[٢] واللف والنشر[٣] والالتفات[٤].

وبدا الزمخشري رجل بيان لا بديع في ميدان البلاغة، وكان هدفه من وراء دراسته كلها بيان أثر هذه العلوم في بلاغة القرآن وإعجازه، ولم يكن القصد منها خدمة مباحث هذا العلم فقط، فعلى الرغم من أنه لم يؤلف كتاباً بلاغياً استطاع أن يعالج البلاغة القرآنية من طريقٍ عِلْمِيٍّ آخر هو طريق التفسير على طريقة علماء البلاغة، فكان تفسيره منفرداً بهذه الصفة.

---

(١) الطباق: هو: الجمع بين المتضادين، أي معنين متقابلين في الجملة: الإيضاح: ص٤٧٧.

(٢) المشاكلة: وهو ذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً. معترك الأقران: ١/ ٤١١.

(٣) اللف والنشر: هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال. ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين، ثقةً بأن السامع يرده إليه. الإيضاح: ص٥٠٣.

(٤) الالتفاف: وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، أي من التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر. معترك الأقران: ١/ ٣٧٧.

حديثنا عن هذين العلمين يدعونا إلى التوقف عند نظرية الإمام عبد القاهر الجرجاني في إعجاز القرآن، هذه النظرية التي أخذ بها الزمخشري في تفسيره، وسار على مبادئها، كما يدعونا هذا الأمر إلى التوقف عند هذه المرحلة لما وجدناه من تأثر النسفي الواضح ونقله الدائم عن الزمخشري، مما يجعل الخوض في مرحلة تالية من الأمور التي لا جدوى لها، ومن المفيد تلخيص نظرية الإمام الجرجاني في إعجاز القرآن، ورأي الزمخشري ليكونا مفتاحاً للحديث عن رأي النسفي في إعجاز القرآن ونظراته البلاغية التي بثها في تفسيره.

أ ـ عبد القادر الجرجاني وإعجاز القرآن:

ونظرية الإمام الجرجاني موجودة في كتابه دلائل الإعجاز، وتقوم بالدرجة الأولى على الاهتمام بالمعنى لا اللفظ، إذ لا يمكن أن يكون اللفظ حسناً في ذاته من غير نظر إلى المعنى، وبقوله هذا قَلَبَ النظرية من اهتمام باللفظ إلى اهتمام بالمعنى واللفظ، وأقام نظريته على أساسه هذا.

وتتلخص نظرية الجرجاني بما يلي:

١ ـ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة اللفظة لمعنى اللفظة التي تليها، أو ما أشبه ذلك ممّا لا تعلق له بصريح اللفظ[١].

٢ ـ لا يعني النظم ضم الشيء إلى الشيء كما قال الخفاجي[٢] كيف جاء واتفق، ولكنّ النظمَ هو أن تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نَظْمٌ يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض قال:

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز: ص٣٨.

(٢) انظر: سر الفصاحة: ص٦٦.

«واعلم أنه لا يتصور أن تعرف لِلفَّظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى الترتيب في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تمّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ، وقفوت بها آثارها، وإنك إذا فرغت في ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها، ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق»(١).

٣ ـ المزية الجمالية في الكلام تقع في المعاني لا في الألفاظ قال: «وجملة الأمر: أنك لن تعلم في شيء من الصناعات علماً تمُر فيه وتجلي، حتى تكون ممّن يعرف الخطأ فيها من الصواب، ويفصِلُ بين الإساءة والإحسان، بل حتى تفاضل بين الإحسان والإحسان، وتعرف طبقات المحسنين، وإذا كان هذا هكذا علمت أنه لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب بها قياساً ما، وأن تصفها وصفاً مجملاً، وتقول فيها قولاً مرسلاً، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصل القول وتحصل، وتضع اليد على الخصائص التي تُعرضُ في نظم الكلم، وتعدها واحدة واحدة، وتسميها شيئاً شيئاً، وتكون معرفتك معرفة الصانع الحاذق. . . وإذا نظرت إلى الفصاحة هذا النظر وطلبتها هذا الطلب احتجت إلى صبر على التأمل، ومواظبة على التدبر، وإلى همة تأبى لك أن تقنع إلاّ بالتمام، وأن تربع إلا بعد بلوغ الغاية»(٢).

٤ ـ لا سبيل إلى وضع اليد على الخصائص الجمالية لنظم الكلم، والاستعانة بها في بحث إعجاز القرآن، وتعرف سماته الجمالية إلا بالاستقراء الأدبي قال: «إن

(١) دلائل الإعجاز: ص٤٤.

(٢) دلائل الإعجاز: ص٣٠ ـ ٣١.

الجهة التي منها يقف، والسبب الذي به يعرف، استقراء كلام العرب وتتبع أشعارهم والنظر فيها»[١].

٥ ـ السبيل إلى معرفة الإعجاز القرآني هو السبيل الأدبي والإعجاز عنده في النظم والتأليف: «ولا يمكن أن تجعلَ الاستعارةَ الأصل في الإعجاز وأن يقصد إليها، لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آي معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة، وإذا امتنع ذلك فيها لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف»[٢].

٦ ـ النظم ـ عند الجرجاني ـ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلَّ بشيء منها[٣].

٧ ـ لا يعني النظم إخراج ما في القرآن من الاستعارة وضروب المجاز من جملة ما هو به معجز، فذلك لا مساغ له قال: «... قيل ليس الأمر كما ظننت، بل ذلك يقتضي دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجز، ذلك لأن هذه المعاني التي هي الإستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم، وعنها يحدث، وبها يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يُتَوَخَّ فيما بينها حكم من أحكام النحو»[٤].

إذاً إعجاز القرآن عند الجرجاني بنظمه وتأليفه، وهذا ما دعاه إلى دراسة ما هو من مقتضيات النظم في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة. فما هو رأي الزمخشري

(١) دلائل الإعجاز: ص٣٣.

(٢) دلائل الإعجاز: ص٣٠٠.

(٣) دلائل الإعجاز: ص٦٤ ـ ٦٥.

(٤) دلائل الإعجاز: ص٣٠٠ ـ ٣٠١.

في إعجاز القرآن؟

ب ـ رأي الزمخشري في إعجاز القرآن وبلاغته:

هذه النظرية ـ نظرية النظم ـ التي وضع أسسها الإمام عبد القاهر الجرجاني، وجدت تطبيقاتها العملية في تفسير الزمخشري ـ الكشاف على الرغم من أن الزمخشري لم يشر في تفسيره إلى الجرجاني إلا مرة[١] واحدة ـ فأشار إلى ما في آيات القرآن من فنون البلاغة واهتم بعلمي البيان والمعاني، وأشار أحياناً ـ كما ذكرنا قبل قليل ـ إلى ما فيها من فنون علم البديع، وقد أشار الزمخشري صراحة إلى رأيه في إعجاز القرآن في موضعين من تفسيره، كان أولهما في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[يونس: ٣٩] قال: «يعني أنه كتاب معجز من جهتين من جهة إعجازه بنظمه، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب»[٢].

وثانيهما في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[هود: ١٤] فقال: «أي أُنزِلَ ملتبساً بما لا يعلمه من نظم معجز للخلق وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليها»[٣].

وجعل النظم أم إعجاز القرآن قال: «والنظم هو أم إعجاز القرآن والقانون الذي وقع عليه التحدي، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر»[٤].

أما بلاغة القرآن، فليس من الضروري ـ كما قال الزمخشري ـ أن يأتي دائماً بالأبلغ ففي القرآن البليغ والأبلغ قال: «ليس بواجب أن يجيء بالآكد في كل موضع،

(١) انظر: الكشاف: ٤/ ٢٥.

(٢) الكشاف: ٢/ ١٩١.

(٣) الكشاف: ٢/ ٢١٠.

(٤) الكشاف: ٢/ ٤٣٣.

ولكن يجيء تارة بالوكيد، وبالآكد أخرى، كما يجيء بالحسن في موضع، وبالأحسن في غيره ليفتن الكلام افتناناً»[١].

ولن أتعرض بشكل مفصّل لذكر الإشارات البلاغية عند الزمخشري، وسأكتفي بعرض هذه الإشارات عند النسفي، والإشارة إلى موطن وجودها في تفسير الزمخشري، لما سنجده من تأثر النسفي الواضح، ونقله الدائم لنظرات الزمخشري البلاغية.

ج ـ رأي النسفي في إعجاز القرآن وبلاغته:

وفي حديثنا عن رأي النسفي في إعجاز القرآن وبلاغته، نلمس تأثر النسفي الواضح بالزمخشري الذي اهتم بهذه الناحية اهتماماً واسعاً خلافاً لسابقيه، ممّا جعل تفسيره الكشاف يمتاز بهذه الميزة على سواه من التفاسير، كما سنلمح شخصية المفسر الذي دفعته غيرته الدينية ودفاعه عن كتاب الله، وإيمانه بأهمية البلاغة في بيان إعجاز القرآن إلى أن يشير إلى مافي آيات القرآن الكريم من فنون البلاغة، ليثبت من ورائها إعجاز القرآن كما فعل قبله الزمخشري في كشافه مقتدياً بعمل الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمهم الله.

فعناية النسفي إذاً بالبلاغة لم تكن عناية بهذا العلم فحسب، بل كان يدفعه إلى ذلك الدافع الديني، والغيرة على كتاب الله، كما كان هدف الزمخشري قبله مما دعاه إلى نقل كل ما قاله الزمخشري الذي وصلت البلاغة التطبيقية على يديه الذروة، وإلى النظر إليه نظرة الإعجاب والتقدير لأقواله ونظراته البلاغية، وإن كان في أثناء نقله عنه يحذف بعض الشواهد[٢]، أو يختصر[٣] ما قاله الزمخشري في آيات القرآن،

---

(١) الكشاف: ٣/ ٣.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ٣٢٤، ٤٢٥، الكشاف: ٣/ ٢٥٦، و٣/ ١٧١، الكشاف: ٣/ ١٠١.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ٣٠٢، الكشاف: ٢/ ٣٤٦.

أو يعلل وجه[١] الحسن في بعض الآيات التي لم يعللها الزمخشري، أو يستحسن[٢] وجهاً لم يستحسنه، أو يضيف أشياء توحي بفهمه[٣] لما ينقله وقناعته به، وهذا ما وجدناه في أثناء تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[البقرة: ٢٢٨][٤].

وقد ينقل غير ما قاله الزمخشري في بعض آيات القرآن، وهذا ما وجدناه فقط في ثلاثة مواضع من تفسيره الأول في حديثه عن قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤] قال: «والنظر في هذه الآية من أربع جهات» من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها، فنقول إن الله تعالى لمّا أراد أن يبين معنى أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتدَّ، وأن تقطع طوفان السماء فانقطع، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغيض وأن نقضي أمر نوح وهو إنجاز ما كنا وعدناه من إغراق قومه فقضي، وأن نسوي السفينة على الجودي فاستوت وأبقينا الظَلَمَةَ غَرْقىَ، بُنِيَ الكلام على تشبيه المراد بالأمر الذي لا يتأتى منه لكمال هيبته العصيان وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ في تكون المقصود تصويراً لاقتداره العظيم. . . إلى أن يقول: ومن جهة علم المعاني: وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها، وذلك أنه اختير «يا» دون أخواتها لكونها أكثر استعمالاً، ولدلالتها على بعد المنادى. . . ومن جهة

---

(١) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٢٧٤، والكشاف: ٣/ ٢٠٥.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٧٤، الكشاف: ٣/ ٦.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٦ ـ ٤/ ١٧٩.

(٤) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١١٣، الكشاف: ١/ ١٣٧.

الفصاحة المعنوية: وهي كما ترى نظمٌ للمعاني لطيفٌ، وتأدية لها ملخصة مبينة لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد، ولا التواء يشيك الطريق إلى المرتاد، ومن جهة الفصاحة اللفظية، فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة سليمة من التنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة على العذبات سلسة على الأسَلات، كلٌّ منها كالماء في السلاسة وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرقة، ومن ثم أطبق المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية، ولله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر، ولا تظنن الآية مقصورة على المذكور فلعل المتروك أكثر من المسطور»[١].

كما لم يقنع بما قاله الزمخشري في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان: ٢٣][٢] فقال فيها غير ما قاله الزمخشري[٣] وهو ما فعله أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾[مريم: ٤][٤] أيضاً.

وهو يفصّل[٥] ما قاله الزمخشري، أو يضيف إشارات[٦] بلاغية لم يذكرها الزمخشري في تفسيره، مما يشير إلى أن النسفي وإن كان ينقل ما قاله الزمخشري، إلا أن هـذا لا يعني أن نقله عنـه كان لجهله بعلم البلاغة وفنونها، إنما نقول: إن نقله كان ناجماً عن إعجابـه بأقـوال وإشـارات الزمخشري البلاغية، وقناعته بأن

(١) تفسير النسفي: ٢/ ١٨٩ ـ ١٩١.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ١٦٣.

(٣) انظر: الكشاف: ٣/ ٩٤.

(٤) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٢٨، والكشاف: ٢/ ٤٠٥.

(٥) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٢٩٤، الكشاف: ٣/ ٢٢٧.

(٦) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ٩، و٣/ ١٩٩، و٤/ ٢٧٥، ٣٥٤، ٣٧٤ مثلاً.

ما وصل إليه من تطبيقات عملية على نظرية الإمام الجرجاني هو خير ما يهتدي إليه دارس البلاغة، وهو جدير بالنقل، واقتصر جهده على إضافة ما أغفله الزمخشري، أَوْ سَهَا عنه وينحصر هذا في مواضع قليلة فقط.

إذاً فالنسفي والزمخشري من قبله يعرضان ما ورد في آيات القرآن من الوجوه البلاغية، وقد يبينان كما سنرى حسنها أحياناً إلاّ أنَّ العمل الذي قاما به هو الإشارة إلى ما في الآيات من فنون البلاغة، وقد وجها اهتمامهما إلى علمي المعاني والبيان، أما ما يتعلق بعلم البديع فقد طغت عليهما نظرية الإمام الجرجاني التي نظرت إلى هذا الفن كما ذكرنا على أنه فن تكلف ينزَّهُ القرآن عن مثله، ولذا لم يعرضا منه إلا ما ورد خادماً للمعنى، وتابعاً له، ولاحقاً به.

وعلى هذا نرى أن إعجاز القرآن عند النسفي كما هو عند الزمخشري يرجع إلى نظمه وإخباره عن الغيب، وقدْ صرّح النسفي بهذا في موضعين(١) من تفسيره، كما ورد ذلك عند الزمخشري وفي تفسيره للآيتين نفسهما.

رأيه في بلاغة القرآن:

يرى النسفي أن في القرآن بليغاً وأبلغ، وهو ما ذهب إليه الزمخشري(٢) قبله كما رأينا، وذهب إليه الخفاجي أيضاً حيث قال: «أما زيادة بعض القرآن على بعض في الفصاحة، فالأمر فيه ظاهر لا يخفى على من علق بطرف من هذه الصناعة، وشدا شيئاً يسيراً، وما زال الناس يفردون مواضع من القرآن يعجبون منها في البلاغة وحسن التأليف كقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾(٣).

(١) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ١٦٤، ١٨٢.

(٢) الكشاف: ٣/ ٣.

(٣) سر الفصاحة: ص٢٦٣.

وهـو في أثناء تفسيره للآيات يتعرض لهذا الأمر، ويشير إلى جمال أسلوبه دائماً، قال مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧] وهو أبلغ من قوله ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾[الزمر: ٣٨] وإنما ذكر المسّ في أحدهما، والإرادة في الآخر كأنه أراد أن يذكر الأمرين: الإرادة والإصابة في كل واحد من الضر والخير، وأنه لا رادّ لما يريد منهما، ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأنْ ذَكَرَ المسَّ وهو الإصابة في أحدهما، والإرادةَ في الآخر ليدل بما ذكر على ما ترك على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾[يونس: ١٠٧]»(١) فهو يفصّل ويعلّل حكمه البلاغي كما رأينا، ويعيّن وجه العلو في مرتبة البلاغة.

وقال في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ: ٢٤] مرجحاً بين بليغ وأبلغ «ولكن التعريض أوصل بالمجادل إلى الغرض، ونحوه قولك للكاذب: إن أحدنا لكاذب، وخُولِفَ في حرفيّ الجرّ الداخلين على الهدى والضلال، لأن صاحب الهدى كأنه مستعلٍ على فرس جواد يركضه حيث يشاء، والضالُّ كأنه ينغمس في ظلام لا يرى أين يتوجه، ثم يتابع قوله: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[سبأ: ٢٥] قال: «وهذا أدخل في الإنصاف من الأول، حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين وهو مزجور عنه محظور، والعملَ إلى المخاطبين وهو مأمور به(٢) مشكور».

وعلى هذا نرى أن إعجاز القرآن عند النسفي بنظمه وإخباره عن الغيب كما

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ١٧٩.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٣٢٥، الكشاف: ٣/ ٢٥٩.

هو الحـال عند الزمخشري وإن كان يرى أن عَدَمَ معارضته[١] ونزوله مفرقاً من[٢] دلائل إعجازه أيضاً، وسأقتصر في حديثي عن هذا الجانب على: إخباره عن الغيب ونظمه لتركيزه الشديد على هذين الجانبين وتصريحه أن هذين الأمرين كانا سرّ إعجاز القرآن الكريم.

أ ـ إخباره عن الغيب:

يرى النسفي كما رأى الزمخشري قبله أن الإخبار عن الغيب معجزة، ودليل على إعجاز القرآن وهو يشير إلى أن إخبار القرآن عن الغيب دليل إعجازه في مواطن[٣] كثيرة من تفسيره. قال مثلاً في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[البقرة: ٢٣ ـ ٢٤] «إنما عُلِمَ أنه إخبار عن الغيب على ما هو به حتى صار معجزة، لأنهم لو عارضوه بشيء لاشتهر فكيف والطاعنون فيه أكثر عَدَداً من الذابّين عنه، وشرط في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله، لأنهم إذا لم يأتوا بها وتبين عجزهم عن المعارضة صحّ عندهم صدق الرسول ﷺ، وإذا صحَّ عندهم صدقه ثم لزمهم العناد، وأبوا الانقياد، استوجبوا النار»[٤].

وقال في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ٩٤ ـ ٩٥] قال: «وهو من

(١) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ١٦٥.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ١٦٦.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٣١، و٢/ ٦٣، ١٠٣، ١١٩، ١٢٧، و٣/ ١٥٩، ٢٦٦، و٤/ ٢٤٢.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٣١.

المعجزات لأنه إخبار بالغيب، وكان أخبر به كقوله ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾[١].

وكذا ما قاله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[الروم: ١ ـ ٤][٢] وفي أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[الحشر: ١١][٣].

ب ـ النظم:

وفي هذا الجانب سأقوم بعرض مفصّل للوجوه البلاغية التي أشار النسفي إلى وجودها في آيات القرآن، والمعاني التي رآها لكل فن من هذه الفنون، وسأشير إلى مكان وجود كل فن منها عند الزمخشري لنقله عنه ـ كما ذكرت قبل قليل ـ وهما في دراستهما البلاغية يختلفان تماماً عن دراسة البلاغيين، مما يجعل الموازنة بين حديثهما وحديثهم من الأمور الشاقة والعمل المضني الذي لا فائدة منه، وسأتبع في هذا التقسيم الثلاثي الذي وضعه السكاكي فيما بعد وأبدأ بعلم المعاني ثم البيان ثم البديع لما ذكرته في مقدمة هذا الفصل.

أ ـ علم المعاني:

وهو كما يعرفه النسفي: «النظر في فائدة كل كلمة فيها» في الآية «وجِهَةُ كل تقديم وتأخير فيما بين جملها»[٤]، فراح يتتبع ما وقع في القرآن من تقديم وتأخير، أو ما عُبِّرَ عنه بالجملة الفعلية أو الاسمية، والمعاني التي خرج إليها الاستفهام في

(١) تفسير النسفي: ١/ ٦٣.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٢٦٥.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ٤/ ٢٤٢.

(٤) تفسير النسفي: ٢/ ١٩٠.

القرآن، وما وجه التكرار الذي وقع في آيات القرآن، كما رأى أن اسم الإشارة أو المصدر أو الفعل قد يضيف إلى الآية معاني لم تكن فيها قبل وجوده، وسنرى هذه المعاني من خلال عرضنا لأقوال النسفي في كل فن من هذه الفنون:

١ ـ الجملة الاسمية والفعلية:

ويرى النسفي في تفسيره أن استعمال القرآن للجملة الفعلية في موضع والاسمية في آخر لم يكن أمراً عادياً، بل فعل ذلك لضرب من ضروب البلاغة والفصاحة، فلكل جملة موقعها الذي يجب أن تقع فيه، وتحمل باستعمالها هذا معنى كبيراً، فالجملة الاسمية آكد من الفعلية وهذا ما رآه في مجموعة من آيات القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾[لقمان: ٣٣] قال فيها: «وارد على طريق من التوكيد ولم يرد عليه ما هو معطوف عليه، لأن الجملة الاسمية آكد من الجملة الفعلية، وقد انضم إلى ذلك قوله ﴿هُوَ﴾ وقوله ﴿مَوْلُودٌ﴾ والسبب في ذلك أن الخطاب للمؤمنين، وعليهم قُبِضَ آباؤهم على الكفر فأريدَ حسم أطماعهم أن ينفعوا آباءهم بالشفاعة في الآخرة، فلذلك جيء به على الطريق الآكد ومعنى التوكيد في لفظ «المولود» أن الواحد منهم لو شَفَعَ للأب الأدنى الذي وُلِدَ منه، لم تقبل منه شفاعته فضلاً أن يشفع لأجداده، إذ الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك»[1].

وهو نفسه ما رآه في قوله تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٠٣] فقد أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية لما فيها من معنى الثبات والاستقرار قال: «أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب «لو» لما فيها من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها، ولم يقل: لمثوبة الله خير لأن المعنى

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٢٨٥، انظر: الكشاف: ١/ ٣٤.

لشيء من الثواب خير لهم، وقيل: لو بمعنى التمني كأنه قيل: وليتهم آمنوا ثم ابتدأ لمثوبة من عند الله خير»[١].

٢ ـ التقديم والتأخير:

وبتبع النسفي لآيات القرآن وجد أن ثمة تقديماً وتأخيراً قد يقع في هذه الآيات، فقد يُقَدَّم الخبر على المبتدأ وهو ما وجده فقط في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾[الحشر: ٢] وقد يُقَدَّم المفعول ولكلٍ من التقديمين أهميته وأثره على المعنى.

ففي تقديم الخبر على المبتدأ في الآية السابقة دليلٌ على فرط وثوقهم بحصانة حصونهم، وعلى اعتقادهم المنعة والعزة لأنفسهم وهو ما لا يفهم من الآية لو لم يكن فيها هذا التقديم والتأخير قال: «أي: ظنوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، والفرق بين هذا التركيب وبين النظم الذي جاء عليه، أن في تقديم الخبر على المبتدأ دليلاً على فرط وثوقهم بحصانتها، ومنعها إياهم وفي تصيير ضمير «هم» اسماً لـ «أنَّ»، وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم، أو يطمع في مغازاتهم، وليس ذلك في قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم»[٢].

ولتقديم المفعول أهمية كبيرة فقد يفيد مثلاً الاختصاص، أو الإشعار بأهميته، وهو ما أشار إليه السكاكي في مفتاحه[٣] أيضاً فقد حَمَلَ تقديم المفعول في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ معنى الاختصاص قال: «وتقديم

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٦٧، انظر: الكشاف: ١/ ٨٦، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ١/ ١٩٣.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٢٣٩، انظر: الكشاف: ١/ ١٣٧.

(٣) مفتاح العلوم: ص٢٣٣ ـ ٢٣٩.

المفعول لقصد الاختصاص)(١) .

أما تقديمه في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾[الأنعام: ١٦٤] فللإشعار بأهميته قال: «والهمزة للإنكار أيَّ مُنْكَرٍ، أي أطلب رباً غيره وتقديم المفعول للإشعار بأنه الأهم»(٢).

٣ ـ التثنية:

والتثنية قد توحي للنسفي بمعان رائعة فالتثنية في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة: ٦٤](٣) توحي للنسفي بمعان، لم تكن للآية في حالة الإفراد يقول: «وإنما ثنيت اليد في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾وهي مفردة في «يد الله مغلولة» ليكون ردُّ قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له، ونفي البخل عنه، فغاية ما يبذله السخي أن يعطيه بيديه»(٤).

وهنا يتجلى دفاعه عن عقيدته ورده على أعدائه ودفع شبهاتهم بشكل واضح.

٤ ـ النسب:

وكما أوحت التثنية للنسفي بمعان جديدة، وجد أن النسب يحمل من المعاني مالا تحمله العبارة قبل دخول ياء النسبة عليها، وهذا ما استوحاه من خلال قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾[المؤمنون: ١١٠] فقد أفادت فيه ياء النسبة معنى

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٧، انظر: الكشاف: ١/ ٩ ـ ١٠، وقد جعله قوم للفواصل، انظر: البرهان: ١/ ٦٣.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٤٣.

(٣) (غير موجودة في الكشاف).

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٢٩١، انظر: الكشاف: ١/ ٣٥١.

المبالغة قال: «إلاّ أن في ياء النسبة مبالغة»(١) ومن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ﴾[الشعراء: ١٩٨ ـ ١٩٩] معنى زيادة التأكيد قال: «جمع أعجم وهو الذي لا يفصح، وكذلك الأعجمي، إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد»(٢).

٥ ـ الإضمار:

ولا يخلوا إضمار الاسم الذي لم يسبق ذكره في بعض آيات القرآن من معنى، فقد يشير إلى فخامة شأن المضمر وهو ما رآه في قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٩٧] قال: «ونحو هذا الإضمار، ـ أعني: إضمار ما لم يسبق ذكره ـ فيه فخامة حيث يجعل لفرط شهرته، كأنه يدل على نفسه، ويكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته»(٣).

وهو معنى الإضمار في قول الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[البقرة: ١٦١ ـ ١٦٢] قال: «فيها في اللعنة أو في النار، إلا أنها أضمرت تفخيماً لشأنها وتهويلا»(٤).

٦ ـ الفعل(٥):

والقرآن قد يستعمل الفعل الماضي للإخبار عن المستقبل، أو المضارع على حكاية الحال الماضية، وهو كثير في القرآن ولكل منهما فوائده ومعناه، قال مثلاً في

(١) تفسير النسفي: ٣/ ١٢٩، انظر: الكشاف: ٣/ ٥٧.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ١٩٦، انظر: الكشاف: ٣/ ١٢٧، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ٢/ ٢٠٢.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٦٤، انظر: الكشاف: ١/ ١٠٥.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٨٦، انظر: الكشاف: ١/ ١٠٥.

(٥) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٤، و٢/ ٢٥٨، و٣/ ٩٧، ٢٣٣، و٤/ ١٥٦.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾[النمل: ٨٧] قال: «اختير (فزع) على (يفزع) للإشعار بتحقق الفزع وثبوته، وأنه كائن لا محالة»(١).

كما يجد في اختيار الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةًۚ﴾ [الحج: ٦٣] معنى الثبوت والدوام وهو ما لا تحمله الآية لو جاءت بلفظ الماضي قال: «إنما صُرِفَ إلى لفظ المضارع، ولم يقل (فأصبحت) ليفيد بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، كما تقول أنعم علي فلان فأروح وأغدو شاكراً له، ولو قلت: خرجت وغدوت لم يقع ذلك الموقع»(٢).

وهو ما يراه أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾[فاطر: ٩] قال: «قيل (فتثير) لتحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصورة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب، وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها لمّا كان من الدليل على القدرة الباهرة، قيل: فسقنا وأحيينا معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه»(٣).

وقد عدّه ابن الأثير(٤) نوعاً من أنواع الالتفات.

٧ ـ اسم الفاعل:

واستعمال صيغة اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٢٢٣، انظر: الكشاف: ٣/ ١٥٤.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ١٠٩، انظر: الكشاف: ٣/ ٣٩.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ٣٣٤، انظر: الكشاف: ٣/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٤) انظر: المثل السائر: ٢/ ١٣، وانظر: علم البديع للدكتور عبد العزيز عتيق: ص١٤٥.

﴿مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾[الحج: ٢] توحي له معنى المبالغة قال: «وقيل (مرضعة) ليدل على أن ذلك الهول إذا حدث وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فِيهِ، لما يلحقها من الدهشة إذ المرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي، والمرضع التي شأنها أن ترضع، وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به»(١).

وقد عدها أبو العسكري من باب(٢) المبالغة.

٨ ـ البدل:

والقصد منه الإيضاح بعد الإبهام، وهو يفيد البيان والتأكيد، والتفصيل بعد الإجمال؛ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾[النساء: ١١] قال: «و(لكل واحد منهما) بدل من (لأبويه) بتكرير العامل، وفائدة هذا البدل أنه لو قيل: ولأبويه السدس لكان ظاهره اشتراكهما فيه، ولو قيل: ولأبويه السدسان لأوهم قسمة السدسين عليهما على التسوية، وعلى خلافها، ولو قيل: ولكل واحد من أبويه السدس لذهبت فائدة التأكيد وهو التفصيل بعد الاجمال»(٣).

كما يرى أن للبدل حكم تكرير العامل، وعدَّه أحد أنواع التوكيد، وهو ما أشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[آل عمران: ٩٧] قال: «وفي هذه الآية أنواع من التأكيد والتشديد منها: اللام و«على»، أي: أنه حق واجب لله في رقاب الناس، ومنها الإبدال: ففيه تثنية للمراد وتكرير له، ولأن

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٩٢، انظر: الكشاف: ٣/ ٢٤.

(٢) انظر: الصناعتين: ص٣٧٨، وعرَّف المبالغة بقوله: «أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته وأبعد نهاياته، ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازلة وأقرب مراتبه».

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٢١ ـ ٢١١، انظر: الكشاف: ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، إيراد له في صورتين مختلفتين، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ مكان ومن لم يحج تغليظاً على تاركي الحج، ومنها ذكر الاستغناء، وذلك دليل على المقت والسخط، ومنها قوله تعالى: ﴿. . . عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وإن لم يقل «عنه»، وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدل على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه»[1].

٩ ـ النداء:

وقد يخرج النداء ـ كما يقول النسفي ـ عن معناه الأصلي إلى معانٍ مختلفة، كما يجد أن استعمال القرآن لأداة النداء يحمل معنى لا يوجد في غيرها، ولذا يجد أن اختيار «يا» دون أخواتها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾[البقرة: ٢١] له أسبابه وفوائده قال: «يا: حرف نداء لنداء البعيد، وأي والهمزة للقريب، ثم استعمل في مناداة من غفا وسها، وإن قَرُبَ ودنا تنزيلاً له منزلة من بَعُدَ ونأى، فإذا نودي به القريب المقاطن فذاك للتوكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معتنى به جداً، وقول الداعي: يا رب وهو أقرب إليه من حبل الوريد استقصار منه لنفسه، واستبعاد لها عن مظان الزلفى هضماً لنفسه، وإقراراً عليها بالتفريط مع فرط التهالك على استجابة دعوته، وأي: وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام، كما أن «ذو» و«الذي» وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس، ووصف المعارف بالجمل، وهم اسم مبهم يفتقر إلى ما يزيل إبهامه، فلا بد أن يردفه اسم جنس، أو ما يجري مجراه يتصف به حتى يتضح المقصود بالنداء، فالذي يعمل فيه «يا أي»، أي: والتابع له صفته نحو: يا زيد الظريف، إلا أن «أيا» لا يستقل بنفسه استقلال زيد، فلم ينفك عن

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٧٢، انظر: الكشاف: ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

الصفة، وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لتأكيد معنى النداء، وللعوض عما يستحقه؛ أي: من الإضافة»(١).

وهو يلاحظ كثرة هذا النوع من النداء في القرآن الكريم لعظمة ما نادى الله به عباده قال: «وكثر النداء في القرآن على هذه الطريقة لأن ما نادى الله به عباده من أوامره ونواهيه، ووعده ووعيده بأمور عظام وخطوب جسام، يجب عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ»(٢).

كما لاحظ أن استعمال «يا» في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾[هود: ٤٤] له معناه ودلالته البلاغية قال: «اختير يا دون أخواتها لكونها أكثر استعمالاً، ولدلالتها على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة والملكوت وإبداء العزة والجبروت، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به، ولم يقل يا أرضي لزيادة التهاون إذ الإضافة تستدعي القرب، ولم يقل يا أيتها الأرض للاختصار»(٣).

أما معاني النداء التي أشار اليها النسفي في آيات القرآن، فهي:

١ ـ **التفجع**: وهو ما خرج إليه النداء في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا﴾[الأنعام: ٣١] قال: «نداء تفجع معناه يا حسرة احضري فهذا أوانك»(٤).

٢ ـ **تجديد الاستبصار**: وهو ما خرج إليه النداء فقط في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾[الحجرات: ٢](٥) قال: «إعادة النداء

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٨، انظر: الكشاف: ١/ ٤٤.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢٨.

(٣) تفسير النسفي: ٢/ ١٩٠ ـ ١٩١، غير موجودة في الكشاف.

(٤) تفسير النسفي: ٢/ ٩، غير موجودة في الكشاف، انظر: تفسيره أيضاً: ٢/ ٢٦٤.

(٥) انظر: الكشاف: ٤/ ٣.

عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتحريك منهم لئلا يغفلوا عن تأملهم»[١].

٣ ـ التنبيه: أما النداء في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٌ﴾ [غافر: ٣٩] فيَحْمِلُ معنى التنبيه[٢] قال: «وتكرير النداء لزيادة التنبيه لهم والإيقاظ من سِنَةِ الغفلة»[٣] وهي المعنى التي ذكرها اللغويون للنداء في كتبهم.

١٠ ـ أسلوب الإيجاز:

وفي معالجته لهذا الأسلوب من أساليب البلاغة لا يتعرض لتعريفه ولا لعرض أمثلة من شعر العرب وأقوالهم، كما فعل البلاغيون، بل اهتم بجمال هذا الأسلوب ومكانته في الأسلوب القرآني، وهو يتعرض للإيجاز الوارد في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢] قال: «ولم يقل هدى للضالين لأنهم فريقان، فريق عَلِمَ بقاءهم على الضلالة، وفريق علم أن مصيرهم إلى الهدى وهو هدى لهؤلاء فحسب، فلو جيء بالعبارة المُفْصِحة عن ذلك لقيل هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال، فاختُصِرَ الكلام بإجرائه على الطريقة التي ذكرنا فقيل: ﴿هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾»[٤].

وربما جاء إيجاز القرآن عن طريق الكناية كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[البقرة: ٢٤] قال: «وشَرَطَ في اتقاء النار انتفاءَ إتيانهم بسورة من مثله، لأنهم لم إذا يأتوا بها، وتبيّن عجزهم عن المعارضة صحّ عندهم صدق الرسول وإذا صحّ عندهم صدقه ثم لزموا العناد، وأبوا

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ١٦٥.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٨٠، انظر: الكشاف: ٣/ ٣٧٢.

(٣) مفتاح العلوم: ص٣٢٣ ـ ٣٢٨.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ١٢، انظر: الكشاف: ١/ ٢٠.

الانقياد استوجبوا النار، فقيل لهم: إن استبنتم العجز فاتركوا العناد، فوضع فاتقوا النار موضعه، لأن اتقاء النار سبب ترك العناد، وهو من باب الكناية، وهي من شعب البلاغة، وفائدته الإيجاز الذي هو من حلية القرآن»[1].

١١ ـ الاستفهام ومعانيه:

وقد يحمل الاستفهام في القرآن معاني كثيرة[2]، تضفي على الآية روعة وجمالاً، وتتبع النسفي هذه المعاني فرأى أنه قد يخرج إلى:

١ ـ الإنكار والتعجب:

ومعنى الإنكار والتعجب يلمحه النسفي في الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾[البقرة: ٢٨] قال: «معنى الهمزة التي في «كيف» مثله في قولك: أتكفرون بالله، ومعكم ما يصرف عن الكفر، ويدعو إلى الإيمان، وهو الإنكار والتعجب، ونظيره قولك: أتطير من غير جناح، وكيف تطير بغير جناح»[3].

٢ ـ التقرير مع التوبيخ والتعجب:

وهو ما خرج إليه الاستفهام في قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[البقرة: ٤٤] قال: «والهمزة في أتأمرون للتقرير مع التوبيخ والتعجب من حالهم»[4].

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٣٢، انظر: الكشاف: ١/ ٥٠.

(٢) وهي المعاني التي ذكرها البلاغيون للاستفهام، الصاحبي: ص١٨٢ ـ ١٨٨، مفتاح العلوم: ص٣١٠ ـ ٣١٦.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٣٨، انظر: الكشاف: ١/ ٥٩.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٤٥، انظر: الكشاف: ١/ ٦٦.

٣ ـ التقريع :

وهو ما رآه مثلاً في الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾[البقرة: ٢١١][١] قال: «وهو سؤال تقريع كما يُسأل الكفرة يوم القيامة»[٢].

٤ ـ التقرير والتثبيت :

وهو ما خرج إليه الاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾[البقرة: ٢٤٦] قال: فأدخل «هل» مستفهماً عمّا هو متوقع عنده وأراد بالاستفهام التقرير، وتثبيت أن المتوقع كائن، وأنه صائب في توقعه»[٣].

٥ ـ التقريع والتهكم :

كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾[فصلت: ٤٧] قال: «أضافهم إلى نفسه على زعمهم، وبيانه في قوله: أين شركائي الذين زعمتم وفيه تهكم وتقريع»[٤].

٦ ـ التوبيخ :

وهذا ما لمحه في قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾[الأنعام: ٧٤][٥] وقوله: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾[الأعراف: ١٢٣][٦].

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٠٥، انظر: الكشاف: ١/ ١٢٨، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ٤/ ١١.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٠٥.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٢٤، انظر: الكشاف: ١/ ١٤٨.

(٤) تفسير النسفي: ٤/ ٩٧، انظر: الكشاف: ٣/ ٣٩٤.

(٥) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٩، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ٤/ ٣٣٣.

(٦) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ٧٠.

٧ ـ تفخيم المستفهم عنه:

وهو معنى الاستفهام في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾[النبأ: ١] قال: وهذا استفهام تفخيم للمُسْتَفْهَمَ عنه، لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية»[1].

١٢ ـ التكرار:

ويرى النسفي أن للتكرار غايته ومعانيه النفسية الكامنة وراءه في سور القرآن وآياته، وهو من أساليب البلاغة التي تركت جمالها وحسنها في أسلوب القرآن «وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة، بل هو من محاسنها كما يقول الزركشي[2] وذلك أن عادة العرب في خطاباتهم إذا أبهمت بشيء إرادة لتحقيقه، وقرب وقوعه كرّرته توكيداً، وكأنها تقيم تكراره مقام القسم عليه، أو الاجتهاد في الدعاء عليه، حيث تقصد الدعاء، وإنما نزل القرآن بلسانهم، وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة»[3] ومن معاني التكرار التي أشار اليها النسفي في تفسيره:

١ ـ تجديد الاتعاظ والادكار:

ولهـذا المعنى كُرِّرَ قولُ الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[القمر: ٢١] قال: «أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكاراً واتعاظاً، وأن يستأنفوا تنبيهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحثَّ على ذلك والبعثَ عليه»[4] وهذا حكم التكرير في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن: ١٣، ١٦، ١٨، ٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٨، ٣٠، ٣٢،

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥، انظر: الكشاف: ٤/ ١٧٦.

(٢) انظر: البرهان: ٣/ ٩.

(٣) البرهان: ٣/ ٩.

(٤) تفسير النسفي: ٤/ ٢٠٥، انظر: الكشاف: ٤/ ٤٧.

٣٤، ٣٦، ٣٨] عند كل نعمة عدها، وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[المرسلات: ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧] عند كل آية أوردها، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها، لتكون تلك العِبَر حافزة للقلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان»[1].

٢ ـ التأكيد:

وهو ما وجدوه في التكرار الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[البقرة: ١٥٠] قال: «وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده»[2].

٣ ـ تجديد الاستبصار:

أما تكرار قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[الحجرات: ١] فيجد فيه النسفي معنى نفسياً قال: «إعادة النداء عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتحريك منهم لئلا يغفلوا عن تأملهم»[3].

٤ ـ تقرير معاني القصص في الصدور:

ويكشف النسفي عن الغاية النفسية للتكرير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[الشعراء: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١] قال: «وقد كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر، تقريراً لمعانيها في الصدور ليكون أبلغَ في الوعظ والزجر، ولأن كل قصة منها كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها،

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ١٩٨.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٨٣، انظر أيضاً: تفسيره: ١/ ٨، و٤/ ١٨٨.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ١٦٦ ـ ١٦٥، انظر: الكشاف: ٤/ ٣.

فكانت جديرة بأن تفتتح بما اختتمت به صاحبتها، وأن تختم بما ختمت به»[1].

فوائده:

وكما أشار النسفي إلى معاني التكرار في آيات القرآن فقد استطاع أن يتلمس له مجموعة من الفوائد هي:

١ ـ التهجين:

وهو ما أفاده قول الله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[القصص: ٨٤] قال: «معناه: فلا يجزون، فوضع الذين عملوا السيئات موضع الضمير، لأن إسناد عمل النسيئة إليهم مكرراً فضل تهجين بحالهم، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين»[2].

وهو ما استوحاه أيضاً من قول الله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾[البقرة: ٥٩] قال: «وفي تكرير (الذين ظلموا) زيادة في تقبيح أمرهم، وإيذان بإنزال الرجز عليهم لظلمهم»[3].

٢ ـ التهويل:

وهو المعنى المستفاد من تكرير «ألا» في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[هود: ٦٠] قال: «تكرار «ألا» مع النداء على كفرهم، والدعاء عليهم تهويل لأمرهم، وبعث على الاعتبار بهم، والحذر من مثل حالهم، والدعاء ببعداً بعد هلاكهم، وهو دعاء للدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له»[4] وقد يثبت معنى

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ١٩٥.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٢٤٨، انظر: الكشاف: ٢/ ١٨١.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٥٠، انظر: الكشاف: ١/ ٧١.

(٤) تفسير النسفي: ٢/ ١٩٥، انظر: الكشاف: ٢/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

التهويل بتكرار قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الإنفطار: ١٧ـ١٨] فكرر هنا للتأكيد والتهويل»(١).

٣ ـ التفخيم:

وتكرار لفظ (القارعة) يوحي للنسفي بمعنى التفخيم فيقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[القارعة: ١ ـ ٣] يقول: «كان حقه أن يقول: ماهي وإنما كرّر تفخيماً لشأنها»(٢).

٤ ـ الإنذار والتخويف:

أما تكرار لفظ «كلا» في قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾[التكاثر: ١ ـ ٥] فيوحي له بمعنى الإنذار والتخويف فيقول: «كلا: تكرير الردع للإنذار والتخويف»(٣).

٥ ـ شدة العناية:

وقد تُكَرَّرُ الآية ذاتها لشدة العناية، وهو حال التكرير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء: ١٩٢] وقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾[الشعراء: ٢١٠] وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾[الشعراء: ٢٢١] وهن أخوات لأنه إذا فرّق بينهن بآيات ليست منهن، ثم رجع إليهن مرة بعد مرة، دلّ ذلك على شدة العناية بهن، كما إذا حَدَّثْتَ حديثاً وفي صدرك اهتمامٌ بشيء فتعيد ذكره ولا تنفك عن الرجوع إليه»(٤).

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٣٨، انظر: الكشاف: ٤/ ١٩٣.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٣٧٤، غير موجودة في الكشاف.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ٣٧٤، انظر: الكشاف: ٤/ ٢٣١.

(٤) تفسير النسفي: ٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠، انظر: الكشاف: ٣/ ١٣٠.

إضافة إلى معان نفسية أخرى للتكرار أشار إليها في أثناء تفسيره للآيات القرآنية، فهو يرى أن تكرار «بإذن الله» في قوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾[آل عمران: ٤٩] كان دفعاً[١] لتوهم من يتوهم اللاهوتية.

كما يلمح المعنى النفسي للتكرار في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾[البقرة: ٨] فيقول: «وفي تكرير الباء إشارة إلى أنهم ادعوا كل واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام»[٢].

وقد يكون التكرار ـ كما يقول النسفي ـ في اللفظة الواحدة، ويترك جماله ومعناه على الآية، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا﴾[الشعراء: ٩٤] قال: «الكَبْكَبَة: تكرير الكَبّ، جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة إثر مرة، حتى يستقرّ في قعرها»[٣].

١٣ ـ الاستفهام والاعتراض التقريريان:

والنسفي يعدُّ التقريرَ من معاني نظم القرآن، والتقرير قد يكون بالجمل الاعتراضية نحو قوله تعالى: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾[البقرة: ٢٥] قال: «جملة اعتراضية (معترضة) للتقرير كقولك: فلان أحسَنَ بفلان ونعم ما فعل، ورأى من الرأي كذا وكان صواباً ومنه: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾[النمل: ٣٤]»[٤].

أو بالاستفهام وهو ما وجده في قول الله تعالى: ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ

(١) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٥٩، انظر: الكشاف: ١/ ١٩١.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٨، انظر: الكشاف: ١/ ٣٠.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ١٨٩، انظر: الكشاف: ٣/ ١١٩، انظر: تفسير النسفي: ١/ ٢٥٨.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٣٥، انظر: الكشاف: ١/ ٥٣.

عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾[البقرة: ٢٤٦] قال: «أَدْخَلَ «هل» مستفهماً عمّا هو متوقع عنده، وأراد بالاستفهام التقرير، وتثبيت أن المتوقع كائن، وأنه صائب في توقعه»(١).

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾[الفجر: ٦ ـ ٧] قال: «ومعناه ألم تعلم يا محمد علماً يوازي العيان في الإيقان، وهو استفهام تقرير»(٢).

١٤ ـ إيحاءات اللفظ:

واللفظ القرآنية توحي للنسفي بمعان مختلفة، وتلقي عليه ظلالاً نفسية ومعنوية، ولهذا نراه يستشف الأسرار الجمالية للتعبير القرآني ويستجلي ـ حتى في الآيات التشريعية ـ جمالها ومن هذا القبيل ما قاله في أثناء تفسير قول الله تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾[البقرة: ٢٣٣] قال: «وإنما قيل بولدها وبولده لأنه لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه، وكذلك الوالد»(٣) كما يلحظ حال المخاطبين ونفسيتهم، والأسلوب الذي ينبغي أن يجادلوا فيه من خلال قول الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾[هود: ٢٨] الذي يتحدث عن النبي صالح على رسولنا وعليه الصلاة السلام فيقول: «أتى بحرف الشك مع أنه على يقين أنه على بينة، لأن خطابه للجاحدين فكأنه قال: قدّروا أني على بينة من ربي، وأنني على الحقيقة، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره، فمن يمنعني من عذاب الله»(٤).

وللفظ «الوجه» في قوله تعالى ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾[يوسف: ٩] من الظلال

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٢٤، انظر: الكشاف: ١/ ١٤٨.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٣٥٤، انظر: تفسير النسفي: ٤/ ١٧٢، ٣٣٣.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١١٨، انظر: الكشاف: ١/ ١٤٢.

(٤) تفسير النسفي: ٢/ ١٩٥.

النفسية مالا يجهله عاقل، فهو يحمل معنى الإقبال والرضا قال: «فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم، لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه»[١].

ويرى أن لفظ «كل» في قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧] يحمل معنى الإحاطة قال: «فجاؤوا بكلمة الإحاطة، وصيغة المبالغة ليَسكّنوا بعض قلقه»[٢].

وقد تحمل اللفظة القرآنية في بنائها جمالاً معنوياً، وهذا ما يراه في لفظ الحيوان في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[العنكبوت: ٦٤] فيقول: «أي ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة لا موت فيها، فكأنها في ذاتها حياة، والحيوان: مصدر حيي وقياسه حييان، فقلبت الياء الثانية واواً، ولم يقل لهي الحياة، لما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب، والحياة حركة، والموت سكون، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة»[٣].

وقد يتعرض للألفة المعنوية بين الألفاظ المنظومة، وهو ما وجدناه عنده في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾[البقرة: ٢٠] قال: «ذكر مع أضاء كلما، ومع أظلم إذا لأنهم حِراص على وجود ما همهم به معقود، من إمكان المشي، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها ولا كذلك التوقف»[٤].

وفي أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٢١٣، انظر: الكشاف: ٢/ ٢٢٤.
(٢) تفسير النسفي: ٣/ ١٨٣، انظر: الكشاف: ٣/ ١١٣.
(٣) تفسير النسفي: ٣/ ٢٦٣، انظر: الكشاف: ٣/ ١٩٥.
(٤) تفسير النسفي: ١/ ٢٧، انظر: الكشاف: ١/ ٤٣.

ٱللَّهِۗ﴾[التوبة: ٦٠] قال: وعُدِلَ عن اللام إلى (في) في الأربعة الأخيرة، للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممّن سبق ذكرهم لأن (في) للوعاء، فنبَّه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات، ويُجْعلوا مظنة لها، وتكرير (في) في قوله تعالى ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ فيه فضلٌ وترجيحٌ لهذين على الرقاب والغارمين، وإنما وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ليدل بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم، على أنهم ليسوا منهم حسماً لأطماعهم، وإشعاراً بأنهم بُعَداءُ عنها، وعن مصارفها فما لهم وما لها، وما سلطهم على التكلم فيها ولَمْزِ قاسمها»(١).

١٥ ـ تحليله الجمالي للنظم:

ولا يكتفي النسفي بتحليل اللفظة المفردة للكشف عن المعاني النفسية والظلال الداخلية لها، بل ينتقل إلى النظم في الآية القرآنية ليحلل معانيه النفسية وظلاله، وهذا ما يفعله في مجموعة من آيات القرآن الكريم، قال في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[الحجرات: ٤] قال: «وورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه مالا يخفى من إجلال محلِّ رسول الله ﷺ: منها التسجيل على الصائحين به بالسفه والجهل، ومنها إيقاع لفظ الحجرات كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه ومنها التعريف باللام دون الإضافة، ولو تأمل متأمل من أول السورة إلى آخر هذه الآية لوجدها كذلك، فتأمل كيف ابتدأ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدمة على الأمور كلها من غير تقييد، ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر كأنَّ الأولَ بساطٌ للثاني، ثم أثنى على الغاضين أصواتهم ليدل على

(١) تفسير النسفي: ٢/ ١٣٢.

عظيم موقعه عند الله، ثم عَقَّبَهُ بما هو أطمُّ وهُجْنَتُهُ أَتمُّ من الصياح برسول الله ﷺ في حال خلوتـه من وراء الجدر كمـا يصـاح بأهون الناس قدراً لِيُنَبِّهَ على فظاعة ما جسروا عليه، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ في التفاحش مبلغاً»[1].

وهو ما فعله أيضـاً في قـولـه تـعالـى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ١ ـ ٢] قال: «والذي هو أرسخ عرقاً في البلاغة أن يقال: إن قوله «الم» جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و«ذلك الكتاب» جملة ثانيـة، و«لا ريب» فيه ثالثـة، و«هدى للمتقين رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف عطف، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضهـا بعنق بعض، فالثانيـة متحـدة بالأولى معتنقة لها وهلم جرا. . . إلى الثالثة والرابعة، بيان ذلك أنه نبّه أولاً على أنه الكلام المُتَحَدَّى به، ثم أشير إليه بأنَّه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدي، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريـب فكان شهادة وتسجيلاً بكماله، لأنه لا كمال أكمل ممّا للحق واليقين، ولا نقص أنقص ممّا للباطل والشبهة، وقيل لعالم: فيما لَذَّتُك؟ قال: في حجة تتبختر اتضاحاً، وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً، ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقـرر بذلك كونـه يقيناً لا يحوم الشـك حوله، وحقـاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أنْ رُتِّبَتْ هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم الرشيق من نكتة ذات جزالة، ففي الأولى: الحذف والرمز إلى المطلوب بألطف وجه، وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف، وفي الرابعة: الحذف ووضع المصدر الذي هو «هدى»

(١) تفسير النسفي: ٤/ ١٦٧، انظر: الكشاف: ٤/ ٧.

موضع الوصف الذي هو «هاد» كأن نفسه هداية، وإيراده مُنَكَّراً، ففيه إشعار بأنه هدى لا يكتنه كنهه، والإيجاز في ذكر المتقين»(١).

ويحللّ نظم قول الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾[مريم: ٤١] فيقول فيه: «فانظر في نصيحته كيف راعى المجاملة والرفق، والخلق الحسن كما أمر، ففي الحديث: (أوحي إلى إبراهيم إنك خليلي حسّنْ خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار) فطلب منه أولاً العلة في خطابه طلب منبه على تماديه موقظ لإفراطه وتناهيه، لأن من يعبد أشرف الخلق منزلة وهم الأنبياء كان محكوماً عليه بالغي المبين، فكيف بمن يعبد حجراً أو شجراً ولا يسمع ذكر عابده ولا يرى هيئات عبادته، ولا يدفع عنه بلاء، ولا يقضي له حاجة، ثم ثنَّى بدعوته إلى الحق مترفقاً به، متلطفاً فلم يَسِمْ أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي شيئاً من العلم ليس معك وذلك علم الدلالة على الطريق السوي، فهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتبعني أنجك من أن تضّل وتتيه ثم ثلّث بنهيه عمّا كان عليه بأن الشيطان الذي عصى الرحمن، الذي جميع النعم منه أوقعك في عبادة الصنم وزيّنها لك فأنت عابده في الحقيقة، ثم ربّع بتخويفه سوء العاقبة وما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال مع مراعاة الأدب، حيث لم يصّرح بأن العقاب لاحق به، وأن العذاب لاصقٌ به، بل قال: أخاف أن يَمَسَّكَ عذاب بالتنكير المشعر بالتقليل كأنه قال: إني أخاف أن يصيبك نفيان من عذاب الرحمن، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب، كما أن رضوان الله أكبر من الثواب في نفسه، وصدّر كل نصيحة بقوله: يا أبت توسلاً إليه، واستعطافاً، وأشعاراً بوجوب احترام الأب وإن كان كافراً فثم قال آزر توبيخاً: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٢-١٣، انظر: الكشاف: ١/ ٢١.

﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾؛ أي: أترغب عن عبادتها، فناداه باسمه، ولم يقابل يا أبت بـ يابُنَيَّ»(١).

وأحياناً قد يستعين بثقافته العلمية للكشف عن مزية نظم الآية وهذا ما رأيناه فقط عنده في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَـٰٓفَّـٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَـٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾[الملك: ١٩] قال: «واختيار هذا التركيب باعتبار أن أصل الطيران هو صفّ الأجنحة، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والهواء للطائر، كالماء للسابح، والأصل في السباحة مدُّ الأطراف وبسطها وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارئ بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة، كما يكون في السابح»(٢).

١٦ ـ التصغير:

ويرى النسفي أن التصغير يفيد معنى التعظيم، في قوله تعالى فقط: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيۡشٍ﴾[قريش: ١] قال: وقريش ولد النضر بن كنانة، سمّوه بتصغير القرش. وهو دابة عظيمة في البحر تبعث بالسفن، ولا تطاق إلا بالنار، والتصغير للتعظيم فسموه بذلك لشدتهم ومنعتهم تشبيها بها»(٣).

ومعنى التعظيم هذا مما أنكره أبو العباس المبرد، ورأى أن التصغير في كلام العرب إنما يدخل لنفي التعظيم، وهو ما رآه الخفاجي أيضاً فقال: «ويقوي عندي ما ذهب إليه أبو العباس المبرد أنهم إذا وضعوا التصغير أمارة للتحقير والتعظيم معاً فقد زالت الفائدة منه، ولم يكن دليلاً على واحد منها»(٤).

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٣٦ ـ ٣٧، انظر: الكشاف: ٢/ ٤١٢.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٢٧٧، انظر: الكشاف: ٤/ ١٢٤.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ٣٧٨، انظر: الكشاف: ٤/ ٢٣٥.

(٤) سر الفصاحة: ص٩٩ ـ ١٠٠.

١٧ ـ المصدر:

وقد يحلّ المصدر محل الفعل للمبالغة، وهو ما ورد في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢١٦] قال: «من الكراهية، فوضع المصدر موضع الوصف مبالغة» ويؤيد رأيه بما جاء في شعر الخنساء:

. . . . فإنّما هِيَ إقبالٌ وإدبارُ[١]

قال: «كأنه في نفسه كراهته لفرط كراهتهم له، وهو فعل بمعنى مفعول، كالخبز بمعنى المخبوز؛ أي: وهو مكروه لكم»[٢].

١٨ ـ اسم الإشارة:

ومن خلال متابعته لأسماء الإشارة الواردة في القرآن رأى أن اسم الإشارة قد يحمل معاني مختلفة، فهو يرى أن اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾[النمل: ٩١] يفيد معنى التعظيم قال: «وخصَّ مكة من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها، ولأنها أحب بلاده إليه، وأعظمها عنده، وأشار إليها بقوله: «هذه» إشارة تعظيم لها وتقريب، دالاً على أنها موطن نبيِّه، ومهبط وحيه، ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاصُّ وصفِها، وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما»[٣].

---

(١) هذا عجز البيت وصدره:

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت . . . .

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٠٧، انظر: الكشاف: ١/ ١٠٣، انظر: تفسير النسفي أيضاً: ٢/ ٢١٤، ٤/ ٢٩٥.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ٢٢٤، انظر: الكشاف: ٣/ ١٥٤.

أما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾[العنكبوت: ٦٤] فهو يفيد التحقير قال: «أي: وماهي لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها، إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون، وفيه ازدراء بالدنيا، وتصغير لأمرها، وكيف لا يصغّرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة»(١).

ولا يخلو تكرار اسم الاشارة من معنى، فالتكرار الوارد في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[البقرة: ٥] يفيد التنبيهَ كما يقول النسفي قال: «فانظر كيف قرّر الله ﷻ التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد من طرق شتى، وهي ذكر اسم الإشارة وتكريره، ففيه تنبيه على أنهم كما ثبت الأثرة بالهدى، فهي ثابتة لهم بالفلاح»(٢).

١٩ ـ الظرف:

ويلفت انتباه النسفي استعمال الظروف في القرآن، ويرى أن في تقديمه في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾[الغاشية: ٢٣ ـ ٢٥] معنى التشديد في الوعيد فيقول: «وفائدة تقديم الظرف التشديد في الوعيد»(٣).

كما يلحظ أهمية تقديم الظرف في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾[النور: ١٦] فيقول: «فصل بين «لولا» و«قلتم» بالظرف، لأن للظروف شأناً وهو تنزلها عن الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها، وأنها لا تنفك عنها فلذا يُتَّسَعُ فيها ما لا يُتَّسَعُ في غيرها، وفائدة تقديم الظرف أنه كان من الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به، فلما كان ذكر الوقت

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٢٦٣، انظر: الكشاف: ٣/ ١٩٥.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٤ ـ ١٥، انظر: الكشاف: ١/ ٢٥.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ٣٥٣، انظر: الكشاف: ٤/ ٢٠٨.

عندهم أهم قُدِّم»(١).

٢٠ ـ التنكير:

ويضفي التنكير على معنى الآيات ظلالاً نفسية، ويضيف إليها معاني جديدة، وقد أشار النسفي في أثناء تفسيره لآيات القرآن إلى ما أفاده التنكير في الآيات التي ورد فيها، قال مثلاً في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] «وقد نكّر هدى ليفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه، كأنه قيل: على أي هدى؟ ونحوه: لقد وقعتُ على لحم، أي: على لحم عظيم»(٢).

وقد تتبع المعاني التي يفيدها التنكير في آيات القرآن فرأى أنه قد يفيد:

١ ـ الغرابة والبعد عن المألوف:

وهو ما رآه في قول الله تعالى فقط: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة: ٧] قال: «ومعنى التنكير أنّ على أبصارهم نوعاً من التغطية غيرَ ما يتعارفه الناس، وهو غطاء التعامي عن آيات الله، ولهم من بين الآلام العظام نوع عظيم من العذاب لا يعلم كنهه إلا الله»(٣).

٢ ـ التعظيم:

ومعنى التعظيم يحمله قول الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾[البقرة: ١٧] قال: «وتنكير النار للتعظيم»(٤).

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ١٣٦، انظر: الكشاف: ٣/ ٦٦، وقد يقدم الظرف للاختصاص، انظر: تفسير النسفي: ٤/ ١٨٢.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٥، انظر: الكشاف: ١/ ٢٤.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ١٧، انظر: الكشاف: ١/ ٢٩.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٢٤، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ١/ ١٣٥، و٢/ ٧٠، و٤/ ٢٤٢.

٣ ـ المبالغة:

ولا يَرِدُ التنكير على معنى المبالغة ـ كما رأى النسفي ـ إلا في آية واحدة من آيات القرآن، وهو قول الله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ [البقرة: ١٩] قال: «ففي التعريف مبالغة، كما في تنكير صيّب وتركيبه وبنائه»(١).

٤ ـ الإبهام والتفخيم:

وهو المعنى الذي يحمله التنكير الوارد في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾[الروم: ١٥] قال: «أي بستان، وهي الجنة، والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه»(٢).

وكذا الوارد في قول الله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾[الكهف: ٣١] فقال: «وتنكير أساور وهي جمع أسورة التي هي جمع سوار لإبهام أمرها في الحسن»(٣).

٥ ـ التجاهل:

والتنكير بمعنى التجاهل يلمحه في قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[سبأ: ٧] فيقول: «وإنما نكّروه مع أنه كان مشهوراً عَلَماً في قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم تجاهلاً به وبأمره، وباب التجاهل في البلاغة والي سحرها»(٤).

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٢٥، انظر: الكشاف: ١/ ٣٩.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٢٦٨، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ٣/ ١٢، و٤/ ٣٢٣، ٣٤٤.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ١٢، انظر: الكشاف: ٢/ ٣٨٩.

(٤) تفسير النسفي: ٣/ ٣١٨.

٦ ـ التكثير:

ولم يَرَى النسفي تنكيراً بهذا المعنى الاّ في قول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧] فقال: «أو أراد كل نفس، والتنكير للتكثير كما في علمت نفس»(١).

٧ ـ التقليل:

وهو ما استوحاه من قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[الإسراء: ١] قال: «والإسراء لا يكون إلا بالليل للتأكيد، أو ليدل بلفظ التنكير على تقليل مدة الإسراء، وأنه أسري به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة»(٢).

ب ـ علم البيان:

وكما عُنِيَ النسفي بما في آيات القرآن من فنون علم المعاني فأشار إليها، عني بما فيها من فنون علم البيان وذكرها في أثناء تفسيره للآيات، ومن هذه الفنون:

١ ـ الكناية(٣) والتعريض(٤):

على الرغم من اختلاف(٥) العلماء في قضية الكناية ووجودها في القرآن، فقد رأى النسفي وجودها فيه، كما رأى ذلك جمهور العلماء، وهذا ما دفعه إلى الإشارة إليها في كل آية وردت على طريق الكناية، كما استطاع أن يضع لها تعريفاً في أثناء تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾[البقرة: ٢٣٥]

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٦١، انظر: الكشاف: ٤/ ٢١٥.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٣٠٦، انظر: الكشاف: ٢/ ٣٥٠.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٢٢٤، ٢/ ٧٧، ١٢٨، ١٨٨، ٣/ ١٦٤، ٢٦٩، ٣٠٨، ٤/ ٦٣، ٦٤، ١٠٢، ١٦٧، ٢٠٢، ٢٨٣.

(٤) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٣٠٠، ٣٠٥، ٣٢٥، ٣٣٧، ٤/ ٣٨، ٧٦، ٧٩.

(٥) وهو ما أشار إليه الطرطوسي في كتابه العمدة، انظر: البرهان: ٢/ ٣٠١.

وميَّزَ بينها وبين التعريض فقال: «والفرق بين الكناية والتعريض أن الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، والتعريضَ أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا:

وحـــسبك بالتـــسليم منّـــي تقاضـــيا

فكأنه إمالة الكلام إلى غرض يدل على الغرض»(١).

وأشار إلى أن لكل من التعريض والكناية مزيته في الكلام، قال مثلاً في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[سبأ: ٢٤] «وهذا من الكلام المنصف الذي كل مَنْ سمعه مِنْ موالٍ أو منافٍ قال لِمَنْ خُوطِبَ به: قد أَنْصَفَكَ صاحبك، وفي درجه بعد تقدم ما قدم من التقرير دلالةٌ غير خفية، على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض أوصل بالمجادل إلى الغرض ونحوه قولك للكاذب: إنّ أحدنا لكاذب»(٢).

وقال في تفسير لقوله تعالى: ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾[غافر: ٢٧] «وقال: من كل متكبر لتشملَ استعاذتُه فرعون وغيره من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض فيكون أبلغ»(٣).

ويسفر عن المعاني النفسية التي يتضمنها هذا الأسلوب من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾[ص: ٢١] فيقول: «وإنما جاءت

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١١٩ ـ ١٢٠، انظر: الكشاف: ١/ ١٤٣.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥، انظر: الكشاف: ٣/ ٢٥٩.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ٧٦، انظر: الكشاف: ٣/ ٣٦٨.

على طريقة التعريـض والتمثيـل دون التصريح لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل أن التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرَّضِ به كان أوقع في نفسه، وأشدَّ تمكناً في قلبه، وأعظم أثراً فيه مع مراعاة حسن الأدب، وترك المجاهرة»(١).

وبالطريقـة نفسها أشار إلى ما في الآيات من الكنايـة، ورأى أن لهـا أهمية بلاغية كبيرة، كما تضفي على الآية جمالاً. قال مثلاً في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾[مريم: ٤] «أي فشـا في رأسي الشيب، واشتعلت النار إذا تفرقت في التهابها، وصارت شعلاً فشبه الشيب بشواظ النار في بياضه، وانتشاره في الشعر، وأَخْذِهِ منه كلَّ مأخذٍ باشتعال النار، ولا ترى كلاماً أفصحَ من هذا، ألا ترى أن أصل الكلام: يا رب قد شخت إذ الشيخوخة تشتمل على ضعف البدن، وشيب الرأس المتعرض لهمـا أقوى منه ضعـف بدني وشـوب رأسي، ففيه مزيد التقرير للتفصيل، وأقوى منه: وهنت عظام بدني، وأقوى منه: إني وهنت العظام من بدني، ففيه سلوك طريقي الإجمـال والتفصيل... وأبلغ منه: واشتعل الرأس شيباً ففيه اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا بقرينة العطف على وهن العظم»(٢).

كما تحدث عمّا في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[هود: ٤٤] من جهة علم البيان فقال: «والنظر في هذه الآية من أربع جهات: من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية، وما يتصل بها فنقول:

إن الله تعالى لمّا أراد أن يبيّـن معنى أردنا أن نردّ ما انفجـر من الأرض إلى بطنها فارتد، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع، وأن نغيض الماء النازل من السماء

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٨، انظر: الكشاف: ٣/ ٣٢٢.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٢٨ ـ ٢٩.

فغيض، وأن نقضي أمر نوح وهو إنجاز ما كنا وعدناه من إغراق قومه فقضي، وأن نسوي السفينة على الجودي فاستوت، وأبقينا الظَلَمَةَ غرقى، بنى الكلام على تشبيه المراد بالأمر الذي لا يتأتى منه لكمال هيبته العصيان، وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ في تكون المقصود، تصويراً لاقتداره العظيم، وأن السماواتِ والأرضَ منقادةٌ لتكوينه فيها ما يشاء، غير ممتنعة لإرادته فيها تغييراً وتبديلاً، كأنّها عقلاء مميزون قد عرفوه حقَّ معرفته، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره والإذعان لحكمه، وتحتّم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده، ثم بنى على تشبيه هذا نظم الكلام، فقال تعالى قيل على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل، وجعل قرينه المجاز الخطاب للجماد وهو يا أرض، ويا سماء، ثم قال مخاطباً لهما: ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾ و﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ على سبيل الاستعارة للشبه المذكور، ثم استعار لِغَوْرِ الماء في الأرض البلع، الذي هو أعمال الجاذبة في المطعوم للشبه بينهما وهو الذهاب إلى قعر خفي، ثم استعار الماء للغذاء تشبيهاً له بالغذاء؛ لتقوي الأرض بالماء في الإنبات كتقوي الآكل بالطعام، ثم قال: ﴿مَآءَكِ﴾ بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز لاتصال الماء بالأرض، كاتصال المُلْكِ بالمالك، ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاعَ الذي هو تركُ الفاعلِ الفعلَ للشبه بينهما في عدم التأني ثم قال: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا﴾ ولم يُصِّرح بِمَنْ أغاض الماء ولا بِمَنْ قضى الأمر وسوّى السفينة، وقال بُعْداً، كما لم يصرح بقائل يا أرض ويا سماء، سلوكاً في كل واحد من ذلك لسبيل الكناية، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر، وتكوين مكّونٍ قاهرٍ، وأنّ فاعلها واحدٌ لا يشارك في فعله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعي، ويا سماء أقلعي، ولا أن يكون الغائض والقاضي والمسوّي غيره، ثم ختم الكلام بالتعريض تنبيهاً لسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم إظهاراً لمكان السخط، وأن ذلك العذاب الشديد

ما كان إلا لظلمهم»[1].

٢ ـ التمثيل والتخييل:

ويرى النسفي كثرة التمثيل في القرآن، ولهذا غايته البلاغية، وقد وجد في قول الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[البقرة: ١٧] مجالاً للحديث عن هذا الأمر فقال: «والقرآن قد يعقّب تمثيلاً بتمثيل آخر، وذلك ليكون كشفاً لحالهم، وإيضاحاً عقب إيضاح، وكما يجب على البليغ في مظانّ الإجمال والإيجاز أن يُجْمِلَ ويُوجِزَ، وكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصّل ويشبع، فلما جاء بحقيقة صفتهم، عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف، وتتميماً للبيان، ولضرب الأمثال في إبراز خفيات المعاني، وإبراز الأستار عن الحقائق تأثير ظاهر ولقد كثُرَ ذلك في الكتب السماوية، ومن سور الإنجيل سورةُ الأمثال، والمَثَلُ في أصل كلامهم هو: المِثْلُ والنظير، يقال: مثْل ومَثَل ومثيل كَشْبه، وشَبَه وشبيه، ثم قيل للقول السائر الممثَّل مضربه ومورده مثل، ولم يضربوا مَثَلاً إلا قولاً فيه غرابة، ولذا حوفظ عليه فلا يغيّرُ، وقد استعير المثل للحال أو الصفة، أو القصة إذا كان لها شأن، وفيها غرابة، كأنه قيل حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد ناراً، وكذلك قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[الرعد: ٣٥]، أي: فيما قصصنا عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة الشأن، ثم أخذ في بيان عجائبها، ولله المثل الأعلى، أي: الوصف الذي له شأن من العظمة والجلالة، ووضع «الذي» موضع «الذين» كقوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾[التوبة: ٦٩] فلا يكون تمثيل الجماعة بالواحد، أو قَصَدَ جنس المستوقدين، أو أُرِيْدُ الفوجَ الذي استوقد ناراً، على أن ذوات المنافقين لم يشبّهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد، إنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد، ومعنى

(١) تفسير النسفي: ٢/ ١٩٠.

استوقد: أوقد، ووقود النار: سطوعها، والنار: جوهر لطيف مضيء حار محرق، واشتقاقها من نار ينور إذا نفر؛ لأن فيها حركة واضطراباً[١].

كل هذا دفعه إلى تتبع ما في آيات القرآن الكريم من التمثيل والتخييل، وجعل الكثير من[٢] الآيات من هذا الباب. قال مثلاً في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[الأعراف: ١٧٢] هذا من باب التمثيل، ومعنى ذلك أنه نصب لهم أدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم التي ركبها فيهم، وجعلها مميزة بين الهدى والضلالة، فكأنه أشهدهم على أنفسهم، وقررهم وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا، وأقررنا بوحدانيتك»[٣].

ويكشف على غاية التمثيل في قول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[الحشر: ٢١] فيقول: «وجائز أن يكون هذا تمثيلاً كما في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾[الأحزاب: ٧٢] ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾[العنكبوت: ٤٣] وهي إشارة إلى هذا المثل وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل، والمراد توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة خشوعه عند تلاوة القرآن، وتدبر قوارعه وزواجره[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[الحجرات: ١٢] فيقول: «وهذا تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٢٣، انظر: الكشاف: ١/ ٣٧ـ ٣٨.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٢٥، و٢/ ٢٨٤، و٣/ ٧٦، ٢٧١، و٤/ ٣٨، ٨٩، ١٦٥، ١٧٢، ٣٠٥.

(٣) تفسير النسفي: ٢/ ٨٥، انظر: الكشاف: ٢/ ١٠٣.

(٤) تفسير النسفي: ٤/ ٢٤٤، انظر: الكشاف: ٤/ ٨٤.

وجه، وفيه مبالغات منها الاستفهام الذي معناه التقرير، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، ومنها إسناد الفعل إلى «أحدكم» والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الانسان، حتى جعل الإنسان أخاً، ومنها أنه لم يقتصر على لحم الأخ بل جعله ميتاً»(١).

وقد يكون التمثيل(٢) لتصوير الهجنة والشناعة لأمر من الأمور وهو ما رآه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[الحجرات: ١] قال: وفي هذه العبارة ضربٌ من المجاز الذي يسمى تمثيلاً، وفيه فائدة جليلة وهي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة»(٣).

وعلى الرغم من تخريجه للكثير من الآيات على معنى التمثيل، فلم يخرج على باب التخييل إلا آيتين من آيات القرآن، رغم أن ابن المنير(٤) رفض وجود التخييل في القرآن لأنه كما يقول يُسْتعمل في الأباطيل، ورأى أن الأفضل إطلاق لفظ التمثيل وقد أخذ على الزمخشري استعماله لهذا اللفظ فقال: «إن التخييل يستعمل في الأباطيل، وما ليست له حقيقة صدق، فإن يكن معنى ما قاله صحيحاً (يعني الزمخشري) فقد أخطأ في التعبير عنه بعبارة موهمة لا مدخل لها في الأدب الشرعي»(٥).

(١) تفسير النسفي: ٤/ ١٧٢، انظر: الكشاف: ٤/ ٢.

(٢) وقد يكون التمثيل للتهويل أيضاً، انظر: تفسير النسفي: ٤/ ٣٠٥.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ١٦٥.

(٤) انظر: الانتصاف: ٢/ ١٠٣، و٣/ ٣٥٦.

(٥) الانتصاف: ١/ ١٥٣.

وقال في موضع آخر من ردّه على الزمخشري: «إنما عنى بما أجراه ههنا من لفظ التخييل والتمثيل، وإنما العبارة موهمة منكرة في هذا المقام لا تليق به بوجه من الوجوه والله أعلم»(١).

إلا أن النسفي خرّج بعض الآيات على معنى التخييل. قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الزمر: ٦٧] «وما عظّموه حقّ عظمته، إذ دعوك إلى عبادة غيره، ولما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حقّ معرفتِه، وقدّره في نفسه حقّ تقديره عظّمه حقّ تعظيمه. قيل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل»(٢).

والآية الثانية التي رآها من باب التخييل هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح: ١٠] قال: «أكّده تأكيداً على طريقة التخييل فقال: يد الله فوق أيديهم»(٣).

٣ ـ الاستعارة:

وقد درج النسفي في تفسيره على ذكر الاستعارة، والإشارة إليها إذا وجدها في آية من آيات القرآن، إلا أن ذكره لهذا الأمر كان موجزاً، وقد يشير أحياناً إلى ملاحتها وهذا ما فعله في أثناء تفسير قوله تعالى فقط: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[الفرقان: ٤٨] فقال: «أي: قُدَّام المطر لأنه ريح ثم سحاب ثم مطر، وهذه استعارة مليحة»(٤).

---

(١) الانتصاف: ٣/ ٣٥٦ (حاشية الكشاف).

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٦٥، انظر: الكشاف: ٣/ ٣٥٥.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ١٥٨، انظر: الكشاف: ٣/ ٤٦٣.

(٤) تفسير النسفي: ٣/ ١٦٩، انظر: الكشاف: ٣/ ٩٩.

أو قد يشير إلى أن المستعار عقلي أو حسي ولم يفعل ذلك إلا في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾[الأنبياء: ١٨] قال: «وهذه استعارة لطيفة لأن أصل استعمال القذف والدمغ في الأجسام، ثم استعير القذف لإيراد الحق على الباطل والدمغ لإذهاب الباطل، فالمستعار منه حسي، والمستعار له عقلي، فكأنه قيل: بل نورد الحقَّ الشبيه بالجسم القوي على الباطل الشبيه بالجسم الضعيف فيبطله إبطال الجسم القوي الضعيف»[١].

أما بقية الآيات التي ذكر ما فيها من استعارة، فقد اكتفى بذكر الاستعارة فقط بقوله، وهذه[٢] استعارة.

٤ ـ أسلوب العاطفة:

وهو صورة من صور البيان القرآني المتعددة، وأعني به الأسلوبَ الذي يستوحيه النسفي أحاسيس وخلجات نفسية، وهذا مالمسناه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾[النور: ٢] إذ يقول في أثناء تفسيره لها: «والمعنى أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في دين الله، ولا يأخذهم اللين في استيفاء حدوده فيعطلوا الحدود، أو يخففوا الضرب»[٣].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾[الأنبياء: ١١] قال: «أي: أهلها بدليل قوله تعالى: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ كافرة، وهي واردة عن غضب شديد وسخط عظيم، لأن القَصْمَ أفظعُ من الكسر،

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٧٤، غير موجودة في الكشاف.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٨٠، و٢/ ١٥، ٢٧١، ٣٠٢، و٣/ ٢٩، ٥١، ١٤٩، ١٦٣، ١٦٩، ٢١٦، و٤/ ٦٦، ٢٣٥، ٢٧٥.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ١٣١، انظر: الكشاف: ٣/ ٦٠.

وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف القصم فإنه كسرٌ بلا إبانة»[١].

كما يستنبط أسراراً نفسية من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾[النور: ٢٣] فيقول: ولم يُغْلِظ الله تعالى في القرآن في شيء من المعاصي، تغليظه في إفك عائشة ﷺ، فأوجز في ذلك وأشبع، وفصّل وأجمل، وأكّد وكرّر، وما ذاك إلاّ لأمر. وعن ابن عباس ﷺ[٢] (من أذنبَ ذنباً ثم تاب قُبِلَتْ توبتُهُ إلاّ مَنْ خاض في أمر عائشة ﷺ) وهذا منه تعظيم ومبالغة في أمر الإفك»[٣].

ج ـ علم البديع:

قلنا: إن النسفي لم يُعْنَ بهذا العلم كما لم يعن به الإمام عبد القاهر الجرجاني والزمخشري، وذلك لما وجده فيه من تكلّف نُزِّهَ القرآن عنه، ولهذا لم نجد عنده إلاّ إشارات معدودة لبعض ما ورد في آيات القرآن من فنون هذا العلم، فأشار مثلاً إلى ما في بعض آياته من جناس، أو مشاكلة، أو التفات، ومن اللف والنشر، وكان له أثر كبير على معنى الآية:

١ ـ الجناس:

أشار النسفي إلى هذا الفن في بعض آيات القرآن، فأشار مثلاً إلى الجناس الوارد في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾[هود: ٤٤] قال: «واختير ابلعي على ابتلعي لكونه أخصر وللتجانس بينه وبين أقلعي»[٤].

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٧٣، انظر: الكشاف: ٣/ ٤.

(٢) والحديث لم أجده.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ١٣٨، انظر: الكشاف: ٣/ ٦٧.

(٤) تفسير النسفي: ٢/ ١٨٩ ـ ١٩٠، والجناس: هو تشابه اللفظين نطقاً، واختلافهما معنًى مفتاح العلوم: ص٤٢٩.

وأيضاً في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[يوسف: ٨٤] فقال: «والتجانس بين الأسف ويوسف غيرُ متكلفٍ ونحوه ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم﴾[التوبة: ٣٨] و﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ﴾[الأنعام: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف: ١٠٤] وقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ﴾[النمل: ٢٢] قال: «وقوله من سبأ بنبأ من محاسن الكلام، ويسمّى البديع، وقد حَسُنَ وبَدُعَ لفظاً ومعنًى هاهنا، ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبأ بخبر لكان المعنى صحيحاً، وهو كما جاء أصح، لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال»[١].

٢ ـ المشاكلة[٢]:

وقد يسميها أحيانا بالمقابلة ـ كما سمّاها[٣] السكاكي أيضاً.

قال مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾[البقرة: ٢٦] «ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة فقالوا: أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت، فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال، وهو فن من كلامهم بديع»[٤].

ويرى أن لفظه صبغة في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[البقرة: ١٣٨] للمشاكلة فيقول: «والأصلُ فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٢٠٨، انظر: الكشاف: ٣/ ١٣٩.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٣٥، ٧٨، ٩٩، و٣/ ١١، ١٨٤، ٢٠٧، ٣٢٢، و٤/ ٢٧٥، ورد هذا التعريف في ص٣٠٩ في الحاشية (٢) والمصدر هناك معترك الأقران تراجع هناك. وتحذف إحداهما منعاً للتكرار.

(٣) انظر: مفتاح العلوم: ص٤٢٤.

(٤) تفسير النسفي: ١/ ٣٥، انظر: الكشاف: ١/ ٥٥.

في ماء أصفر، ويسمّونه المعمودية ويقولون: هو تطهير لهم، فإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً حقاً، فأُمِرَ المسلمون بأن يقولوا لهم: آمنا بالله، وصَبَغَنا الله صبغته، ولم نُصْبَغ صبغتُكم، وجيء بلفظ الصبغة للمشاكلة كقولك لمن يغرس الأشجار: اغرس كما يغرس فلان، تريد رجلاً يصطنع الكرم»[1].

وهو ما قاله في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[النمل: ٢١][2] وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ١٩٣][3].

٣ ـ اللف والنشر[4]:

ويسميه البلاغيون بـ (الطي والنشر).

أشار النسفي إلى أماكن ورود هذا الأسلوب في آيات القرآن، وإلاّ أنه لم يبين فوائدَه، بل اكتفى بقوله «هذا من باب اللف» وتكرّر ذلك عنده في أربعة مواضع من تفسيره. قال مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥] قال: «شرع ذلك يعني جملةَ ما ذُكِرَ من أمر الشاهد بصوم الشهر، وأمر المرخّص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه، ومن الترخيص في إباحة الفطر فقوله ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ علة الأمر بمراعاة العدة، ولتكبروا علة ما عُلِمَ من كيفية القضاء، والخروج من عهدة الفطر، ولعلكم تشكرون علة الترخيص، هذا نوع من اللف اللطيف المسلك»[5].

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٧٨، انظر: الكشاف: ١/ ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٢٠٧.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٩٩، والكشاف: ١/ ١٤٤.

(٤) واللف والنشر: سبق تعريفه ص٢٦٦.

(٥) تفسير النسفي: ١/ ٩٥، انظر: الكشاف: ١/ ١١٤.

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام: ١٠٣] «وهو من قبيل اللف والنشر»[١].

وهو ما فعله أيضاً في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾[القصص: ٧٣][٢] وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾[الروم: ٢٣] إذ قال فيه «هذا من باب اللف»[٣].

٤ ـ الالتفات[٤]:

ويسميه ابن الأثير بـ (الشجاعة العربية) وقد اهتم به النسفي اهتماما شديداً فأشار إليه في مواضع كثيرة من تفسيره، ووضع له تعريفاً في أثناء تفسير قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ورأى أن الالتفات ثلاثةُ أنواع فقال: «وعدل عن الغيبة إلى الخطاب للالتفات، وهو قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[يونس: ٢٢] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾[فاطر: ٩] وقول امرئ القيس:

تَطاولَ ليلُكَ بالإثمدِ ونامَ الخليُّ ولم ترقدِ
وباتَ وباتَتْ له ليلة كليلةِ ذي العائر الأرمدِ

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٣٧، انظر: الكشاف: ٢/ ٣٢.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٢٤٤.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ٢٦٩، انظر: الكشاف: ٣/ ٢٠١.

(٤) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٨٨، ١٠٦، ١٩٧، ٢٢٩، ٢٣٤، و٢/ ٨١، ٩٧، ٢٨٩، ٣٠٦، و٣/ ٨٨، ١٣٥، ١٥١، ١٥٧، و٤/ ٢٧٠، ٢٨٢، ٣٦٧، انظر تعريفه في: مفتاح العلوم: ص١٩٩.

وذلك من نبأٍ جاءني وخَبِرْتُه عن أبي الأسود[1]

وأنواع الالتفات هذه موجودة في القرآن الكريم، فقد وجد في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾[الأنبياء: ٩٢ ـ ٩٣] التفات وفيه صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة قال: «أصل الكلام وتقطعتم إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات»[2].

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] ففيه التفات، صُرِفَ فيه الكلام من الخطاب إلى الغيبة قال: «وإنما عُدِلَ عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر ولم يقل ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم، ليبالغ في التوبيخ بطريق الالتفات»[3].

أما الالتفات بصرف الكلام من الغيبة إلى الخطاب فقد وجده النسفي في آيتين من آيات القرآن أيضاً، الأولى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[النور: ٥٣ ـ ٥٤] قال: «صُرِفَ الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريق الالتفات، وهو أبلغ في تبكيتهم»[4].

والموضع الثاني في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ۝ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾[الفرقان: ١٨ ـ ١٩] قال: «ثم يقال

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٧، انظر: الكشاف: ١/ ١٠، وهو ما رآه السكاكي أيضاً في الالتفات (مفتاح العلوم): ص١٩٩.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٨٨، انظر: الكشاف: ٣/ ٢٠.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ١٣٥، انظر أيضاً: تفسير النسفي: ٣/ ١٥٧.

(٤) تفسير النسفي: ٣/ ١٥١، انظر: الكشاف: ٣/ ٦٥.

للكافر بطريق الخطاب عدولاً عن الغيبة ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ وهذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة، وخاصة إذا انضّم إليها الالتفات»[1]. والنوع الثالث من الالتفات هو صرف الكلام من التكلم إلى الغيبة. وقد أشار إليه في قول الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥] قال: «نُقِلَ الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريق الالتفات»[2].

واكتفى النسفي بهذه الأنواع الثلاثة بينما أضاف ابن الأثير[3] أنواعاً أخرى لم يعدها النسفي منه.

فوائده: ذكر النسفي جملة من فوائد الالتفات، على الرغم من أن ابن الأثير أضاف فوائد أخرى[4] له، والفوائد الذي ذكرها النسفي له مذكورة في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: «والعرب يستكثرون منه (من الالتفات) ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدْخَلَ في القبول عند السامع، وأحسنَ تطرية لنشاطه، وأملأَ لاستلذاذ إصغائه، وقد تختص مواقعه بفوائد ولطائف قلّما تتضح إلا للحذّاق المهرة، والعلماءِ النحارير ـ وقليلٌ ماهم»[5].

وقد يحمل الالتفات معنى التعميم وهو ما وجده فقط في قول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ

(١) تفسير النسفي: ٣/ ١٦١، انظر: الكشاف: ٣/ ٩٢.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٧، انظر: الكشاف: ٣/ ٢٨٦

(٣) انظر: المثل السائر: ٢/ ٣، انظر: علم البديع: ص١٤٠ـ ١٤٨.

(٤) انظر: المثل السائر: ٢/ ٣، انظر: علم البديع: ص١٤٠.

(٥) تفسير النسفي: ١/ ٧، انظر: الكشاف: ١/ ١٠.

﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾[الروم: ٣٩] قال: «ذوو الإضعاف من الحسنات ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ التفات حسن لأنه يفيُد التعميم، كأنه قيل: من فَعَلَ هذا فسبيله سبيل المخاطبين»[١].

أو يكون شاهداً على شدة الغضب، وهو ما وجده في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ۝٢٩ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[النبأ: ٢٧ ـ ٣٠] قال: «والالتفات شاهد على شدة الغضب»[٢].

وربما كان وسيلةً لبيان فخامة شأن المتكلَّم عنه، وهو المعنى الذي تحمله الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ٦٤] قال: «وعُدِلَ عنه إلى طريقة الالتفات تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لاستغفاره، وتنبيهاً على أن شفاعةَ مَنْ اسمه الرسول مِنَ الله بمكان»[٣].

ومن خلال ما تقدم، يبدو واضحاً أن عناية النسفي انصبّت على علم المعاني والبيان بالدرجة الأولى، فذكر مختلفَ فنون هذين العلمين، بينما اكتفى بالإشارة إلى ما في آيات القرآن من فنون علم البديع الخادمة للمعنى والمبينّة له، ولذا اقتصر على ذكر هذه الفنون الأربعة المذكورة قبل قليل.

* * *

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤، انظر: الكشاف: ٣/ ٢٠٥.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٣٢٧، انظر: الكشاف: ٤/ ١٧٩.

(٣) تفسير النسفي: ١/ ٢٣٤، انظر: الكشاف: ١/ ٢٧٧.

الفَصْلُ السَّادِسُ

النسفي بين الزمخشري والبيضاوي

النسفي بين الزمخشري والبيضاوي:

رأينا في حديثنا عن مصادر النسفي، أن تفسير الكشاف للزمخشري، وأنوارَ التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي[1] كانا من المصادر الرئيسية التي عاد إليها في تفسيره، وبدا بشكل واضح من خلال دراستنا لمنهج النسفي البلاغي والأدبي والتربوي تأثره الواضح بالزمخشري ونقله عنه، حتى بات بإمكاننا أن نقول كما قال غيرنا ممن تحدث عن هذا التفسير: إن تفسير النسفي هو تلخيص لتفسير الزمخشري، وتهذيب له.

أما تأثره بالبيضاوي فقد بدا فيما أخذه عنه من نظرات لغوية، أو فكرية ألفّت أساس مذهبهما الذي انتسبا إليه خلافاً للزمخشري. إلاّ أن هذا لا يعني أن هذه التفاسير تشكل صورة واحدة، فلكلٍ منها صفاته وطابعه الخاصُّ ومصادرُه التي عاد إليها مؤلفه في أثناء تفسيره لآيات القرآن الكريم، كما أن لكل مفسر منهم نظرته

---

(١) هو عبدالله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، لُقِّبَ ناصر الدين، وكنيته أبو الخير، أو أبو سعيد، نسب إلى البيضاء، كان عالماً باللغة والفقه والتفسير، والعربية، والمنطق، والحديث، كما برع في القضاء، توفي ٦٩١هـ وقيل ٦٩٦هـ وهو تصحيف، والراجح وفاته سنة (٦٨٥هـ)، له مؤلفات جليلة منها: تفسيره للقرآن، ومنهاج الوصول إلى علم الأصول، ومنتهى المنى، ومصباح الأرواح، وتحفة الأبرار، وطوالع الأنوار وغيرها.

انظر ترجمته في: طبقات الشافعية: ٨/ ١٥٧ ـ ١٥٨، وهدية العارفين: ٥/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣، وكشف الظنون: ١/ ١٨٦.

وآراءه الخاصة به والمتناسبة مع مبدئه الفكري الذي انطلق منه في تفسيره. ولهذا لا بد من دراسة لما تشابهت به التفاسير، ثم لأوجه التشابه والاختلاف بين النسفي وكل من الزمخشري والبيضاوي.

أ ـ ما تشابهت فيه التفاسير الثلاثة:

وإذا عدنا إلى هـذه التفاسير نجد أن ثمـة أموراً مشتـركة بيـن هذه التفاسير الثلاثة، فهم يسيرون أثناء تفسيرهم للآية على طريقة واحدة، يشرحون بعض ألفاظها، ويعربون البعض كمـا يتعرضون لمـا ورد في الآيـة من قراءات، وقد يستـطردون أحياناً استطرادات أدبية خادمة لمعنى الآية، وقد يجدون مجالاً للحديث عن بعض علـوم القرآن من خلال بعـض ألفاظ الآيات، وهـم فوق هذا كلـه يتبعون مذهب البصريين اللغوي وهو ما أشرنا اليه في حديثنا عن منهج النسفي اللغوي.

١ ـ الطريقة العامة للتفسير:

يتفق هؤلاء الثلاثة في طريقتهم العامة التي اتبعوها في تفسيرهم، فهم جميعاً فسروا القرآن ـ سوره وآياته ـ وفق الترتيـب القرآني لها، كما استطـاعوا استـغلال بعض ألفاظ القرآن في الحـديث عن بعض علومه التي اعتاد المفسرون ذكرها في تفاسيرهم، فالثلاثة درجوا على ذكر السورة القرآنية فهم يذكرون مكيتها ومدنيتها، وعدد آياتها، وما قيل في سبب نزول بعض آياتها (إن كان لها سبب نزول خاص) وما قيـل في ناسخهـا ومنسوخهـا، وربما أعربوا ما يرونه بحاجة إلى إعراب، أو شرحوا الألفاظ التي يرونها بحاجة إلى شرح، ولم ينس هؤلاء جميعاً ذِكْرَ ما ورد في هذه الآيات من قراءات، ملتزمين قاعدة واحدة وهي عدم[1] إعادة ما فسر في آية

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ١٣٩، ١٤٥، ١٥٧، ١٦٦، ٢٢٦، ٣٠١، والكشاف: ٢/ ١٦٥، ٢١٢، و٣/ ٤٦، وتفسير النسفي: ١/ ٥١، و٢/ ٣٠٨، ٣٠٣، و٣/ ١١٠.

سابقة، والإشارة إلى مكان وروده.

ويبدو تقاربُ هذه التفاسير أكثرَ في طريقة تفسيرهم العامة وعنايتهم ببعض الجوانب السابقة إذا عرضنا ما قالوه في تفسير آية من آيات القرآن. لنأخذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[الأنفال: ٦٠] قال الزمخشري: «من قوة: من كل ما يُتقوى به في الحرب من عددها، وعن عقبة بن عامر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول على المنبر: (ألا إن قوة الرمي قالها ثلاثاً)[١] ومات عقبة عن سبعين قوساً في سبيل الله، وعن عكرمة: هي الحصون، والرباط: اسم للخيل التي تُرْبَطُ في سبيل الله، ويجوزُ أن يسمّى بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة، ويجوز أن يكون جمعُ ربيط كفصيل وفصال، وقرأ الحسن: ومن رباط الخيل بضم الباء وسكونها رباط، ويجوز أن يكونَ قولُه: ومن رباط الخيل تخصيصاً للخيل من بين ما يتقوى به كقوله: جبريلَ وميكالَ وعن ابن سيرين ـ رحمه الله ـ سئل عمّن أوصى بثلث ماله في الحصون فقال: يشترى به الخيل فترابط في سبيل الله، ويُغْزَى عليها فقيل له: إنما أوصى في الحصون فقال: ألم تسمع قول الشاعر[٢].

.... أَنَّ الحصونَ الخيلَ لا مَـدَرَ القـرى

(ترهبون) قُرِئَ بالتخفيف والتشديد، وقرأ ابُن عباس ومجاهد ﷺ تخرون،

---

(١) والحديث في جامع الأصول: ٢/ ١٤٧ رقم الحديث ٦٣٦ وتخريجه ثمة.

(٢) هو عجز البيت وصدره: ولقد علمت على تجنبي الردى، وهو للأسعر الجعفي واسمه: مَرْثد بن أبي حمران بن الحارث بن معاوية الجعفي، شاعر جاهلي لُقِّبَ بالأسعر لقوله:

فـلا يـدعني قـومي لـسعد بـن مالـك ... إذا أنـا لـم أسـعر علـيهم وأثقـب

ولم تعرف سنة ولادته ولا وفاته.

والضمير في «به» راجع إلى ما استطعتم ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ هم أهلُ مكة، (وآخرين من دونهم) هم اليهود، وقيل المنافقون، وعن السُّدي هم أهل فارس، وقيل كفرةُ الجن»(١).

وقال البيضاوي في تفسيرها: «وأعدوا أيها المؤمنون لهم لناقضي العهد أو الكفار (ما استطعتم من قوة) من كل ما يُتقَوى به في الحرب، وعن عقبةَ بنِ عامر سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر: (ألا إنّ القوة الرمي، قالها ثلاثاً) ولعلّه عليه الصلاة والسلام خصّه بالذكر لأنه أقواه، ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، فِعال بمعنى مفعول، أو مصدر سُمِّيَ به، يقال: ربط ربطاً ورباطاً، ورابَطَ مُرابطةً ورِباطاً، أو جمع رَبِيط كفصيل وفِصَال، وقرئ رُبُط الخيل بضم الباء وسكونها: جمع رباط، وعطفها على القوة كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة (ترهبون به) تخوفون به، وعن يعقوب تُرَهِّبُون بالتشديد، والضمير لما استطعتم، أو للأعداء (عدو الله وعدوكم)؛ يعني: كفار مكة، (وآخرين من دونهم) من غيرهم من الكفرة قيل: هم اليهود، وقيل: المنافقون، وقيل: الفرس»(٢).

أما النسفي فقال في تفسيرها: «(﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُم﴾ لناقضي العهد، أو لجميع الكفار ما استطعتم من قوة، من كل ما يتقوى به في الحرب من عددها، وفي الحديث: (ألا إنّ قوة الرمي) قالها ثلاثاً على المنبر، وقيل: هي الحصون، ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ هو اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، أو هو جَمْعُ رَبِيط كفصيل وفِصال، وخصّ الخيل من بين ما يُتَقَوّى به كقوله: جبريل وميكال ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ بما استطعتم ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾؛ أي: يا أهل مكة

(١) الكشاف: ٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣.
(٢) تفسير البيضاوي: ص٢٤٣ ـ ٢٤٤.

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ غيرهم، وهم اليهود أو المنافقون، أو أهل فارس أو كفرة الجن»[١].

فمن الواضح أن الأمثلة السابقة توضّح التشابه في أسلوب هذه التفاسير وطريقتهم العامة في عرض المعنى وتفسير الآية.

وأمثال هذا كثير[٢].

٢ ـ تعرضهم للحديث عن بعض علوم القرآن في أثناء تفسيرهم للآيات:

والملاحظ على هذه التفاسير هو أن مؤلفيها تعرّضوا لبعض علوم القرآن في أثناء تفسيرهم، إلاّ أنهم جميعاً لم يخصصّوا لهذا الأمر فقرة خاصة بها، بل تحدّثوا عنها في تفسيرهم لبعض آيات القرآن التي تتضمن بعض الألفاظ التي تفتح لهم باب الحديث عنها، فالثلاثة تحدثوا عن أسباب النزول (وإن لم يضعوا لهذا الأمر تعريفاً صريحاً) واستخدموا الصيغَ المعروفة في التعبير عنه، وإن كانت الصيغة الغالبة عليها جميعاً هي: روي أنه حدث كذا[٣] فنزلت.

أما حديثهم عن الناسخ والمنسوخ، فقد وجدوا له مجالاً في تفسير قول الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[البقرة: ١٠٦] فرأى الزمخشري أن معنى النسخ: الإزالة بإبدال أخرى مكانَها، وأجاز النسخَ قبل الفعل، كما أجاز نَسْخَ القرآن بالقرآن، ونَسْخَ القرآن بالسنة المكشوفة المتواترة، أما نَسْخُ

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ١٠٩ـ ١١٠.

(٢) انظر مثلاً: الكشاف: ١/ ٢٦١، و٣/ ١٣١، و٤/ ٣٠، وتفسير البيضاوي: ص٢٦١، ٤٧٥، ٤٧٩، ٤٩٩، وتفسير النسفي: ٣/ ٥٧، ١٢٩، ١٦٤.

(٣) انظر مثلاً: الكشاف: ١/ ١٢٢، ١٣٣، ١٣٩، و٢/ ٨، ١١، ١٦، تفسير البيضاوي: ص٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٩، ٤١، ٤٣.

القرآن بالإجماع والقياس والسنة غير المقطوع بها فغير جائز عنده، كما رفض النسخ قبل وقت الفعل لأدائه إلى البَدَاء[١]، ورأى أن النسخ قد يكون نسخ الأشقّ بالأهون، أو الأهون بالأشقّ، أو الأشقّ بالأشقّ أو الأهون بالأهون، والعُمْدَة[٢] في ذلك كله هو المصلحة.

أما النسخ عند البيضاوي: فهو بيان انتهاء التعبد بقراءتها، أو الحكم المستفاد منها، أو بها جميعاً، وهو يجيز نَسْخَ السنة[٣] بالقرآن.

كما وجدوا في قول الله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] مجالاً للحديث عن المحكم والمتشابه، وبدت آراؤهم واضحة جلية، قال الزمخشري: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أصل الكتاب، تحمل المتشابهات عليها، وتُرَدُّ إليها، ومثال ذلك ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[الأنعام: ١٠٣] و﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٣] و﴿لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[الأعراف: ٢٨] و﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾[الإسراء: ١٦] فإن قلت: فهل كان القرآن كله محكماً؟ قلنا: لو كان محكماً لتعلّق الناسُ به لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عمّا يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطّلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلاّ به، ولِمَا في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولِمَا في تقادح العلماء وإتعابهم القرائحَ في استخراج معانيه وردّه إلى المحكم من الفوائد الجليلة، والعلوم الجمّة، ونيل الدرجات عند الله، ولأن المؤمن المعتقدَ أن لا مناقضة في كلام الله، ولا اختلاف إذا

---

(١) والبَدَاء هو: الظهور بعد الخفاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أو هو نشأة رأي جديد لم يك موجوداً، انظر: اللسان مادة (بدا)، انظر: البرهان: ٢/ ٣٠، ومباحث في علوم القرآن، د. صبحي صالح: ص٢٧١.

(٢) انظر: الكشاف: ١/ ٧٥ ـ ٧٦، ٨٧، و٢/ ٣٤٤.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ص٢٢، ٢٣، ٣٩.

رأى فيه ما يتناقض في ظاهره وأَهمَّهُ طلبُ ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد، ففكر وراجع نفسه وغيره ففتح الله عليه، وتبيّن مطابقةَ المتشابهِ المحكمَ ازداد طمأنينة إلى معتقده وقوة في إيقانه»[١].

وقال البيضاوي: «آياتٌ محكماتٌ: أُحْكِمَتْ عبارتُها بأن حُفِظَتْ من الاحتمال والإجمال (هُنّ أمُّ الكتاب) أصله: يرد إليها غيرها (وأخر متشابهات) محتملات لا يتضح مقصودها لإجماله أو مخالفة ظاهره إلاّ بالفحص والنظر، ليظهر فيها فضل العلماء ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا في تدبيرها، وتحصيل العلوم المتوقِّفِ عليها استنباط المراد بها، فينالوا بها وبإتعاب القرائح في استخراج معانيها، والتوفيق بينها وبين المحكمات معالي الدرجات»[٢].

إلاّ أنّ النسفي يختلف مع الزمخشري والبيضاوي في اعتقاده أن المتشابه ممّا لا يعلم تأويله إلا الله، وأيّد رأيه بقراءة عبدالله (إنْ تأويلُهُ إلا عند الله) وبقراءة أُبَيّ (ويقول الراسخون) ولذا أوجبَ الوقوفَ على «إلاّ الله»، أما الزمخشري فرأى أن المتشابه ممّا يعلمه الراسخون في العلم أيضاً قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي: لا يهتدي إلى تأويله الحق الذي يجب أن يُحُمَلَ عليه إلا الله وعباده الذين رسخوا في العلم؛ أي: ثبتوا فيه وتمكّنوا وعضّوا فيه بضرس قاطع، ومنهم من يقف على قوله «إلا الله» ويبتدئ «والراسخون في العلم يقولون»، ويفسرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه وبمعرفة الحكمة فيه من آياته، كعدد الزبانية ونحوه، والأول هو الوجه»[٣].

---

(١) الكشاف: ١/ ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٢) تفسير البيضاوي: ص٦٧.

(٣) الكشاف: ١/ ١٧٥ ـ ١٧٦.

ولم يُغْفِلْ هؤلاء الثلاثة الحديثَ عن معنى السورة القرآنية، وفائدة تسوير القرآن، ورأى كل منهم أن السورة مشتقة إمّا من السور وواوها أصلية، وهي إما أن تسمى بسور المدينة، وهو حائطها لأنها طائفة من القرآن محدودة كالبلد المسور؛ أو لأنها محتويةٌ على فنون كثيرة من العلم، وأجناس من الفوائد كاحتواء سور المدينة على ما فيها، وإمّا أن تسمّى بالسورة بمعنى المنزلة، لأن السُوَر بمنزلة المراتب والمنازل، وإن جعلت واوها منقلبة عن همزة فلأنها قطعة وطائفة من القرآن كالسُؤْرة، بمعنى البقية من الشيء والفضلة منه، والسُوَرُ مقسومة إلى طوال وأوساط وقصار، أما فائدة تسوير القرآن فليست واحدة، قال الزمخشري: «ليست الفائدة في ذلك واحدة، ولأمر ما أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه على هذا المنهاج سورة مترجمةَ السورِ، وبوّبَ المصنفون في كل فن كتبهم أبواباً موشحة الصدور بالتراجم، ومن فوائده أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع، واشتمل على أصناف كانَ أحسنَ وأنبلَ وأفخمَ من أن يكون بياناً واحداً، ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو باباً من الكتاب، ثم أخذ في آخر كان أنشطَ له، وأهزّ لعطفه، وأبعثَ على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله، ومن ثمَّ جزّأَ القراءُ القرآنَ أسباعاً وأجزاء وأعشاراً وأخماساً، ومنها أن الحافظ إذا حَذِقَ السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة، فَيَعَظُمُ عنده ما حفظه ويجلُّ في نفسه ويغتبط به، ومنها أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر، وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني، ويتجاوب النظم إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع»[1].

أما البسملة فقد توقف[2] الزمخشري عند عرض الآراء حولها، فقد عدّها

---

(١) الكشاف: ١/ ٤٧ ـ ٤٨، انظر: تفسير البيضاوي: ص١٨، وتفسير النسفي: ١/ ٣٠ ـ ٣١.

(٢) انظر: الكشاف: ١/ ٤.

بعض العلماء آية، وبعضهم رأى أن البسملة ليست بآية، بينما رأى[١] البيضاوي أن البسملة آية من الفاتحة ومن كل سورة في القرآن، وجعلها النسفي[٢] آية من القرآن نزلت للفصل بين السور.

ورأى هؤلاء جميعاً أن أوائل السور بعضها آية، وبعضها لا يعد آية، وهذا الأمر علم[٣] توقيفي، كما أشاروا إلى معانيها وإلى اختلاف الفقهاء في ذلك.

٣ ـ مذهبهم اللغوي:

أما نقطة التشابه الثالثة بين هذه التفاسير فهي انتماؤهم جميعاً إلى مذهب[٤] البصريين اللغوي، وإن كان البيضاوي أكثرهم صراحة في تفضيل هذا المذهب، وإعلانه الانتماء إليه، قال في بداية تفسيره: «والاسم عند أصحابنا البصريين من الأسماء التي حُذِفَتْ أعجازها لكثرة الاستعمال...»[٥].

٤ ـ الأفكار العامة:

والتفاسير الثلاثة تلتقي في أفكارها العامة التي تعرض لها المفسرون الثلاثة، كما يبدو اتحادهم في المسائل الفقهية والكلامية التي عرضت في تفاسيرهم، فالثلاثة تحدثوا عن الإيمان[٦] ومعناه وهل يزيد أو ينقص، وعن رؤية الله[٧] يوم القيامة،

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ص٢.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٣.

(٣) انظر: الكشاف: ١/ ١٣ ـ ١٨، وتفسير البيضاوي: ص٦ ـ ٧، وتفسير النسفي: ١/ ١٠.

(٤) انظر: الكشاف: ١/ ٩٥، ٩٨، و٢/ ٢١٣، و٣/ ٣٧٢، وتفسير البيضاوي: ص١٧٤ ـ ١٩٥، انظر: مذهب النسفي اللغوي: ص٢٥٣.

(٥) تفسير البيضاوي: ص٢.

(٦) الكشاف: ١/ ٢٢، ٢٣١، البيضاوي: ص٨٠، ٩٦، النسفي: ١/ ١٣.

(٧) الكشاف: ١/ ٣٥٥، و٢/ ٨٩، تفسير البيضاوي: ص١١، ٢٢١، ٧٨٩، =

والهداية والإضلال، وصاحب الكبيرة[١] والشفاعة، وفضل[٢] الملائكة على البشر، وبطلان[٣] التقليد، والأمر بالمعروف[٤] والنهي عن المنكر، وكلام الله[٥] تعالى، وهل يُعد الحرام رزقاً أو لا[٦]، إلى غير ذلك من المسائل الجزئية الأخرى التي طُرِحَتْ في هذه التفاسير، حتى بات بإمكاننا مقارنة آرائهم في هذه المسائل بالعودة إلى تفسير الآية ذاتها عند الثلاثة لمعرفة ما قيل فيها.

٥ ـ الجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير العقلي:

والنقطة الأخيرة التي تلتقي بها هذه التفاسير هي الجمع بين التفسير النقلي والتفسير العقلي، فهم مفسرون نقليون في ذكرهم لأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، أو في تفسيرهم القرآن ببعضه (فالقرآن[٧] يفسر بعضه كما قالوا) أو بما نقل عن النبي[٨] ﷺ وبعض صحابته في تفسير بعض الآيات، ولذا

= تفسير النسفي: ٢/ ٧٥، ١٦١، و٤/ ٣٤٠.

(١) الكشاف: ١/ ٦٧، ١٥٢، ٢٧٣، تفسير البيضاوي: ص١٧، ٨٠٢، تفسير النسفي: ٤٧٨، ٤/ ٢٤٦، ٣١٢.

(٢) الكشاف: ١/ ٨٤، ٢/ ٢٥٤، تفسير البيضاوي: ص٢٥، تفسير النسفي: ٢/ ٣٢٢، و٤/ ٣٧١.

(٣) الكشاف: ١/ ٨٨، تفسير البيضاوي: ص٣٥، تفسير النسفي: ١/ ٢٣٩، و٢/ ٨٥.

(٤) الكشاف: ١/ ٢٠٨، تفسير البيضاوي: ص٨٤، تفسير النسفي: ٤/ ٢٩٥.

(٥) الكشاف: ٣/ ٤٠٩، تفسير البيضاوي: ص٦٤٦، تفسير النسفي: ٤/ ١١١ ـ ١١٢.

(٦) الكشاف: ٢/ ٢٢٩، ٢٨٦، تفسير البيضاوي: ص١٦٠، تفسير النسفي: ٢/ ٢٤٨.

(٧) انظر: الكشاف: ٢/ ٢٣٥، ٣/ ٢٠١، ٤/ ١٣٩، تفسير البيضاوي: ص٢٣١، ٢٣٨، ٣٥٨.

(٨) انظر: الكشاف: ٢/ ٢٠٨، ٢٣٧، ٤٠٩، تفسير البيضاوي: ص٣٨٤، ٥٤٩، ٦٠١، ٦١٠ مثلاً.

فقـد ترددت في تفاسيرهم أسماء عدد من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، وإن كان عبدالله بن عباس، وعائشة، وعلي وعبدالله بن مسعود وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة ـ وهم الذين اهتموا بالتفسير ـ أسماء مشتركة بين هذه التفاسير، أما تفسيرهم العقلي فقد انحصرت اجتهاداتهم فيه في نظراتهم اللغوية أو الأدبية أو التربوية والبلاغية إضافة إلى استنباطاتهم العقليـة، وعرضهم لآراء الفقهاء، ولما في الآية من أحكام فقهية.

والملاحظ أن كل مـا أضافوه إلى تفسيـرهم من نظـرات لغـوية أو أدبيـة، كان الغرض من ورائهـا خدمة التفسير، وتقريبَ معنى النص القرآني وتوضيحَه، وهـذا ما دعا الثلاثـة إلى تفضيل القراءة التي تقـوي المعنى وتحفظ النظم القرآني وحسنه[1].

---

(١) إلاّ أن هـذا الاهتمـام دفع الزمخشري إلى الغلو في تطبيق هذه القاعدة، مما دعاه إلى أن يعد النحو أصلاً، والقراءة فرعـاً، وحمله هـذا على رفض قراءة ابن عامر وهو من القراء السبعـة لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ قال: «وأما قراءة ابن عامر: ﴿قتلُ أولادَهم شركائهم﴾ برفع القتل، ونصب الأولاد وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء، والفصل بينهمـا بغير الظـرف، فشيء لو كان في مكان الضرورات ـ وهو الشعر ـ لكان سمجاً مردوداً، كما سمج:

زجَّ القلـــوصِ أبـــي مـــزادة

فكيف به الكلام المنثور، فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته؟».

الكشاف: ٢/ ٤٤.

كما رفض قراءة ابن أبي عبلة لقولـه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ قال: «وعن ابن أبي عبلة أنه قرأ ﴿غيرِ ناظرين﴾ بالجر صفةً لطعام، وليس بالوجه لأنه جرى على غير ما هو له، فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى =

ب ـ ما اختلفت فيه هذه التفاسير:

والحديث عما اختلفت فيه التفاسير يجب أن نقسمه إلى ما اختلف فيه الزمخشري والنسفي، وإلى ما اختلف فيه البيضاوي والنسفي فهناك بعض التشابه والاختلاف بين كل منها وبين النسفي.

١ ـ ما اختلف فيه النسفي والزمخشري:

رأينا أن النسفي كان على مذهب الجماعة، وتابعهم على آرائهم وأيدها في تفسيره، بينما كان الزمخشري على مذهب المعتزلة وتمسك بآرائهم، وسار على مبدئهم في تفسيره كله، وحاول أن يثبت آراءهم فيه، وهذا ما دعا إلى وجود خلاف جذري بين المفسرَيْن ولذا فقد اختلفا في أمور كثيرة، فاختلفا في المبادئ والأفكار وفي الطريقة العامة التي اتبعها كلٌ منهما في تفسيره، كما اختلفا أيضاً في المصادر والمراجع.

أولاً ـ المبادئ والأفكار:

١ ـ نظرته إلى كثير من الآيات القرآنية والحكم عليها بالإحكام والتشابه:

وقد بدت ظواهر الخلاف بينهما في نظرتهما إلى الكثير من الآيات القرآنية، والحكم عليها بالإحكام أو التشابه، فقد جعل الزمخشري الآيات التي تخدم فكرة الاعتزال محكمة، وما يخالفها متشابهة، وهذا ما دعاه إلى أن يعدَّ قول الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[الأنعام: ١٠٣] وقوله: ﴿لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[الأعراف: ٢٨] محكمة، أما قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٣] وقوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾[الإسراء: ١٦] فمتشابهة خلافاً للنسفي الذي عَدّ الآيتين الأولى والثانية من المتشابه، والآيتين الأخيرتين من المحكم.

= اللفظ فيقال: غير ناظرين إناه أنتم كقولك: هند زيد ضاربته هي». الكشاف: ٣/ ٢٤٤.

٢ ـ رؤية الله:

على الرغم من اتفاق الزمخشري والنسفي على نفي التجسيم وسلوك النسفي مسلك الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥] فجعله كناية عن الملك، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر: ٦٧] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[الفتح: ١٠] فيجعلها تخييلاً، لكنه يختلف معه في نفي رؤية الله يوم القيامة، لأن من أثبت رؤية الله ـ برأي الزمخشري ـ فقد جعله جسماً كالأجسام، ورأى كلٌ منهما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾[البقرة: ٥٥] ما يؤيد رأيه ويقويه. قال الزمخشري: «وفي هذا الكلام دليلٌ على أن موسى عليه الصلاة والسلام رادّهم القول، وعرّفهم أن رؤية ما لا يجوز عليه أن يكون في جهةٍ محالٌ، وأن من استجاز على الله الرؤية فقد جعله من جملة الأجسام أو الأعراض، فرادوه بعد بيان الحجة، ووضوح البرهان، أو لجُّوا فكانوا في الكفر كعبدةِ العجل، فسلّط الله عليهم الصعقة، كما سلّط على أولئك القتل، تسوية بين الكُفرين، ودلالة على عظمهما بعظم المحنة»(١).

ورأى النسفي(٢) في الآية ما يُثبِتُ رؤية الله وجعل عذابهم بسبب كفرهم وعنادهم لامتناعهم عن الإيمان بموسى بعد ظهور معجزاته، ولعدم جواز اقتراح الآيات عليه، ولسؤالهم ذلك سؤال تعنّتٍ وعناد لا سؤال استرشاد وهداية.

فقد وجد الزمخشري في قول الله تعال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[الأنعام: ١٠٣] ما يؤيد رأيه هذا ويقويه قال: «البصر هو الجوهر اللطيف الذي ركبّه الله في حاسة

---

(١) الكشاف: ١/ ٧٠.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ٤٩.

النظر وبه تدرك المبصرات، فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به، ولا تدركه لأنه متعالٍ أن يكـون مبصراً في ذاتـه، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلاً أو تابعاً كالأجسام والهيئات»[١].

كمـا وجد النسفي فيها ما يؤيـد رأيه أيضاً، إذ رأى أن المنفيَّ في هذه الآية الإدراك وهو كما يعرّفه: الوقوف على جوانب المرئي وحدوده، وما يستحيل عليه الحدود والجهات يستحيل ادراكه لا رؤيته»[٢].

وهو نفســه ما نجده في مسألة إيمان حملة العرش، فقد وجد فيه كلٌّ منهما ما يثبت رأيه، فبينما يرى الزمخشري أن ذلك دليلُ عدم الرؤية بقوله في تفسير قوله تعالـى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾[غافر: ٧] «فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ لا يخفى على أحد أن حملةَ العرش وَمَنْ حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون؟ قلت: فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله، والترغيب فيه كما وَصَفَ الأنبياءَ في غير موضع من كتابه با الصلاح لذلك وكما عقَّب أعمـال الخيـر بقـوله تعـالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[البلد: ١٧] فأبان بذلك فضـل الإيمان، وفائدة أخرى: وهي التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة[٣] لكان حملة العرش ومن حوله مشاهدين معاينين، ولما وصفوا بالإيمان لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب، فلمّا وصفوا به على سبيل الثناء عليهم علم أن إيمانهم وإيمان من في الأرض، وكل من غاب عن ذلك المقام سواء، في أن إيمان الجميع بطريق النظـر والاستدلال لا غير، وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا، وأنه

---

(١) الكشاف: ٢/ ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ٢٧.

(٣) يعني السنة، انظر: حاشية الأستاذ الفاضل محمد عليان المرزوقي، الكشاف: ٣/ ٣٦١.

منزه عن صفات الأجسام»[١].

بينما توقف النسفي[٢] عند قول الزمخشري «فأبان بذلك فضل الإيمان» وترك ما أضافه الزمخشري مؤيداً لفكرة الاعتزال.

٣ ـ خلق القرآن:

والقرآن عند الزمخشري مخلوق خلافاً للنسفي[٣] وجماعته، وقد أشار إلى هذا في تفسير قول الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء: ٨٨] قال: «والعَجَبُ من النوابت[٤] ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز، وإنما يكون العجز حيث تكون المقدرة، فيقال: الله قادر على خلق الأجسام، والعباد عاجزون عنه، وأما المحال الذي لا مجال فيه للقدرة، ولا مدخل لها منه كثاني القديم فلا يقال للفاعل قد عجز عنه، ولا هو معجز، ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز، لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال، إلا أن يكابروا فيقولوا: هو قادر على المحال، فإن رأسَ مالهم المكابرة وقلب الحقائق»[٥].

٤ ـ جواز فعل الله للشر أو القبيح:

ويتفق النسفي مع الزمخشري في جزء من نظرية أخرى، فهما يتفقان على أن عاقبة الدنيا هي الخير، وهو ما أوضحناه في تفسيرهما لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ

---

(١) الكشاف: ٣/ ٣٦١.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٤/ ٧١.

(٣) حيث يرى أن كلام الله قديم لا مخلوق، انظر: عمدة عقيدة أهل السنة: ورقة ٧.

(٤) والمقصود بهم أهل الجماعة، انظر: الإنصاف (في حاشية الكشاف): ٢/ ٣٧٤.

(٥) الكشاف: ٢/ ٣٧٤.

﴿أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾[القصص: ٣٧] قال الزمخشري: «هي العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾[الرعد: ٢٢ ـ ٢٣] وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[الرعد: ٤٢] والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها عقباها أن يُخْتَمَ للعبدِ بالرحمةِ والرضوانِ، وتلقي الملائكة بالبشرى بعد الموت»[١] وهو ما رآه[٢] النسفي أيضاً.

إلا أنه يخالفه في الجزء الثاني من هذه المسألة، فعلى حين يرى الزمخشري أن كلَّ أعمال الله مصلحةٌ، ولا يجوز على الله فعلُ الشر[٣] أو القبيح وهو ما أعلنه مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء: ٢٣] قال: «إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم مَنْ في مملكتهم عن أفعالهم، وعمّا يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيباً وإجلالاً، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم، كان ملك الملوك وربُّ الأرباب خالقُهم ورازقُهم أَوْلَى بأن لا يُسْأَلَ عن أفعاله، مع ما علم واستقر في العقول أن ما يفعله كله مفعول بدواعي الحكمة، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبيح»[٤] ويرى الزمخشري وجوبَ المغفرة للتائب[٥] خلافاً للنسفي الذي يرى أنه لا يجب[٦] على الله شيء، وأن الله

---

(١) الكشاف: ٣/ ١٦٧.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٢٣٦.

(٣) انظر: الكشاف: ١/ ٢٧، ٦٢، و٢/ ٤٠، ٢١٩.

(٤) الكشاف: ٣/ ٨.

(٥) الكشاف: ١/ ٢١٧، و٢/ ٩٥.

(٦) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ٥، ٢٨١ وهذا ما دعاه إلى رفض تفسير كلمة (كتب) من قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ على ظاهرها قال: «أصل كتب أوجب ولكن لا يجوز الإجراء على ظاهره إذ لا يجب على الله شيء للعبد»: ٢/ ٥.

يرزق[١] الأحياء تفضلاً، وهو ما دعا الزمخشري إلى تعليل أفعال الله في الآيات التي يناقض ظاهرها فكرة الصلاح والمنفعة، وبيانِ الحُسْن فيها والمصلحة، فخلق العجل مثلاً في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾[طه: ٨٨] محنة وابتلاء قال: «فإن قلت: لِمَ خلق الله العجل من الحلي حتى صار فتنة لبني إسرائل؟ قلت: ليس بأول محنة مَحَـنَ الله بها عباده ليثّبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين، وَمَنْ عَجِبَ من خلق العجل فليكن من خلق إبليس أعجب»[٢].

كما علل غلبة الفقر على الغنى على أنه مصلحة أيضاً، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾[الزخرف: ٣٣] «فإن قلت: فحين لم يوسّع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلاّ وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟ قلت: التوسعة عليهم مفسدة أيضاً لما تؤدي إليه من الدخولُ في الإسلام لأجل الدنيا، والدخولُ في الدين لأجلِ الدنيا من دين المنافقين، فكانت الحكمة فيما دبّرَ، حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء، وغلّب الفقر على الغنى»[٣].

وإذا جَهِلَ الحكمة في آية ما، لم يجعل جهله لوجه الحسن قادحا في حسن ما اختاره الله. قال في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[التغابن: ٢] «فإن قلت: نعم إن العباد هم الفاعلون للكفر،

(١) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ١٨٠.

(٢) الكشاف: ٢/ ٤٤٤.

(٣) الكشاف: ٣/ ٤١٩.

ولكن قد سبق في علم الحكيم أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر، ولم يختاروا غيره، فما دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يكون منهم، وهل خَلْقُ القبيح وخَلْقُ فاعل القبيح إلا واحد، وهل مثله إلا مثل من وَهَبَ سيفاً باتراً لمن شَهَرَ بقطع السبيل، وقتل النفس المحرمة، فقتل به مؤمناً، أَمَا يُطْبِقُ العقلاء على ذم الواهب وتعنيفه والدَّقِ في فروته كما يذمون القاتل، بل إنحاؤهم باللوائم على الواهب أشد؟ قلت: قد علمنا أن الله عالم بقبح القبيح، عالم بغناه عنه، فقد علمنا أن أفعاله كلها حسنة، وخلق فاعل القبيح فعله، فوجب أن يكون حسناً وأن يكون له وجه حسن، وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح في حسنه، كما لا يقدّم في حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعي الحكمة إلى خلقها بالحق بالغرض الصحيح، والحكمة البالغة، هو أن جعلها مقارَّ المكلفين ليعملوا فيجازيهم»[1].

وهذا ما دعاه إلى تفسير عطاء الله للعبد في الدنيا بالتفضل، وجعل الحمدَ عليه واجباً، أما الحمد في الآخرة فليس بواجب. قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[سبأ: ١] «فإن قلت: ما الفرق بين الحمدين؟ قلت: أما الحمد في الدنيا فواجب لأنه على نعمة متفضل بها، وهو الطريق إلى تحصيل نعمة الآخرة وهي الثواب، وأما الحمد في الآخرة فليس بواجب لا لأنه على نعمة واجبة الإيصال إلى مستحقيها، إنما هو تتمة سرور المؤمنين وتكملة اغتباطهم يلتذون به، كما يلتذ العطاش بالماء البارد»[2].

ويرى النسفي أنه لا وجوب على الله، ولذا رأى أن الحمد في الدنيا واجب لأنها دار تكليف، وفي الآخرة غير واجب لأنها ليست بدار تكليف. قال في تفسير

---

(١) الكشاف: ٤/ ١٠٤.

(٢) الكشاف: ٣/ ٢٥٠، انظر أيضاً: الكشاف: ١/ ٢١٨.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ كما هو له في الدنيا، إذ النعم في الدارين من المولى، غير أن الحمد هنا واجب لأن الدنيا دار تكليف، وثَمَّ لا لعدم التكليف»[١].

٥ ـ مسألة الرزق:

ويبرز خلاف النسفي مع الزمخشري في مسألة الرزق، وهل يُعَدّ الحرام رزقاً أو لا؟ فبينما يرى النسفي[٢] أن الحرام رزق الله، يرى الزمخشري خلاف ذلك، وقد أبرز الزمخشري رأيه في هذه القضية في تفسير قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الزخرف: ٣٢] قال الزمخشري: «الله تعالى منعم لكل عبد معيشته، وهي مطاعمُهُ ومشاربُهُ، وما يصلح من المنافع وأذن له في تناولها، ولكنْ شَرَطَ عليه وكلّفه أن يسلك في تناولها الطريق التي شرعها، فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالاً، وسمّاها رزق الله، وإذا لم يسلكها تناولها حراماً، وليس له أن يسميها رزق الله»[٣].

أما النسفي فأشار إلى رأيه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ قال: «أي من الحلال وإن كان الحرام رزقاً عندنا».

٦ ـ خلق الأفعال:

والزمخشري يرى خلافاً للنسفي أن الإنسان خالق أفعاله، ولذا فهو معاقب على الشر، مثاب على الخير، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[هود: ١١٨] «يعني لاضطرارهم إلى أن يكونوا أهل أمة واحدة وهي ملة الإسلام، كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[الأنبياء: ٩٢] وهذا الكلام

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٣١٧.

(٢) انظر حديثنا عن مبدأ النسفي الفكري، وتفسير النسفي: ٢/ ٢٤٨.

(٣) الكشاف: ٣/ ٤١٨، انظر أيضاً: الكشاف: ٢/ ٢٢٩، ٢٨٦.

يتضمن نفي اضطرار، وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختار بعضُهم الحقَّ، وبعضُهم الباطلَ، فاختلفوا فلذلك قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[هود: ١١٨ ـ ١١٩] إلا ناساً هداهم الله وَلَطُفَ بهم فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ ذلك إشارة إلى ما دلَّ عليه الكلام الأول وتضمّنه، يعني: ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلافُ خَلَقَهم، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقبَ مختارَ الباطل بسوء اختياره»[١].

بينما يرى النسفي أن معنى هذه الآية هو: «أي: ولِمَا هُمْ عليه من الاختلاف، فعندنا خلقهم للذي علم أنهم سيصيرون إليه من اختلاف أو اتفاق، ولم يخلقهم لغير الذي علم أنهم سيصيرون إليه»[٢] ولهذا فالنسفي يختلف معه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾[إبراهيم: ٢٢] ورأى أن قولهم ليس من الشيطان إلا التزيين، وليس من الله إلا التمكين باطل، لقوله تعالى: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١]؛ أي: إلى الإيمان وهو ما استنبطه[٣] الزمخشري من الآية السابقة.

٧ ـ مسألة الإيمان:

والنقطة الرئيسية التي يختلف فيها النسفي والزمخشري، تتمثل في نظرتهم إلى معنى الإيمان، وهل يزيد أو ينقص، فالإيمان عند الزمخشري هو: اعتقاد بالقلب[٤]،

---

(١) الكشاف: ٢/ ٢٣٩.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٢٠٩.

(٣) انظر: الكشاف: ٢/ ٣٠٠.

(٤) انظر: الكشاف: ١/ ٢٢، ٢٣١.

وإعراب عنه باللسان، وتصديق بالعمل، بينما يرى النسفي أن العملَ لا يدخل[١] في الإيمان، والإيمان لا يزيد ولا ينقص[٢] عنده خلافاً للزمخشري الذي رأى أن الإيمان يزيد حتى يدخلَ صاحبَه الجنةَ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار، وقد أشار إلى هذا في تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران: ١٧٣] قال: «فإن قلت: كيف زادهم نُعيم إيماناً؟ قلت: لمّا لم يسمعوا قولَه، وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد وأظهروا حمية الإسلام، كان ذلك أثبتَ ليقينهم، وأقوى لاعتقادهم، كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج، ولأن خروجهم على أثر تثبيطه إلى وجهة العدو، طاعةٌ عظيمةٌ، والطاعات من جملة الإيمان، لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل، وعن ابن عمر. قلنا: يا رسول الله! إن الإيمان يزيد وينقص؟ قال: نعم، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار»[٣].

٨ ـ المنزلة بين منزلتين:

والزمخشري يخالف النسفي في نظرته إلى فئات الناس، فهو يرى أن الناس عند نزول القرآن إما مؤمن أو مشرك، أما الفرقة الثالثة (المنزلة بين المنزلتين) فقد جاءت فيما بعد. قال الزمخشري في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء: ٩] «فإن قلت: كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة؟ قلت: كان الناس حينئذ إما مؤمن تقي، وإما مشرك، وإنما حدث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك»[٤].

---

(١) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٣.

(٢) انظر: عمدة عقيدة أهل السنة: ورقة (٢٢).

(٣) الكشاف: ١/ ٣٢١.

(٤) الكشاف: ٢/ ٣٥٢.

أما النسـفي فيرى أن الناس إما مؤمـن وإمـا كافر، ولا وجود للفرقة الثالثة التي ذكرها الزمخشري، ورأى أن الآية ذاتها تنفي قول الزمخشري فقال: «والآية تردّ القول بالمنزلة بين المنزلتين، حيث ذكر المؤمنين وجزاءهم، والكافرين وجزاءهم ولم يذكر الفسقة»[١] ويرى الزمخشري أن الثواب والعقاب بالأعمال، وأن عطاء الله إما تفضل أو عوض أو ثواب، وأشار إلى هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[النور: ٣٦ ـ ٣٧] قال: «أي: أحسن جزاء أعمالهم، كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[يونس: ٢٦] والمعنى: يسبحون ويخافون ليجزيهم ثوابهم مضاعفاً يزيدهم على الثواب تفضلاً، وكذلك معنى قوله ﴿ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ المثوبة الحسنى، وزيادة عليها من التفضيل، وعطاءُ الله إمّا تفضّل وإما ثواب، وإما عوض»[٢].

ولهذا فهو يرى أنه لا يدخل أحد الجنة إلا بعمله، خلافا لما يراه النسفي من أنه لا يدخل الجنة[٣] إلا بفضل الله ورحمته، وقد أعلن الزمخشري هذا في تفسير قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ٤٣] قال: «بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما يقول المبطلة»[٤].

٩ ـ مسألة الشفاعة:

ومبدأ الزمخشري السابق دفعه إلى نفي الشفاعة لعصاة المؤمنين، فهو يرى

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٣٠٨.

(٢) الكشاف: ٣/ ٧٨.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ٤/ ٢٢٨، والحديث رواه مسلم في صحيحه، في صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، رقم الحديث (٢٨١٧) ولفظه: «لايُدْخِلُ أحداً منكم عملُهُ الجنة، ولايجيره من النار، ولا أنا إلا برحمة الله ﷻ».

(٤) الكشاف: ٢/ ٦٣.

أن الشفاعة زيادة فضل لا غير، والجزاءُ على قدر العمل خلافاً للنسفي الذي رأى أن الشفاعة ثابتة لعصاة المؤمنين، وقد أشار الزمخشري إلى هذه المعاني في تفسير بعض الآيات فقد أثبت رأيه في نفي الشفاعة لعصاة المؤمنين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] قال: «فإن قلت: هل فيه دليل على أن الشفاعة لا تُقْبَلُ للعصاة؟ قلت: نعم؛ لأنه نفى أن تقضي نفس عن نفس حقاً أخلَّتْ به من فعل أو ترك، ثم نفى أن يُقْبَلَ منها شفاعة شفيع، فعُلِمَ أنها لا تُقْبَلُ للعصاة»[1] ويرى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾[البقرة: ٢٥٤] ما يدل على أن الشفاعة زيادة فضل لا غير، فيقول: «(ولا خلة) حتى يسامحكم أخلاؤكم به، وإن أردتم أن يحطَّ عنكم ما في ذمتكم من الواجب، لم تجدوا شفيعاً يشفع لكم حطَّ الواجبات، لأن الشفاعة ثمة في زيادة الفضل لا غير»[2].

وهو ينكر الشفاعة، ويعلن أن الجزاء على قدر العمل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[النساء: ١٢٤]قال: «وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعد ذكر تمني أهل الكتاب نحو من قوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾[البقرة: ٨١] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[البقرة: ٨٢] عقيب قوله: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[البقرة: ٨٠]، وإذا أبطل الله الأماني، وأثبت أن الأمر كله معقود بالعمل، وأن من أصلح عمله فهو الفائز، ومن

---

(١) الكشاف: ١/ ٦٧، تفسير النسفي: ١/ ٤٧.

(٢) الكشاف: ١/ ١٥٢، بينما قال النسفي في تفسيره لها: «ولا شفاعة؛ أي: للكافرين، فأما المؤمنون فلهم شفاعة أو إلا بإذنه»: ١/ ١٢٨.

أساء عمله فهو الهالك، تبين الأمر ووضح ووجب قطع الأماني وحسم المطامع، والإقبال على العمل الصالح، ولكنه نصحٌ لا تعيه الآذان، ولا تلقي إليه الأذهان»[1].

وهو فوق هذا كله يعدُّ الشفاعةَ من الأماني[2] الكاذبة، والعاصي المؤمن والكافر سواء، لا يُغْفَرُ لهما إلاّ بالتوبة، يشير إلى هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾[النساء: ١٦٨] قال: «جمعوا بين الكفر والمعاصي، أو كان بعضهم كافرين، وبعضهم ظالمين أصحاب كبائر، لأنه لا فرق بين الفريقين في أنه لا يُغْفَرُ لهما إلا بالتوبة»[3] ولهذا فالفاسق عنده مخلد في النار، ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[البقرة: ٢٧٥] قال: «وهذا دليل بيّن على تخليد الفساق»[4] وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾[النساء: ٩٣][5].

بينما يرى النسفي أن خلودهم في النار لأنهم[6] بالاستحلال صاروا كافرين.

والكافر عند المفسِّرَيْن إنْ تاب غُفِرَ له، إلاّ أن الزمخشري يرى وجوب التوبة خلافاً للنسفي، وقد قرر الزمخشري هذا المبدأ في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾[الأعراف: ١٥٢] قال: «وهذا حكم عام

---

(١) الكشاف: ١/ ٣٠٠.

(٢) انظر: الكشاف: ١/ ٢٩٩، و٢/ ٣٦٧.

(٣) الكشاف: ١/ ٣١٥.

(٤) الكشاف: ١/ ١٦٦.

(٥) انظر: الكشاف: ١/ ٢٩١.

(٦) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٣٨، ٢٢٦، ٢٤٤.

يدخل تحته متخذو العجل، ومن عداهم عظّم جنايتهم أولاً ثم أردفها بتعظيم رحمته ليعلم أن الذنوب وإن جلّت وعظمت، فعفوه وكرمه أعظم وأجل، ولكن لا بد من حفظ الشريطة وهي وجوب التوبة والإنابة، وما وراءه طمع فارغ وأشعبية باردة لا يلتفت إليها حازم»[١].

بينما يتوقف النسفي عند قول الزمخشري «إن عَظُمَتْ وجلّت» فعفوه أعظم»[٢] وحذف الباقي تمشياً مع مبدئه وفكرته.

ومبدأ وجوب التوبة هذا دفع الزمخشري إلى غلو آخر، تمثل في قوله بوجوب المغفرة لمن تاب، وقد أشار إلى هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾[النساء: ١٧] قال: «(التوبة) مِنْ تابَ اللهُ عليه إذا قَبِلَ توبته، وغفر له، يعني: إنما القبول والغفران واجب على الله تعالى لهؤلاء»[٣].

وإلى التعريض بأهل السنة في رفضهم لهذا المبدأ، وقولهم: لا يجب على الله شيء يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[النحل: ٣٨] أنهم يبعثون أو أنه وَعْدٌ واجبٌ على الله، لأنهم يقولون: لا يجب على الله شيء، لا ثوابٌ كاملٌ، ولا غيرُهُ من مواجب الحكمة»[٤]، وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[الزمر: ٥٩] ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ قال: ﴿كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وصفوه بما لا يجوز عليه تعالى وهو متعال عنه، فأضافوا إليه الولدَ

---

(١) الكشاف: ٢/ ٩٥.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ٧٩.

(٣) الكشاف: ١/ ٢٥٦.

(٤) الكشاف: ٢/ ٣٢٩.

والشريك ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰؤُنَا﴾[يونس: ١٨] وقالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾[الزخرف: ٢٠] وقالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[الأعراف: ٢٨] ولا يبعد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبائح، وتجويز أن يخلق خلقاً لا لغرض، ويؤلمَ لا لعوض، ويظلمونه بتكليف ما لا يطاق، ويجسمونه بكونه مرئياً معايَناً، مدرَكاً بالحاسة، ويثبتون له يداً وقدماً وجنباً، متسترين بالبكلفة، ويجعلون له أنداداً بإثباتهم معه قدماء»[١].

هذه التعريضات التي لم نجد لها أثراً عند النسفي، اللهمّ إلا ما ذكره بعد تفسير قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[هود: ١٠٧] قال: «والمعتزلة لمّا لم يروا خروج العصاة من النار، ردّوا الأحاديث المروية في هذا الباب، وكفى به إثماً مبيناً»[٢].

١٠ ـ فضل البشر على الملائكة:

والقضية الأخيرة التي يختلف فيها النسفي مع الزمخشري هي: تفضيل رسل البشر على رسل الملائكة، وعامة البشر على عامة الملائكة، وقد أوضح هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[النساء: ١٧٢][٣].

بينما رأى الزمخشري أن الملائكة أفضل من البشر، وقد أوضح هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٩٨][٤] وكرر هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ

(١) الكشاف: ٣/ ٣٥٣، انظر أيضاً: الكشاف: ١/ ٢٩٠.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٢٠٦.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٢٦٦.

(٤) انظر: الكشاف: ١/ ٨٤.

هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[يوسف: ٣١][١].

ثانياً ـ في الطريقة العامة للتفسير:

ويختلف النسفي والزمخشري في الطريقة العامة التي اتبعها كل منهما في تفسيره، فبينما نرى أن الزمخشري[٢] اتبع أسلوب الجدل المعتمد على طريقة: فإن قلت... قلت. نرى النسفي ترك هذه الطريقة إلا في[٣] مواضع قليلة، واعتمد طريقة التعبير المباشر في معظم تفسيره.

ثالثاً ـ في مصادر التفسير:

على الرغم من اتفاق المُفَسِّرَيْن في كثير من الأمور، نجد أن كل واحد منهما عاد إلى مصادر لغوية وأدبية مختلفة عن مصادر الآخر فبينما تعمّد الزمخشري العودة إلى كتب ومؤلفات أدبية ولغوية معظمها من تأليف رجال من المعتزلة، فكان معتزلياً في أفكاره وآرائه كما كان معتزلياً في مصادره، عاد النسفي إلى مصادر أدبية ولغوية معظم مؤلفيها من أهل الجماعة فكان واحداً منهم في أفكاره ومصادره.

وقد رأينا فيما سبق مصادر النسفي في تفسيره وفيما يلي المصادر التي ذكرها الزمخشري في كشافه والتي خالف بها النسفي:

١ ـ مصادره في اللغة والنحو:

١ ـ إصلاح المنطق لابن السكيت (ت٢٤٤هـ)[٤].

---

(١) انظر: الكشاف: ٢/ ٢٥٤.

(٢) وهو الشائع في تفسيره كله.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٢١٠، و٣/ ٢٣٩، و٤/ ١٣ ـ ١٤.

(٤) انظر: الكشاف: ٣/ ١٣٦.

٢ ـ الكامل للمبرد (ت٢٨٥هـ)[١].

٣ ـ المتمم في الخط والهجاء لعبدالله بن دُرُسْتُوَيْهِ (ت٣٤٧هـ)[٢].

٤ ـ الحجة لأبي علي الفارسي (ت٣٧٧هـ)[٣].

٥ ـ الحلبيات لأبي علي الفارسي[٤].

٦ ـ التمام لابن جني (ت٣٩٢هـ)[٥].

٧ ـ المحتسب لابن جني[٦].

٨ ـ الإقليد ويظهر أنه كتاب لغوي[٧].

٩ ـ التبيان لأبي الفتح الهمذاني[٨].

وقد ذكر كلاً من هذه المؤلفات مرة واحدة فقط ما عدا الكتابين الأخيرين فقد ذكرهما في موضعين من تفسيره.

٢ ـ في الأدب:

١ ـ الحيوان[٩] للجاحظ (ت٢٥٥هـ).

---

(١) انظر: الكشاف: ٢/ ٢٥٩.

(٢) انظر: الكشاف: ١/ ١٦.

(٣) انظر: الكشاف: ١/ ١٣.

(٤) انظر: الكشاف: ١/ ١١٩.

(٥) انظر: الكشاف: ٢/ ٤٠٨.

(٦) انظر: الكشاف: ٢/ ٤٢٢.

(٧) انظر: الكشاف: ٢/ ٣١٦، ٢٣٢.

(٨) انظر: الكشاف: ٣/ ٢٣٥، ٣٢٧.

(٩) انظر: الكشاف: ٣/ ١٤٠.

٢ ـ نظم القرآن للجاحظ[١].

٣ ـ استغفر واستغفري[٢] لأبي العلاء المعري (ت٤٤٩هـ).

٤ ـ بعض كتب الزمخشري مثل: نوابع الكلم[٣].

٥ ـ شافي العي[٤] من كلام الشافعي.

٦ ـ النصائح الصغار[٥].

٧ ـ ديوان ابن مقبل[٦].

أما مصادرهما في الحديث والتفسير والقراءات فهي واحدة عندهما.

٢ ـ ما اتفق به النسفي والزمخشري:

ويتفق النسفي والزمخشري ـ إضافة إلى ما ذكرناه في بداية الحديث ـ بجملة من الأمور فهما يتفقان في:

١ ـ نظراتهم البلاغية:

وهنا يبدو تأثر النسفي الواضح بالزمخشري وأخذه عنه فكان كثيراً ما ينقل[٧]

---

(١) انظر: الكشاف: ١/ ٣.

(٢) انظر: الكشاف: ١/ ٣٤٥.

(٣) انظر: الكشاف: ١/ ١٦٠، و٢/ ٧٣.

(٤) انظر: الكشاف: ١/ ٢٤٥.

(٥) انظر: الكشاف: ١/ ٢٣٦.

(٦) انظر: الكشاف: ٤/ ٢٣٤ وابن مقبل: شاعر مخضرم عاش في الجاهلية والإسلام، وأدرك زمن معاوية (ت٣٧هـ) (انظر ديوانه المقدمة).

(٧) انظر حديثنا عن منهج النسفي البلاغي.

نظرات الزمخشري البلاغية بنصها، كما ينقل عنه كثيراً من استطراداته[١] الأدبية، وتحليلاته، وتخريجه لبعض الآيات على[٢] اللهجات العربية والأمثال[٣].

كما نقل عنه رأيه في إعجاز القرآن، فقد رأى كل منهما أن إعجاز القرآن كان بنظمه[٤] وبإخباره عن الغيب.

٢ ـ استنباطاتهما العقلية:

وقد سار النسفي مع الزمخشري في استنباط أمور لم تذكر في القرآن[٥] والسنة، بوحي من النص القرآني، وإن أضاف النسفي بعض الأمور التي لا تتفق مع[٦] مذهب الزمخشري الاعتزالي.

٣ ـ التوفيق بين الآيات التي قد يُظَنُّ فيها الاختلاف والتناقض:

وهي الأمور التي أغفلها البيضاوي تقريباً، بينما ركّزَ عليها كلٌ من الزمخشري[٧] والنسفي.

٤ ـ الاستعانة بالشعر العربي في تفسير القرآن[٨] وتوضيح معانيه:

وهـذا ما يدفعهمـا إلى إحضار بيت الشعر الذي يوضّح الآية أو يساعد في

---

(١) انظر: الكشاف: ١/ ٣٠٢، ٣٦٠، و٢/ ٧٨، ٤٥٢، و٣/ ٨٦، ٤٢٢.

(٢) انظر: الكشاف: ٢/ ٢٣٥، ٢٥٥، ٢٨٨، و٣/ ١١.

(٣) انظر: الكشاف: ٢/ ٢٣٨، و٣/ ١١، ٧٦، ٢٠١، ٢٤٩، ٢٦٢، ٢٧٨، ٣٠٥.

(٤) انظر: الكشاف: ٢/ ١٩١، ٢١٠.

(٥) انظر: الكشاف: ١/ ٤١، ٢/ ٦٥.

(٦) انظر: تفسير النسفي: ٤/ ٥٤، ٦٠، ١٦٨، ٢٢٨، ٢٧٥، و٢/ ٦٥، ٢٠٨، ٣٣١.

(٧) انظر: الكشاف: ١/ ٦٠، ١٧٧، و٢/ ٨١، ٩٩، و٣/ ١٨، و٤/ ٥٣ مثلاً.

(٨) انظر: الكشاف: ١/ ٧، ٩، ١٠، ٢٣، ٢١٩، و٢/ ٧٧، ٨٥، و٣/ ١١ مثلاً.

تفسيرها، وربما أحضرا بيت الشعر[1] المتضمن لمعنى الآية كما فعل غيرهم من المفسرين.

٥ ـ اتفاقهما في بعض المبادئ وهي: حسن الإيمان وقبح الكفر:

أما مسألة حسن الإيمان وقبح الكفر فهي واحدة عندهما، فالحسن والقبح عندهما ذاتيان، والشرع في تحسينه وتقبيحه للأشياء مخبر عنها لا مثبت لها، والعقل مدرك لها لا منشئ إلا أن الشرع يكشف ما غَمُضَ على العقل، كما أنه حجة الله على الناس، وقد قرّرا ذلك من تفسيرهما لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[التوبة: ١١٥] قال الزمخشري: «يعني ما أمر الله بانتقائه واجتنابه، كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه، ويبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ولا يسميهم ضلالاً، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان خطره عليهم وعلمهم بأنه واجب الاتقاء والاجتناب، وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر، ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم، وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهي عنه، وفي هذه الآية شديدة ما ينبغي أن يُغْفَلَ عنها، وهي أن المهديَّ للإسلام إذا أقدم على بعض المحظورات داخلٌ في حكم الإضلال، والمراد بما يتقون: ما يجب اتقاؤه للنهي، فأما ما يُعْلَمُ بالعقل كالصدق في الخبر، ورد الوديعة فغير موقوف على التوقيف»[2] وهو نفسه ما نقله النسفي[3] في هذا الموضع.

---

(١) انظر: الكشاف: ٢/ ١٣٣، ١٨٧، ١٩٧، ٢٠٨ مثلاً.

(٢) الكشاف: ١/ ٣١٤، و٢/ ٣٢٨.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ١٤٨.

٦ ـ مهمة الرسل:

وهما يريان[١] أن مهمةَ الرسل تنبيهُ العقل من غفلته، وتعليم الشرائع، كما أُرْسِلوا تتميماً لإلزام الحجة، وإزاحةً للعلة.

٧ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وقد جعلا هذه المهمة من فروض الكفاية، ولا يصلح له إلا من له علم بالمعروف والمنكر، وعَلِمَ كيف يرتبُ الأمرَ في إقامته، وعليه أن يبدأ بالسهل ثم يترقّى إلى الصعب، وأشارا إلى هذا في تفسيرهما لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٠٤][٢].

٨ ـ المذهب الفقهي:

ويتفقان أيضاً في تأييدهما لمذهب أبي حنيفة الفقهي رحمه الله وقد أعلن الزمخشري تأييده لهذا المذهب صراحة حيث يقول:

وأُسندُ ديني واعتقادي ومذهبي … إلى حنفاءَ أختارهم وحنايفا[٣]
حنيفية أديانهم حنفيةٌ … مذهبُهم لا يبتغون الزعانفا

وإن كانت الصورة التي نستبينها لكل منهما، هي صورة من وعى الآراء الفقهية وعرف آراء أصحابها فعرضها في تفسيره، اللهم إلاّ ما وَهِمَ به الزمخشري في أثناء حديثه عن أحكام قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ﴾[البقرة: ٢٣٧]

---

(١) انظر: الكشاف: ١/ ٣١٤، و٢/ ٣٢٨، وتفسير النسفي: ١/ ٢٦٤، و٢/ ٢٨٦.

(٢) انظر: الكشاف: ١/ ٢٠٨، تفسير النسفي: ١/ ١٧٤، وهو ما رواه القرطبي أيضاً: ٤/ ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) منهج الزمخشري في تفسير القرآن: ص١٧٩.

فقد رجّح القولَ الذي يجعلُ المقصودَ به[1] الوليَ، وقال: وهو رأي الشافعي، والحقيقة أن الشافعي ـ رحمه الله ـ وافق أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ في أن المراد به الزوج، وإنما ذهب إلى أن المراد به الولي الإمام مالك ـ رحمه الله ـ ورأي الشافعي قديماً. بينما حافظ النسفي[2] على حنفيته حتى في هذه الآية ورجح أن يكون المراد به الزوج لا الولي.

٣ ـ ما اختلف به البيضاوي والنسفي:

رأينا قبل قليل ما اتفق فيه النسفي والزمخشري وسنعرض فيما يلي ما اختلف وما اتفق فيه النسفي والبيضاوي، والملاحظ أنهما اختلفا في أمور كثيرة واتفقا في أمور أخرى، فاختلفا في المبادئ والأفكار:

والناظر في تفسيرهما يجد أن ثمة خلافاً بين النسفي والبيضاوي ـ وإن كان هذا الخلاف بسيطاً ـ يعود إلى الاختلاف في مذهبهما الكلامي الذي انتسبا إليه، وبدا الخلاف بينهما في نظرتهما إلى الإيمان الذي رآه البيضاوي هو التصديق فقط، أما الإقرار باللسان فخارج عن حقيقة الإيمان، هذا ما أعلنه في تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ٨٦] قال: «وهو على الوجهين دليلٌ على أن الإقرار باللسان خارجٌ عن حقيقة الإيمان»[3].

وهو يرى أيضاً خلافاً للنسفي أن الإيمان يزيد وينقص، واستدلّ على ذلك

---

(١) انظر: الكشاف: ١/ ١٤٥.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٢١.

(٣) تفسير البيضاوي: ص٨٠.

بقول ابن عمر ﵄، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران: ١٧٣] «وهو دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، ويعضده قول ابن عمر ﵄: (قلنا: يا رسول الله! الإيمان يزيد وينقص؟ قال نعم: يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار»[١].

كما يختلف مع النسفي في أنه يجيز تكليف الإنسان ما لا يطيق، وإن لم يقع ذلك، وقد أشار إلى هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] قال: «والحق أن التكليف بالممتنع لذاته وإن جاز عقلاً من حيث أن الأحكام لا تستدعي غرضاً لا سيما الامتثال، لكنه غير واقع للاستقراء، والإخبار بوقوع الشيء أو عدمه لا ينفي القدرة عليه»[٢].

وأكد هذا مرة أخرى في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: «فهذا يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال، ولا يدل على امتناعه»[٣].

وهو يرى أن لا تكليف قبل الشرع ولا وجوب، وبعثة الرسل ضرورية لقصور الكل عن إدراك جزئيات المصالح، والأكثر عن إدراك كلياتها. قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥] «وفيه دليل على أن لا وجوب قبل الشرع»[٤] وأكد هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ

(١) تفسير البيضاوي: ص٩٦.
(٢) تفسير البيضاوي: ص١٠.
(٣) تفسير البيضاوي: ص٦٦.
(٤) تفسير البيضاوي: ص٣٧٢.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ﴾[الزمر: ٧١] قال: «وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع من حيث أنهم علّلوا توبيخهم بإتيان الرسل، وتبليغ الكتب»(١).

كما يختلف مع النسفي في نظرته إلى المحكم والمتشابه، إذ رأى البيضاوي أن المتشابه ممّا يعلمه الراسخون أيضاً خلافاً للنسفي. وهو ما يبدو من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ... وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[آل عمران: ٧] قال: «﴿إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، أي: الذين ثبتوا وتمكّنوا فيه، ومن وقف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فسّر المتشابه بما استأثر الله بعلمه كمدة بقاء الدنيا، ووقت قيام الساعة»(٢).

والظاهر: أن الاختلاف بينهما ناجم عن أخذهما عن شيخين مختلفين، فالنسفي وافق أبا منصور الماتُريدي ـ رحمه الله ـ والبيضاوي تابع شيخه أبا الحسن الأشعري، وقد ذكره في موضعين من تفسيره كان أولاهما في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٣٤] قال: «ومن فوائد الآية استقباح الاستكبار، وأنه قد يفضي بصاحبه إلى الكفر، والحثّ على الائتمار بأوامره، وترك الخوض في سّره، وأن الأمرَ للوجوب، وأن الذي علم الله من حاله يتوفى على الكفر، هو الكافر على الحقيقة، إذ العبرة بالخواتيم، وإن كان بحكم الحال مؤمناً، وهو الموافاة المنسوبة إلى شيخنا أبي الحسن الأشعري رحمه الله»(٣).

---

(١) تفسير البيضاوي: ٦١٦.

(٢) تفسير البيضاوي: ص٦٧.

(٣) تفسير البيضاوي: ص٢٩.

أما الموضع الثاني الذي ذكر فيه شيخه الأشعري فكان في الصفحة الأولى من تفسيره لقولـه تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قال: «... وإن أريد بـه الصفة كما هو رأي الشيخ أبي الحسن الأشعـري، انقسم انقسام الصفة عنده إلى ما هو نفس المسمى، وإلى ما هو غيره، وإلى ما ليس هو ولا غيره، وإنما قال بسم الله ولم يقل بالله لأن التبرّك والاستعانةُ بذكر اسمه»[1].

١ ـ في مذهبهما الفقهي:

واختلف المفسّران أيضاً في مذهبهما الفقهي، فعلى حين رأينا أن النسفي كان حنفـي المذهب، تبع البيضاوي مذهب[2] الشافعي ـ رحمه الله ـ وقد أكد مذهبه الفقهي هذا في تفسيره.

٢ ـ في مصادر الفقه والأصول:

والنقطة الأخيرة التي يختلف فيها البيضاوي عن النسفي هي مصادره في الفقه والأصول التي ذكرها في تفسيره، وهذه المصادر هي:

شرح المصابيح[3]، والمرصاد[4]، ومنتهى المنى[5].

وبعض كتب الأصول[6].

---

(١) تفسير البيضاوي: ص١ ـ ٢.

(٢) انظر ترجمته في طبقات الشافعية لابن السبكي: ٨/ ١٥٧ ـ ١٥٨، هدية العارفين: ص٤٦٢، كشف الظنون: ص١١٩٢.

(٣) وهو للبيضاوي، انظر: تفسيره: ص١٤٩، ٢٢٨.

(٤) وهو أيضاً للبيضاوي، انظر: تفسيره: ص٢٧١.

(٥) للبيضاوي، انظر: تفسيره: ص٧٢٨.

(٦) انظر: تفسير البيضاوي: ص٧٢٤.

أما مصادره في التفسير والحديث والأدب فما ذكره في تفسيره كان من بين مصادر النسفي في تفسيره.

ما اتفق فيه النسفي والبيضاوي:

ويلتقي البيضاوي والنفسي في أمور منها:

١ ـ الطريقة العامة في التفسير ـ وقد أشرنا إلى هذا في مقدمة الفصل ـ فقد عدلا عن طريقة الزمخشري الجدلية إلى الطريقة المباشرة.

٢ ـ في مذهبهما الفكري وفي أهداف التفسير.

وأخيراً يتفق النسفي والبيضاوي في مذهبهما الفكري وانتمائهما إلى مذهب الجماعة، وأخذهما بآرائها، وقد حاولا معاً تثبيت هذه الآراء في تفسيرهما، والردّ على مخالفيها، وإن بدا لقارئ هذين التفسيرين أن النسفي كان أكثر حرصاً على هذا من البيضاوي، الذي اقتصر على رده في مواضع قليلة على المعتزلة، فرد عليهم في مسألة الشفاعة[1] والتوبة[2]، ومسألة الهداية[3] والإضلال، وفي تعذيب صاحب الصغيرة[4]، ولهذا الأمر نجد اتفاقهما في كثير من الأمور الرئيسية التي ألفت أساس هذا المذهب، فرأى البيضاوي كما رأى النسفي أن الإيمان منه ما الطريق إليه السمع، وبعضه العقل، وقد أشار البيضاوي إلى هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[البقرة: ٤] قال: «على

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ص١٠.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي: ص١١٤.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ص١٥٠، ١٧٤، ١٨٨.

(٤) انظر: تفسير البيضاوي: ص٢٠٢.

أنهم الجامعون بين الإيمان بما يدركه العقل جملة، والإتيان بما يصدقه من العبادات البدنية والمالية، وبين الإيمان بما لا طريق إليه غير السمع»[١].

كما اتفقا في أنهما عدّا الحرام رزق الله، وهو ما أشارا إليه في تفسيرهما لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾[المائدة: ٨٨][٢] وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[البقرة: ٣][٣].

واتفقا أيضاً في مسألة صاحب الكبيرة[٤]، وأن صاحبها لا يخلد[٥] في النار، وفي مسألة الشفاعة[٦] وثبوتها لعصاة المؤمنين، وفي أنه لا يدخل[٧] أحد الجنة إلا بفضل الله ورحمته، وأنه لا يجب على الله[٨] شيء. قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[آل عمران: ١٠٧] قال: «يعني الجنةَ والثوابَ المخّلد، عبّر عن ذلك بالرحمة تنبيهاً على أن المؤمن وإنِ استغرق عمره في طاعة الله تعالى، لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله»[٩].

أما الخلود في النار، فلا يخلد فيها إلا الكفار. قال في تفسير قوله تعالى:

---

(١) تفسير البيضاوي: ص٩، انظر: تفسير البيضاوي: ص٦٤٦.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي: ص١٦٠.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ص٩.

(٤) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٤٧، و٤/ ٣١٢، تفسير البيضاوي: ص١٧، ٧١٧، ٨٠٢.

(٥) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٤٧، و٤/ ٣١٢، تفسير البيضاوي: ص١٧، ٧٠، ٧١٧، ٨٠٢.

(٦) انظر: تفسير البيضاوي: ص١٠، تفسير النسفي: ١/ ٤٧.

(٧) انظر: تفسير البيضاوي: ص٨٥، ١١٩، تفسير النسفي: ٤/ ٢٢٨.

(٨) انظر: تفسير البيضاوي: ص٦٧٨، ٦٩٩، ٧٨١، تفسير النسفي: ٢/ ٥، ٢٨١.

(٩) تفسير البيضاوي: ص٨٥.

﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾[الليل: ١٥] «أي الكافر فإنّ الفاسقَ وإن دخلها لم يلزمْها، ولذلك سمّاه أشقى»(١).

❐ ❐ ❐

(١) تفسير البيضاوي: ص٨٠٤، تفسير النسفي: ٤/ ٣٦٣ حيث قال: «لا يدخلها للخلود فيها إلا الكافر».

الخاتمة

والآن لنجمع شتات البحث، رأينا أن النسفي كان ابن بيئته، البيئة الدينية التي اتبعت مذهب أبي حنيفة الفقهي وأبي منصور الماتريدي الكلامي، فكان كواحد من هؤلاء يعتنق كما اعتنقوا مبادئ كلامية آمنوا بها ودافعوا عنها، ممّا حدا بالنسفي إلى أن يكتب تفسيره هذا ليكون ثورة ورداً على تفسير الكشاف وغيره من التفاسير التي جاءت قبله على مبادئ مغايره لمبدئه الفكري، كما وجد في تفسيره لآيات القرآن ميداناً واسعاً لاظهار هذه المبادئ وإعلانها وتأييدها بآيات قرآنية، كما كان تفسيره هذا مرآة لثقافة صاحبه وعلومه التي ألمّ بها حياته كلها، وعلى هذا نرى أن النسفي:

ـ مؤمن بالعقل مقدس له يستعين به في تفسيره، فيستنبط معاني خفية من الآية، كما قد يحمله عقله إلى أن يجيء لمعنى الآية بأكثر من وجه تفسيري، وإلى أن يبحث عن تحالف معاني ألفاظ الآية الواحدة وتآخيها، وقد يتعدى عنايته بنسق الآية المعنوي إلى نسق القرآن المعنوي كله، فالمعاني القرآنية كلٌّ متناسق.

ـ كما قد يجري النسفي مجرى الفقهاء فيستنبط بعض الأحكام من القرآن، فيستنبط منه ضرورة الخروج على أمراء الجور مثلاً وجواز المناظرة.

ـ مفسر أثري: فهو يأتي بالأسباب المعينة على تجلية معنى النص وتفسيره، فيورد أسباب النزول والناسخ والمنسوخ إما عارضاً فحسب أو ناقداً.

كما قد يفسر بعض آيات القرآن ببعض، وهو ما يسمّى بتفسير القرآن بالقرآن، أو بما نُقِلَ عن النبي ﷺ أو بأقوال الصحابة والتابعين.

ـ لغـوي ونحوي. يُعْرِبُ بعضَ ألفاظ القرآن وقد يوسـع دائـرة استشهـاده اللغوي فيستشهد بأقوال المُحْدَثين، كأبي نواس وأبي تمام، كما يحاول لَمْحَ أصل اللفظ الحسي وعرضه، ويتذوق المعنى الذي يلقيه الجرس الصوتي للفظة القرآنية.

وهو في مجال النحو حين يعالج إعراب القرآن، يجعل همه المعنى حيثما كان هناك تقدير إعرابي فرعايتـه للمعنى أولاً، ولذا فهو يفضـل الوجـه الإعـرابي الذي يحمل معنى قوياً، كما قد تمتد رعايته نسق المعنى في الآية الواحدة إلى نسقه في القرآن كله، فيفضّل الوجهُ النحويَّ الذي يتفق والمعنى القرآني ويعضده.

ـ عالم بالقراءات: يستعيـن بالقراءة على التفسيـر، فهـو يوردها ليقوي بها تفسيره ويعضده، كما يبين الفرق اللغوي بين القراءات وما يتبع ذلك من اختلاف معنى الآي، والقراءةُ المفضلةُ عنده تلك التي تجري والنسقَ المعنويّ في مضمار، والتي تحفظ على الأسلوب القرآني جماله وقوة معناه.

ـ وبعد فالنسفي أديب يلمح من النص معاني نفسية يستوحيها بحسه وروحه، كمـا قد يأتي بالشعر المتضمن معنـى الآي الذي يفسـره وقد يستطرد استطرادات أدبيـة تخدم تفسيره للآية وتوضـح معناهـا، وقد يستخـرج مـن القـرآن الدروس والعظات مفيداً من تجاربه في الحياة، أو ينقد الأحوال الاجتماعية في عصره.

أما رأيه في إعجاز القرآن فهو يتبع في هذا الزمخشري قبله وينقل عنه عباراته، والتقاؤهمـا هذا دفعـه إلى نقل نظرات الزمخشري البلاغية كلها وإن أضاف إليها أحياناً، ورأى أن في القرآن بليغا وأبلغ، كما رأى ذلك الزمخشري والخفاجي، قبله وأشار إلى هذا في أماكن معدودة من تفسيره.

وعلى هذا فالنسفي كما يبدو من تفسيره هذا، رجل كلام وتفسير استطاع أن يظهر من خلال تفسيره هذا شخصيـة عالمة جامعة لعلمي التفسير والكلام، تأثر

بسابقيه وأخـذ عنهـم، ولكنه عرف ماذا يختـار، وكيف يدافع عن مبادئه ويحوّل الحديث لخدمة هذه المبادئ والأفكار فكان تفسيره ذا شخصية متميزة عن تفاسير سابقيـه جمع محاسنها وتخلص من مثالبهـا، فكان بحق خير مثل للتفسير العقلي المحمود.

❑ ❑ ❑

فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم:

١ ـ آثار البلاد وأخبار العباد، تصنيف: زكريا بن محمد بن محمود القزويني، دار بيروت للطباعة والنشر، دار صادر للطباعة والنشر، ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م.

٢ ـ الإبريز لعبدالله بن المبارك.

٣ ـ الإتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين السيوطي، دار المعرفة ـ بيروت.

٤ ـ أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة ـ بيروت.

٥ ـ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار المعرفة ـ بيروت، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

٦ ـ أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط١، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

٧ ـ الإسرائيليات في التفسير والحديث، تأليف: الدكتور محمد السيد حسين الذهبي، أشرف على تحقيقه لجنة النشر في دار الإيمان ـ دمشق، ط٢، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٨ ـ الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، الدكتور رمزي نعناعة.

٩ ـ أسماء الكتب، عبد اللطيف بن محمد رياضي زادة، تحقيق: د. محمد التونجي، دار الفكر، ط٢، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٠ ـ أصول التفسير، خالد عبد الرحمن العك، مكتبة الفارابي، دمشق، ط١.

١١ ـ إضاءة الدجنّة في عقائد أهل السنة، شهاب الدين التلمساني، ط١، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م.

١٢ ـ إعجاز القرآن، لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط٤.

١٣ ـ إنباه الرواة، تأليف: جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م.

١٤ ـ الإكليل في المتشابه والتأويل، أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني.

١٥ ـ الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، لناصر الدين أحمد بن المنير الإسكندري المالكي، دار المعرفة، بيروت.

١٦ ـ الإنصاف في مسائل الخلاف، للإمام كمال الدين أبي البركات الأنباري، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

١٧ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، دار الجيل.

١٨ ـ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧٢م.

١٩ ـ بغية الوعاة، للحافظ جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت.

٢٠ ـ بلاغة القرآن، للإمام محمد الخضر حسين، جمعه وحققه: علي الرضا التونسي، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

٢١ ـ بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر.

٢٢ ـ تاج التراجم، للشيخ زين الدين قاسم بن قطلوبغا، بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٦٢م.

٢٣ ـ تاريخ الخلفاء، للإمام جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٣، مطبعة المدني، شارع العباسية بالقاهرة، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م.

٢٤ ـ تاريخ الخميس، للإمام الشيخ حسين بن عبد الحسن الديار بكري، المطبعة الوهبية، مصر، ١٢٨٣هـ.

٢٥ ـ تاريخ القرآن، محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٣م.

٢٦ ـ تاريخ القرآن والتفسير، عبدالله محمود شحاتة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

٢٧ ـ تأويلات أهل السنة، لأبي منصور الماتريدي، تعليق: إبراهيم عوضين والسيد عوضين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٧٩١م.

٢٨ ـ تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

٢٩ ـ التبصير في أمور الدين، للإمام الكبير أبي المظفر الإسفراييني، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٣٠ ـ التبيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني، مؤسسة مناهل العرفان، ١٩٨٠م.

٣١ ـ تتمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي)، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي.

٣٢ ـ التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر.

٣٣ ـ التسهيل في علوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٣٤ ـ تفسير أرجوزة أبي نواس.

٣٥ ـ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار الأندلس، بيروت، ط١، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.

٣٦ ـ تفسير سفيان الثوري، للإمام أبي عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، راجع النسخة لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٣٧ ـ تفسير الفاتحة، للفنازي شمس الدين بن حمزة الفنازي.

٣٨ ـ تفسير قتادة.

٣٩ ـ التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ط١، دار الكتب الحديثة، شارع الجمهورية بالقاهرة، ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م.

٤٠ ـ تقويم البلدان، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء، طبع في مدينة باريس بدار الطباعة السلطانية، ١٨٥٠م.

٤١ ـ التلخيص، للإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، ط١، ١٩٠٤م.

٤٢ ـ تهذيب التهذيب، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر، ط١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٤٣ ـ جامع الأصول، لابن الأثير، دار الفكر، بيروت، تخريج: عبد القادر الأرناؤوط، ط٢، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٤٤ ـ جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري) لابن جرير الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المعارف بمصر.

ـ جامع البيان وتأويل القرآن (تفسير الطبري) دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٤٥ ـ الجامع الصغير، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٦ ـ الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٧ ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

٤٨ ـ الجواهر المضيئة، للإمام محي الدين أبي محمد عبد القادر بن أبي الوفا القرشي الحنفي المصري.

٤٩ ـ خزانة الأدب، عبد القادر عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، دار الرفاعي بالرياض.

٥٠ ـ دراسات في التفسير ورجاله، محمد العزب موسى، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، ١٩٨٠م.

٥١ ـ دراسات في علوم القرآن، أمير عبد العزيز، ط١، دار الفرقان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣م.

٥٢ ـ الدرر الكامنة، لشهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الشهير بابن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت.

٥٣ ـ الدر المنثور في تفسير المأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٥٤ ـ دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني، تصحيح: الشيخ محمد عبده، والأستاذ محمد محمود التركزي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٥٥ ـ الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، ١٩٤٩م.

٥٦ ـ ديوان ابن مقبل، عُنِيَ بتحقيقه: الدكتور عزة حسن، دمشق، ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م.

٥٧ ـ الرسالة، للإمام محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، ١٣٥٨هـ ـ ١٩٤٠م، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي.

٥٨ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط١، ١٩٧٥م، ١٩٨٠م، ط٢.

٥٩ ـ زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

٦٠ ـ سر الفصاحة، لأبي محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٦١ ـ سنن أبي داود، دار الحديث، حمص، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٦٢ ـ سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

٦٣ ـ سنن الترمذي، أشرف على التعليق: عزت عبيد الدعاس، مطابع الفجر الحديثة، حمص ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

٦٤ ـ السنن الكبرى، للبيهقي، دار الفكر.

٦٥ ـ سيرة السلطان جلال الدين، محمد بن أحمد النسوي، تحقيق: حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، ١٩٥٣م.

٦٦ ـ شرح ابن عقيل، بهاء الدين بن عقيل العقيلي المصري الهمداني.

٦٧ ـ شرح جوهرة التوحيد، تأليف: العلامة الشيخ إبراهيم بن محمد البيجوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٦٨ ـ شرح العقائد النفسية، للسعد مسعود بن عمر التفتازاني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، إحياء التراث العربي، دمشق.

٦٩ ـ شرح نور الأنور على المنار، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٧٠ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى، لأبي الفضل عيّاض بن موسى بن عيّاض اليحصبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٧١ ـ الصاحبي في فقه اللغة، لابن فارس، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م.

٧٢ ـ صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار القلم، دمشق ـ بيروت، ط١، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٧٣ ـ صحيح مسلم.

٧٤ ـ كتاب الصناعتين، تصنيف: أبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة عيسى البابي الحلبي.

٧٥ ـ ضحى الاسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت.

٧٦ ـ طبقات الشافعية، لأبي بكر بن أحمد بن محمود بن عمر بن محمد تقي الدين ابن قاضي شهبة الدمشقي، صححه: الدكتور الحافظ عبد العليم خان، دار الندوة الجديدة، بيروت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٧٧ ـ العبر في أخبار من غبر.

٧٨ ـ عقائد النسفي.

٧٩ ـ علم البديع، للدكتور عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٠م.

٨٠ ـ علم التفسير، د. محمد حسين الذهبي، دار المعارف، القاهرة.

٨١ ـ الفَرْق بين الفِرق، للإمام عبد القاهر بن طاهر البغدادي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٤، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٨٢ ـ الفِصَل في الملل والنحل، للإمام أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٨٣ ـ فصل المقال، لابن رشد، تحقيق: الدكتور فضلو الحوراني.
٨٤ ـ فهرس مخطوطات جامعة الملك سعود، إصدار عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود الرياض، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.
٨٥ ـ فهرس مخطوطات الجمهورية اللبنانية.
٨٦ ـ فهرس مخطوطات الخزانة العمرية في مكتبة المتحف العراقي، بغداد، إعداد: أسامة ناصر النقشبندي، المؤسسة العامة للآثار.
٨٧ ـ فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، فقه حنفي، مطبعة الحجاز بدمشق، وضع: محمد مطيع الحافظ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨٠م.
٨٨ ـ فهرس المخطوطات في الكونغرس.
٨٩ ـ فهرس المخطوطات المصورة في مكتبة معهد التراث العلمي العربي، إعداد: قسم الفهرسة والتصنيف، جامعة حلب، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨٠م.
٩٠ ـ الفوائد البهية، للعلامة أبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الهندي، دار المعرفة، بيروت.
٩١ ـ القرآن ونصوصه، د. عدنان زرزور.
٩٢ ـ الكتاب، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، عالم الكتب، بيروت.
٩٣ ـ الكشّاف، لجار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت.
٩٤ ـ كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
٩٥ ـ كشف الأسرار شرح المنصف على المنار، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
٩٦ ـ كشف الظنون، للعلامة مصطفى بن عبدالله الشهير بالملا كاتب الجلبي، والمعروف بحاجي خليفة، دار الفكر، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.
٩٧ ـ كنز الدقائق، للإمام عبدالله بن محمود النسفي.
٩٨ ـ كنز العمال، لعلاء الدين علي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري، مكتبة التراث الإسلامي، حلب.

٩٩ ـ لباب النقول، جلال الدين السيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٩٧٨م.

١٠٠ ـ لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت.

١٠١ ـ مؤيد الدين العلقمي، محمد الشيخ حسن السعدي.

١٠٢ ـ مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي صالح، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣م.

١٠٣ ـ مباحث في علوم القرآن، الأستاذ مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

١٠٤ ـ مجاز القرآن، لأبي عبيدة مَعْمَر بن المثنى، مطبعة الخانجي بمصر.

١٠٥ ـ مجمع الزوائد، لأبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٦٧م.

١٠٦ ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبدالله بن محمود النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

١٠٧ ـ المذاهب الإسلامية في التفسير، اجنتس جولد تسيهر، نقله إلى العربية: علي حسن عبد القادر، ط١، ١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٤م.

١٠٨ ـ مذكّرة في علوم القرآن، أحمد أحمد علي، مطبعة الأزهر، ط٣، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

١٠٩ ـ المستدرك على الصحيحين، للإمام الحافظ أبي عبدالله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت.

١١٠ ـ المستدرك، صالح أحمد العلي.

١١ ـ مسند أبي داود الطيالسي، دار الحديث بحمص، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

١١٢ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار الفكر.

١١٣ ـ مسند الشهاب، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

١١٤ ـ معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١١٥ ـ معجم البلدان، للشيخ شهاب الدين عبدالله بن ياقوت الحموي الرومي البغدادي، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١١٦ ـ مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربية رياض رأفت، القاهرة ١٩٣٨م، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٦١م.

١١٧ ـ المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، لأبي منصور الجواليقي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط٢، مطبعة دار الكتب، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

١١٨ ـ مغني اللبيب، لجمال الدين بن هشام الأنصاري، دار الفكر، تحقيق: الدكتور مازن المبارك والدكتور محمد علي حمد الله، ط١، ١٩٦٤م.

١١٩ ـ مغول إيران بين المسيحية والإسلام، مصطفى طه بدر، دار الفكر العربي.

١٢٠ ـ مفتاح السعادة، أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٢١ ـ مفتاح العلوم، للإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، ضبطه: الأستاذ نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٢٢ ـ مقالات الإسلاميين، لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، تصحيح: هلموت ريتر، ط٣، دار النشر فرنز شتاينر بفيسبادون، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

١٢٣ ـ مقدمة في أصول التفسير، تقي الدين بن أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: د. عدنان زرزور، دار القرآن الكريم بالكويت، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

١٢٤ ـ مقدمة ابن عطية (ضمن مقدمتان في علوم القرآن)، تصحيح: آرثر جفري، مقدمة كتاب المباني ومقدمة ابن عطية، دار الكتب، بركين، دار الكتب المصرية، ١٩٥٤م.

١٢٥ ـ مقدمـة التفسير للعلامة أبي القاسم الراغـب الأصفهاني (مقدمة الراغب)، ط١، مطبعة الجمالية بمصر، ١٣٢٩هـ.

١٢٦ ـ مقدمتان في علوم القرآن، تصحيح: آرثر جفري، دار الكتب، برلين، دار الكتب المصرية ١٩٥٤م.

١٢٧ ـ المقنع في مرسوم الخط، للإمام أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق: محمد أحمد دهمان، مطبعة الترقي بدمشق، ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م.

١٢٨ ـ الملل والنحل، للإمام أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٢٩ ـ مناهج المفسرين، د. منيع عبد الحليم محمود، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١، ١٩٧٨م.

١٣٠ ـ مناهل العرفان، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٣١ ـ من روائع القرآن، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق.

١٣٢ ـ منهج الزمخشري في تفسير القرآن، مصطفى الصاوي الجويني، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية.

١٣٣ ـ المهذّب فيما وقع في القرآن من المُعَرَّب، جلال الدين السيوطي، تحقيق: الدكتور التهامي الراجي الهاشمي، دار الكتاب.

١٣٤ ـ الموافقات في أصول الأحكام، للحافظ أبي إسحاق إبراهيم اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، دار الفكر.

١٣٥ ـ الناسخ والمنسوخ، لأبي عبدالله محمد بن حزم، المطبعة الميمنية.

١٣٦ ـ الناسخ والمنسوخ، هبه الله بن سلامة، عالم الكتب، بيروت.

١٣٧ ـ نكت الإنتصار لنقل القرآن، محمد زغلول سلام، منشأة دار المعارف بالإسكندرية.

١٣٨ ـ النكت في إعجاز القرآن، للرمّاني ضمن (ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن).

١٣٩ ـ نوادر المخطوطات في مكتبات تركيا، الدكتور رمضان مشش، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ١٩٧٥م.

١٤٠ ـ هدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادي، دار الفكر، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

□ □ □

فهرس المخطوطات

١ ـ الاعتماد في الاعتقاد، عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، جامعة الملك سعود ـ الرياض ـ رقم المخطوط ٢١٠٧.

٢ ـ بحر الكلام، عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي ـ جامعة الملك سعود ـ الرياض ـ رقم المخطوط ١١٣/ ٣م (ن ٢١أ ـ ٢٩أ).

٣ ـ عمدة عقيدة أهل السنة، عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي ـ جامعة الملك سعود ـ الرياض.

٤ ـ الكافي شرح الوافي، عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي ـ رقم المخطوط ٢٥٨١ ـ ميكروفيلم ـ مكتبة الأسد.

٥ ـ المستصفى شرح فقه النافع، عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي ـ رقم المخطوط ٢٥٣٨ ـ ميكروفيلم ـ مكتبة الأسد.

٦ ـ المصفّى، عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي ـ رقم المخطوط ٢٦٥٢ ـ ميكروفيلم مكتبة الأسد.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
* الإهداء	٥
* المقدمة	٧

الباب الأول

النسفي وكتابه التفسير

تمهيد	١٥
* الفصل الأول النسفي: نشأته وثقافته	٢٥
نشأته	٢٥
أسرته	٢٧
وفاته	٢٧
شيوخه وثقافته	٢٨
تلامذته	٣٢
مذهبه الفقهي والكلامي	٣٣
* الفصل الثاني: مؤلفاته وشروحها	٣٩
أولاً: مؤلفاته المطبوعة	٤٠
ثانياً: مؤلفاته المخطوطة	٤٧
ثالثاً: مؤلفاته المفقودة	٥٢

الموضوع	الصفحة
* **الفصل الثالث تفسير النسفي: المفسرون وعلم التفسير**	٦١
التفسير والتأويل	٦١
أوائل المفسرين وبدايات التفسير	٦٣
التفسير في مرحلة التدوين	٦٦
أولاً: التفسير بالمأثور	٦٧
ثانياً: التفسير بالرأي	٦٨
أهمية التفسير وشروطه وآدابه	٧١
مصادر النسفي في تفسيره	٧٦
أولاً: التفاسير	٧٧
ثانياً: مصادره في الحديث	٨٣
ثالثاً: مصادره في الفقه والأحكام	٨٤
رابعاً: مصادره اللغوية	٨٥
خامساً: مصادره في القراءات	٨٩
منزلته وآراء العلماء في تفسيره	٩١

الباب الثاني

منهجه في التفسير وآراؤه

* **الفصل الأول: منهجه الفكري في تفسيره**	١٠١
١ ـ مسألة الإيمان	١٠١
٢ ـ الشفاعة	١٠٩
٣ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	١١٢

الموضوع	الصفحة
٤ ـ رؤية الله	١١٣
٥ ـ كلام الله تعالى	١١٦
٦ ـ الحُسْنُ والقبح ومهمة الرسل عليهم السلام	١١٦
٧ ـ الإضلال والهداية	١٢٠
٨ ـ مسألة العدل	١٢١
٩ ـ الإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور المعجزات	١٢٣
١٠ ـ تكليف ما لا يطاق غير جائز	١٢٣
١١ ـ عدم فناء الجنة والنار	١٢٤
١٢ ـ نفي الجهة	١٢٥
١٣ ـ الرسول وعلم الغيب	١٢٦
١٤ ـ الإرادة والمشيئة وصفات الله تعالى	١٢٧
١٥ ـ السحر	١٢٩
*** الفصل الثاني: منهجه في علوم القرآن**	١٣١
أولاً: التفسير	١٣١
أ ـ تفسير القرآن بالقرآن	١٣٢
ب ـ تفسير القرآن بالحديث	١٣٥
ج ـ تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين	١٤٠
ثانياً: السورة القرآنية	١٤٥
١ ـ معناها	١٤٥
٢ ـ فوائد تسوير القرآن	١٤٧

الموضوع	الصفحة
ثالثاً: فواتح السور	١٤٨
١ ـ معناها	١٤٩
٢ ـ إعرابها	١٥١
رابعاً: ترتيب الآيات والسور	١٥٢
خامساً: التأليف بين الآيات التي قد يظن فيها التناقض	١٥٥
سادساً: المحكم والمتشابه، تعريفهما	١٥٨
١ ـ تعريفهما	١٥٩
٢ ـ الحكمة من وجود المتشابه في القرآن	١٦٢
سابعاً: أسباب النزول	١٦٣
ثامناً: الناسخ والمنسوخ: تعريفه، أحكامه	١٦٩
١ ـ تعريفه	١٦٩
٢ ـ أحكامه	١٦٩
٣ ـ ما يجوز فيه النسخ	١٧٠
٤ ـ أنواعه	١٧١
٥ ـ الحكمة من النسخ	١٧٣
٦ ـ منهجه في الناسخ والمنسوخ	١٧٣
تاسعاً: النسفي والقراءات	١٨٠
عاشراً: ما ورد في تفسيره من الإسرائيليات	١٨٥
*** الفصل الثالث: منهجه اللغوي والنحوي**	١٩٥
أ ـ الجوانب اللغوية في تفسيره	١٩٥

الموضوع	الصفحة
١ ـ شرح الألفاظ المفردة	١٩٥
٢ ـ الأصل الحسي للفظ	١٩٧
٣ ـ التضمين	١٩٨
٤ ـ ما ورد في القرآن من غير لغة العرب	٢٠٠
٥ ـ ترجمة القرآن	٢٠٥
قراءة القرآن بغير العربية	٢٠٩
٦ ـ الرسم القرآني	٢١٣
ب ـ النحو والصرف	٢١٩
١ ـ مذهبه البصري	٢١٩
٢ ـ الإعراب والصرف	٢٢٣
٣ ـ طريقته في الاستشهاد	٢٣٠
أ ـ استشهاده بالشعر على النحو	٢٣٠
ب ـ منهجه في الاحتجاج على لغة الآية ومعناها	٢٣٣
* **الفصل الرابع: منهجه العقلي والأدبي والتربوي**	٢٣٩
أ ـ منهجه العقلي	٢٣٩
١ ـ تقليب الآية على وجوهها المعنوية المختلفة	٢٣٩
٢ ـ التنبيه على الألفة بين الفاصلة ونسقها المعنوي	٢٤١
٣ ـ استخراج الأدلة على أمور غيبية	٢٤١
٤ ـ الجمع بين ما قد يبدو متناقضاً	٢٤٤
٥ ـ رفض التقليد	٢٤٤

الموضوع	الصفحة
٦ ـ الاستطراد	٢٤٥
ب ـ منهجه الأدبي	٢٤٦
١ ـ تأييد تفسيره للآية بالشعر	٢٤٧
٢ ـ الشعر تعريفه وغايته	٢٤٨
٣ ـ المعاني النفسية التي يستوحيها من النص القرآني	٢٥٠
٤ ـ الفاصلة القرآنية وأثرها	٢٥١
٥ ـ تخريج بعض الآيات على اللهجات العربية	٢٥٤
٦ ـ تخريج بعض الآيات على الأمثال العربية	٢٥٥
٧ ـ التضمين	٢٥٥
ج ـ منهجه التربوي	٢٥٥
أ ـ توجيه الفرد	٢٥٦
ب ـ الترغيب والترهيب	٢٥٨
ج ـ توجيه المجتمع	٢٥٩
*** الفصل الخامس: منهجه البلاغي ورأيه في إعجاز القرآن**	٢٦١
معنى البلاغة وأهميتها في بيان إعجاز القرآن	٢٦١
أ ـ عبد القاهر الجرجاني وإعجاز القرآن	٢٦٧
ب ـ رأي الزمخشري في إعجاز القرآن وبلاغته	٢٧٠
ج ـ رأي النسفي في إعجاز القرآن	٢٧١
رأي النسفي في بلاغة القرآن	٢٧٤
إعجاز القرآن عند النسفي	٢٧٦

الموضوع	الصفحة
أ ـ إخباره عن الغيب	٢٧٦
ب ـ النظم	٢٧٧
أ ـ علم المعاني	٢٧٧
١ ـ الجملة الاسمية والفعلية	٢٧٨
٢ ـ التقديم والتأخير	٢٧٩
٣ ـ التثنية	٢٨٠
٤ ـ النسب	٢٨٠
٥ ـ الإضمار	٢٨١
٦ ـ الفعل	٢٨١
٧ ـ اسم الفاعل	٢٨٢
٨ ـ البدل	٢٨٣
٩ ـ النداء	٢٨٤
١٠ ـ أسلوب الإيجاز	٢٨٦
١١ ـ الاستفهام ومعانيه	٢٨٧
١٢ ـ التكرار	٢٨٩
١٣ ـ الاستفهام والاعتراض التقريريان	٢٩٣
١٤ ـ إيحاءات اللفظ	٢٩٤
١٥ ـ تحليله الجمالي للنظم	٢٩٦
١٦ ـ التصغير	٢٩٩
١٧ ـ المصدر	٣٠٠

الموضوع	الصفحة
١٨ ـ اسم الإشارة	٣٠٠
١٩ ـ الظرف	٣٠١
٢٠ ـ التنكير	٣٠٢
ب ـ علم البيان	٣٠٤
١ ـ الكناية والتعريض	٣٠٤
٢ ـ التمثيل والتخييل	٣٠٨
٣ ـ الاستعارة	٣١١
٤ ـ أسلوب العاطفة	٣١٢
ج ـ علم البديع	٣١٣
١ ـ الجناس	٣١٣
٢ ـ المشاكلة	٣١٤
٣ ـ اللف والنشر	٣١٥
٤ ـ الالتفات	٣١٦
* **الفصل السادس: النسفي بين الزمخشري والبيضاوي**	٣٢١
أ ـ ما تشابهت فيه التفاسير الثلاثة	٣٢٢
١ ـ الطريقة العامة للتفسير	٣٢٢
٢ ـ تعرضهم للحديث عن بعض علوم القرآن في أثناء تفسيرهم للآيات	٣٢٥
٣ ـ مذهبهم اللغوي	٣٢٩
٤ ـ الأفكار العامة	٣٢٩
٥ ـ الجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير عقلي	٣٣٠

الموضوع	الصفحة
ب ـ ما اختلفت فيه هذه التفاسير	٣٣٢
١ ـ ما اختلف فيه النسفي والزمخشري	٣٣٢
أولاً: المبادئ والأفكار	٣٣٢
١ ـ نظرتهم إلى كثير من الآيات القرآنية والحكم عليها بالإحكام والتشابه	٣٣٢
٢ ـ رؤية الله	٣٣٣
٣ ـ خلق القرآن	٣٣٥
٤ ـ جواز فعل الله للشر أو القبيح	٣٣٥
٥ ـ مسألة الرزق	٣٣٩
٦ ـ خلق الأفعال	٣٣٩
٧ ـ مسألة الإيمان	٣٤٠
٨ ـ المنزلة بين المنزلتين	٣٤١
٩ ـ مسألة الشفاعة	٣٤٢
١٠ ـ فضل البشر على الملائكة	٣٤٦
ثانياً: في الطريقة العامة للتفسير	٣٤٧
ثالثاً: في مصادر التفسير	٣٤٧
٢ ـ ما اتفق به النسفي والزمخشري	٣٤٩
١ ـ نظراتهم البلاغية	٣٤٩
٢ ـ استنباطاتهما العقلية	٣٥٠
٣ ـ التوفيق بين الآيات التي قد يظن فيها الاختلاف والتناقض	٣٥٠
٤ ـ الاستعانة بالشعر العربي في تفسير القرآن وتوضيح معانيه	٣٥٠

الموضوع	الصفحة
٥ ـ اتفاقهما في بعض المبادئ: حسن الإيمان وقبح الكفر	٣٥١
٦ ـ مهمة الرسل	٣٥٢
٧ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٣٥٢
٨ ـ المذهب الفقهي	٣٥٢
٣ ـ ما اختلف فيه البيضاوي والنسفي	٣٥٣
١ ـ في مذهبهما الفقهي	٣٥٦
٢ ـ في مصادر الفقه والأصول	٣٥٦
٣ ـ ما اتفق فيه النسفي والبيضاوي	٣٥٧
١ ـ الطريقة العامة في التفسير	٣٥٧
٢ ـ في مذهبهما الفكري وفي أهداف التفسير	٣٥٧
* **الخاتمة**	٣٦١
* فهرس المصادر والمراجع	٣٦٥
* فهرس المخطوطات	٣٧٥
* فهرس الموضوعات	٣٧٧

مِن إصداراتِ

دَارُ النَّوادِر

بإشراف

نُورُ الدِّينِ طَالِب

المُدِيرُ العَامّ والرَّئيسُ التَّنفيذِيّ

حاشية مسند الإمام أحمد بن حنبل

تأليف

العلامة أبي الحسن نور الدين محمد بن عبد الهادي السندي

المتوفى بالمدينة المنورة سنة ١١٣٨ هـ

في سبعة عشر مجلداً

اعتنى به

تحقيقاً وضبطاً وتخريجاً

نور الدين طالب

إصدارات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

دولة قطر

كشف اللثام شرح عمدة الأحكام

تأليف

الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن سالم السفاريني النابلسي الحنبلي

المولود سنة (١١١٤) - والمتوفى سنة (١١٨٨ هـ)

رحمه الله تعالى

في ٧ مجلدات

اعتنى به

تحقيقاً وضبطاً وتخريجاً

نور الدين طالب

رياض الأفهام شرح عمدة الأحكام

تأليف

الإمام تاج الدين الفاكهاني

أبي حفص عمر بن علي بن سالم بن صدقة اللخمي الإسكندري المالكي

المولود بالإسكندرية سنة ٦٥٤ هـ والمتوفى بها سنة ٧٣١ هـ

رحمه الله تعالى

يطبع لأول مرة كاملاً محققاً على ثلاث نسخ خطية

في ٥ مجلدات

تحقيق ودراسة

نور الدين طالب

بالتعاون مع لجنة مختصة من المحققين

فتح الرحمن في تفسير القرآن

تأليف

الإمام القاضي مجير الدين بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي

المولود سنة (٨٦٠ هـ) - والمتوفى سنة (٩٢٧ هـ)

رحمه الله تعالى

في ٧ مجلدات

اعتنى به

تحقيقاً وضبطاً وتخريجاً

نور الدين طالب

إصدارات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

دولة قطر

مصابيح الجامع

«وهو شرح الجامع الصحيح للإمام البخاري
المشتمل على بيان تراجمه وأبوابه وغريبه وإعرابه»

تأليف
الإمام القاضي بدر الدين الدماميني
أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عمر القرشي المخزومي الإسكندراني المالكي
المولود في الإسكندرية سنة ٧٦٣هـ والمتوفى في الهند سنة ٨٢٧هـ
رحمه الله تعالى

في ١٠ مجلدات

اعتنى به
تحقيقاً وضبطاً وتخريجاً
نور الدين طالب
بالتعاون مع لجنة مختصة من المحققين

عون الباري

بحل أدلة البخاري

تأليف
السيد العلامة
محمد صديق حسن خان القنوجي البخاري
المولود سنة ١٢٤٨هـ والمتوفى سنة ١٣٠٨هـ
رحمه الله تعالى

في ١٠ مجلدات

اعتنى به
تحقيقاً وضبطاً وتخريجاً
نور الدين طالب
بالتعاون مع لجنة مختصة من المحققين

منحة الباري

في جمع روايات
صحيح البخاري

تأليف
العلامة محمد عابد السندي
محمد عابد بن أحمد بن علي السندي الأنصاري المدني الحنفي
المولود بالسند سنة ١١٩٠هـ والمتوفى بالمدينة المنورة سنة ١٢٥٧هـ
رحمه الله تعالى

في ٦ مجلدات

تحقيق ودراسة
لجنة مختصة من المحققين
بإشراف
نور الدين طالب

جامع الصحيحين

بحذف المعاد والطرق

تأليف
الحافظ أبي نعيم الحداد
عبيد الله بن الحسن بن أحمد الأصبهاني
المولود سنة ٤٦٣هـ والمتوفى سنة ٥١٧هـ
رحمه الله تعالى

في ٥ مجلدات

تحقيق ودراسة
لجنة مختصة من المحققين
بإشراف
نور الدين طالب

لب اللباب
في
التراجم والأبواب

«في شرح تراجم وأبواب صحيح البخاري»

تأليف

العلامة عبد الحق الهاشمي

أبي محمد عبد الحق بن عبد الواحد الهاشمي العمري الهندي المكي

المدرس في المسجد الحرام بمكة المكرمة

المولود سنة ١٣٠٢ هـ والمتوفى سنة ١٣٩٢ هـ

رحمه الله تعالى

في ٦ مجلدات

تحقيق ودراسة

لجنة مختصة من المحققين

بإشراف

نور الدين طالب

حسن التنبه
لما ورد في التشبه

«وهو كتاب فريد في بابه يشتمل على بيان ما يتشبه به المسلم وما لا يتشبه به»

تأليف

العلامة نجم الدين الغزي

محمد بن محمد العامري القرشي الغزي الدمشقي الشافعي

المولود بدمشق سنة ٩٧٧ هـ والمتوفى بها سنة ١٠٦١ هـ

رحمه الله تعالى

في ١٢ مجلداً

تحقيق ودراسة

لجنة مختصة من المحققين

بإشراف

نور الدين طالب

كتاب الأحكام الكبير

«الشامل لكتب: الأذان - المساجد - استقبال القبلة - صفة الصلاة»

«الجزء الثالث من تجزئة المؤلف»

تأليف

الحافظ ابن كثير

عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي الشافعي

المولود سنة ٧٠١ هـ والمتوفى سنة ٧٧٤ هـ

رحمه الله تعالى

في ٣ مجلدات

تحقيق ودراسة

لجنة مختصة من المحققين

بإشراف

نور الدين طالب

التاريخ المعتبر
في
أنباء من غبر

«وهو كتاب جامع لتاريخ الأنبياء وتاريخ الإسلام وتراجم أئمته العظام إلى مبتدأ القرن العاشر الهجري»

تأليف

القاضي مجير الدين العليمي

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المقدسي الحنبلي

المولود بالقدس سنة ٨٦٠ هـ والمتوفى بها سنة ٩٢٨ هـ

رحمه الله تعالى

في ٣ مجلدات

تحقيق ودراسة

لجنة مختصة من المحققين

بإشراف

نور الدين طالب

التعليقة الكبيرة

في مسائل الخلاف

تأليف

القاضي أبي يعلى الفرّاء الحنبلي

محمد بن الحسين بن محمد خلف البغدادي الحنبلي

المولود ببغداد سنة ٣٨٠هـ والمتوفى بها سنة ٤٥٨هـ

رحمه الله تعالى

في ٣ مجلدات

تحقيق ودراسة

نخبة من المحققين

بإشراف

نور الدين طالب

الروض الندي

شرح

كافي المبتدي

تأليف

الإمام العالم النّاسك

أحمد بن عبد الله بن أحمد البعلي

(١١٠٨ ـ ١١٨٩)

رحمه الله تعالى

في مجلدين

اعتنى به

تحقيقاً وضبطاً وتخريجاً

نور الدين طالب

كتاب الهادي

أو

«عمدة الحازم في الزوائد على مختصر أبي القاسم»

تأليف

الإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي

المولود بجماعيل سنة (٥٤١هـ) والمتوفى بدمشق سنة (٦٢٠هـ)

رحمه الله تعالى

اعتنى به

تحقيقاً وضبطاً وتخريجاً

نور الدين طالب

إصدارات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

دولة قطر

حاشية

دليل الطالب

لنيل المطالب

في الفقه الحنبلي

تأليف

العلامة مصطفى بن أحمد الدوماني الحنبلي

شيخ الحنابلة بالجامع الأزهر

المولود في دومة والمتوفى في القسطنطينية سنة ١١٩٢هـ

رحمه الله تعالى

اعتنى به

تحقيقاً وضبطاً وتخريجاً

نور الدين طالب

شرح منظومة

الآداب الشرعية

تأليف

الإمام موسى بن أحمد الحجاوي الدمشقي الحنبلي

(٨٩٥ - ٩٦٨ هـ)

رحمه الله تعالى

اعتنى به

تحقيقاً وضبطاً وتخريجاً

نور الدين طالب

مختصر الغالب

من متن

دليل الطالب

تأليف

الشيخة العابدة الزاهدة الصالحة

فاطمة بنت حمد الفضيلية الزبيرية المكية الحنبلية

المتوفاة في مكة المكرمة ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ١٢٤٧هـ

رحمها الله تعالى

اعتنى به

تحقيقاً وضبطاً وتخريجاً

نور الدين طالب

قرة العين

فيما حصل من الاتفاق والاختلاف بين المذهبين

« الحنبلي والشافعي »

تأليف

الإمام يوسف بن حسن بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي

(٨٩١ - ٩٠٩ هـ)

اعتنى به

تحقيقاً وضبطاً وتخريجاً

نور الدين طالب

يطبع لأول مرة عن نسخة خطية فريدة بخط المؤلف

شرح

كتاب الشهاب

في الحكم والمواعظ والآداب

للإمام القضاعي

يتضمن شرح قرابة ألف حديث نبوي مع تخريجها وبيان الحكم عليها

تأليف

العلامة عبد القادر بن بدران الدومي الحنبلي

(١٢٦٥ - ١٣٤٦ هـ)

رحمه الله تعالى

اعتنى به

تحقيقاً وضبطاً وتخريجاً

نور الدين طالب

صفوة الملح
بشرح منظومة البيقوني في فن المصطلح

تأليف
العلامة شهاب الدين محمد بن محمد البديري الدمياطي
المتوفى سنة (١١٤٠ هـ)
(رحمه الله تعالى)

اعتنى به
تحقيقاً وضبطاً وتخريجاً
نور الدين طالب

الفوائد الدراري
في ترجمة الإمام البخاري

تأليف
الإمام العجلوني
إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي الشافعي
المولود سنة ١٠٨٧ والمتوفى سنة ١١٦٢ هـ
رحمه الله تعالى

اعتنى به
تحقيقاً وضبطاً وتخريجاً
نور الدين طالب

الإفهام
بما في البخاري من الإبهام

تأليف
القاضي جلال الدين البلقيني
أبي الفضل عبد الرحمن بن عمر بن رسلان البلقيني المصري الشافعي
المولود سنة ٧٦٣ هـ والمتوفى سنة ٨٢٤ هـ
رحمه الله تعالى

تحقيق ودراسة
لجنة مختصة من المحققين
بإشراف
نور الدين طالب

ديوان الإمام
عبد القادر بن بدران
المسمى بـ
تسلية اللبيب عن ذكرى حبيب

نظم الشاعر
العلامة عبد القادر بن بدران الدومي الحنبلي
رحمه الله تعالى

اعتنى به
تحقيقاً وضبطاً وتخريجاً
نور الدين طالب

التوضيح لشرح الجامع الصحيح

تصنيف

سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي

المعروف بـ ابن الملقن

(٧٢٣ - ٨٠٤ هـ)

في ٣٦ مجلداً

تحقيق

دار الفلاح

للبحث العلمي وتحقيق التراث

بإشراف

خالد الرباط   جمعة فتحي

إصدارات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

دولة قطر

نخب الأفكار شرح معاني الآثار

تأليف

الإمام بدر الدين العيني

محمود بن أحمد بن موسى الحلبي ثم القاهري الحنفي

المولود سنة ٧٦٢ هـ والمتوفى سنة ٨٧٥ هـ

رحمه الله تعالى

في ١٩ مجلداً

تحقيق

ياسر بن إبراهيم

إصدارات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

دولة قطر

نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول

(صلى الله عليه وآله وسلم)

النسخة المسندة الكاملة

تصنيف

الحكيم الترمذي

أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر المؤذن

المتوفى في حدود سنة ٣٢٠ هـ

رحمه الله تعالى

يطبع لأول مرة كاملاً محققاً على ثلاث نسخ خطية

في ٧ مجلدات

تحقيق

توفيق محمود تكله

موسوعة الأعمال الكاملة

للإمام

محمد الخضر حسين

شيخ الجامع الأزهر وعلامة بلاد المغرب

المولود بتونس سنة ١٢٩٣ هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ١٣٧٧ هـ

رحمه الله تعالى

في ١٥ مجلداً

جمعها وضبطها ابن أخيه

المحامي علي الرضا الحسيني

المخلصيات

وأجزاء أخرى لأبي طاهر المخلص

محمد بن عبد الرحمن بن العباس البغدادي الذهبي

المتوفى سنة (٣٩٢هـ)

- المخلصيات بانتقاء أبي الفتح ابن أبي الفوارس
- جزء ابن الطاهرية وهو التاسع بانتقاء ابن البقال
- العاشر من المخلصيات بانتقاء ابن البقال
- منتقى من المنتقى من سبعة أجزاء
- جزء من حديث أبي طاهر المخلص
- سبعة مجالس من أمالي أبي طاهر المخلص

تحقيق

نبيل سعد الدين جرار

في ٤ مجلدات

إصدارات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

دولة قطر

شرح مسند الشافعي

تأليف

الإمام العلامة حجة الإسلام

عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل بن الحسن القزويني

أبي القاسم الرافعي الشافعي

المتوفى سنة ٦٢٣ هـ

حققه

أبو بكر وائل محمد بكر زهران

(دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث)

في ٤ مجلدات

إصدارات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

دولة قطر

بداية المحتاج في شرح المنهاج

في الفقه الشافعي

تأليف

الإمام ابن قاضي شهبة

بدر الدين محمد بن أبي بكر بن أحمد الأسدي الدمشقي الشافعي

المتوفى سنة ٨٧٤ هـ

رحمه الله تعالى

في ٧ مجلدات

تحقيق ودراسة

لجنة مختصة من المحققين

شرح الإلمام بأحاديث الأحكام

تأليف

الإمام المجتهد ابن دقيق العيد

أبي الفتح تقي الدين محمد بن علي بن وهب القشيري القاهري

(٦٢٥ - ٧٠٢هـ)

رحمه الله تعالى

في ٥ مجلدات

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه

محمد خلوف العبد الله

فوائد الارتحال ونتائج السفر
في
أخبار القرن الحادي عشر

تأليف
العلامة مصطفى بن فتح الله الحموي
المتوفى سنة ١١٢٣هـ
رحمه الله تعالى

في ٦ مجلدات

تحقيق
عبد الله محمد الكندري

كتاب الآثار

للإمام محمد بن الحسن الشيباني
المتوفى سنة : ١٨٩هـ

من أوائل كتب أدلة المذهب الحنفي

في مجلدين

يطبع كاملاً لأول مرة مقابلاً على أصول خطية

تحقيق
خالد العواد

المختصر في الفقه

للإمام الفقيه عمر بن الحسين الخرقي
المتوفى سنة (٣٣٤هـ)
رحمه الله تعالى
أول متن في الفقه الحنبلي

مقابل على عدة نسخ خطية

تحقيق وتعليق
محمد بن ناصر العجمي

تبليغ البشرى
بأحاديث
داريا الكبرى

تأليف
المحدث شمس الدين محمد بن طولون الدمشقي الصالحي
المولود سنة ٨٨٠هـ - والمتوفى سنة ٩٥٣هـ
رحمه الله تعالى

حققه وعلق عليه
رياض حسين عبد اللطيف الطائي

قدم له
الشيخ حسين سليم أسد الداراني

يطبع لأول مرة عن نسخة خطية فريدة

التبيان لبديعة البيان

يتضمن تراجم مشاهير أعلام الحفّاظ المحدّثين

تأليف

الإمام ابن ناصر الدين الدمشقي

(المتوفى سنة ٨٤٢ هـ)

في ٣ مجلدات

يُطبع لأول مرة على ثلاث نسخ خطّية

دراسة وتحقيق

د. عبد السلام الشيخلي — عبد الخالق المزوري

سعيد البوتاني — إسماعيل الكوراني

مختصر صحيح مسلم

تأليف

الإمام النووي

أبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي الدمشقي الشافعي

المولود سنة ٦٣١ هـ - والمتوفى سنة ٦٧٩ هـ

رحمه الله تعالى

يُطبع لأول مرة محقّقاً على ثلاث نسخ خطّية

تحقيق

عبد الحميد محمد الدرويش

عبد العليم محمد الدرويش

كشف النقاب عما روى الشيخان للأصحاب

تأليف

الحافظ العلائي

أبي سعيد صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي الشافعي

المولود سنة ٦٩٤ والمتوفى سنة ٧٦١ هـ

رحمه الله تعالى

ويليه

الانتخاب في اختصار كشف النقاب

نظم

عماد الدين إسماعيل بن محمد بن بردس

(٧٢٠ — ٧٨٦ هـ)

دراسة وتحقيق

عبد الجواد حمام

إصدارات

ثلث خيرات ناصر عبد المحسن السعيد

دولة الكويت

حديث المتبايعين بالخيار والكلام على رواته

تخريج

الحافظ المنذري

زكي الدين أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري

المتوفى سنة ٦٥٦ هـ

رحمه الله تعالى

ويذيله

إتحاف الأخيار بطرق حديث المتبايعين بالخيار

تحقيق وإعداد

رياض حسين الطائي

إصدارات

ثلث خيرات ناصر عبد المحسن السعيد

دولة الكويت

الأول من كتاب

القواعد الفقهية

على مذهب الإمام أحمد بن حنبل

رحمه الله تعالى

المنسوب

لابن قاضي الجبل الحنبلي

قاضي القضاة شرف الدين أحمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي عمر

المقدسي الدمشقي الحنبلي

المتوفى سنة (٧٧١ هـ)

رحمه الله تعالى

تحقيق

الدكتور صفوت عادل عبد الهادي

إصدارات

ثلث خيرات ناصر عبد المحسن السعيد

دولة الكويت

فتاوى العلائي

أو

الفتاوى المستغربة

تأليف

الحافظ العلائي

أبي سعيد صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي الشافعي

المولود سنة ٦٩٤ والمتوفى سنة ٧٦١ هـ

رحمه الله تعالى

دراسة وتحقيق

عبد الجواد حمام

إصدارات

ثلث خيرات ناصر عبد المحسن السعيد

دولة الكويت

شرح

الأربعين المختارة

من حديث

الإمام أبي حنيفة

تأليف

الإمام يوسف بن عبد الهادي

يوسف بن حسن بن عبد الهادي الحنبلي المقدسي الدمشقي

المتوفى سنة ٩٠٩ هـ

رحمه الله تعالى

صنعة

خالد العواد

إصدارات

ثلث خيرات ناصر عبد المحسن السعيد

دولة الكويت

رسالة الإمام

أحمد بن حنبل

إلى الخليفة المتوكل العباسي

حققها وقدم لها

علي محمد زينو

إصدارات

ثلث خيرات ناصر عبد المحسن السعيد

دولة الكويت

الفصول في اختصار سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

تأليف
الحافظ ابن كثير
عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي الشافعي
المولود سنة ٧٠٠ هـ والمتوفى سنة ٧٧٤ هـ
رحمه الله تعالى

حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه
عبد الحميد محمد الدرويش

نور العيون في تلخيص سيرة الأمين المأمون سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

تأليف
الامام محمد بن سيد الناس
٦٧١ — ٧٣٤ هـ

حققه وعلق عليه
سليمان الحرش

الغرر والدرر في سيرة خير البشر صلى الله عليه وسلم

تأليف
الشيخ الإمام العلامة
عز الدين محمد بن جماعة
المتوفى سنة ٨١٩ هـ

تحقيق وتعليق
عدنان أبو زيد

حسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم

سيد الشعراء المؤمنين المؤيد بروح القدس
دراسة نقدية موطئة لتوثيق ديوان الشاعر

تأليف
محمد محمد حسن شراب

بغية الملتمس

في سباعيات حديث الإمام مالك بن أنس

تأليف

الحافظ العلائي

أبي سعيد صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي الشافعي

المولود سنة ٦٩٤ والمتوفى سنة ٧٦١ هـ

رحمه الله تعالى

تحقيق ودراسة

حمدي عبد المجيد السلفي

آداب الدعاء

المسمّى

أدب المرتعى في علم الدعا

تأليف

الإمام يوسف بن حسن بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي

(٨٤١ - ٩٠٩ هـ)

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه

محمد خلوف العبد الله

الرحلة الحجازية

المسمّاة

الارتسامات اللطاف

في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف

بقلم

أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

صححها وعلق عليها

حسن السماحي سويدان

فضل الخيل

تأليف

الحافظ الدمياطي

شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي المصري الشافعي

المولود بدمياط سنة ٦١٣ هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ٧٠٥ هـ

رحمه الله تعالى

اعتنى به

نظام محمد صالح يعقوبي

نظم القناعة
فيمن روى له الجماعة

نظم الإمام ابن بردس البعلبكي
عماد الدين إسماعيل بن محمد بن بردس بن نصر الحنبلي

تحقيق
عبد الجواد حمام

الانتباه
لما قال الحاكم
ولم يخرجاه
وهو في أحدهما أو روياه

تأليف
محمد بن محمود بن إبراهيم عطية

إصدارات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
دولة قطر

ضجيج الكون
من لبس البنطلون

تأليف
العلامة سالم ابن جندان
أبي محمد سالم بن أحمد بن الحسين العلوي الحسيني الشافعي
من أعيان القرن الرابع عشر الهجري

اعتنى به
نظام محمد صالح يعقوبي

آداب
الحسن البصري
وزهده ومواعظه
رحمه الله تعالى

تأليف
الإمام ابن الجوزي
أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي
المولود ببغداد سنة ٥٠٨ هـ والمتوفى سنة ٥٩٧ هـ
رحمه الله تعالى

تحقيق
سليمان الحرش

أمالي المحاملي

للحافظ الحسين بن إسماعيل بن محمد المحاملي

(المولود سنة ٢٣٥ هـ والمتوفى سنة ٣٣٠ هـ)

رواية

ابن المهدي الفارسي

عبد الواحد بن محمد بن عبد الله بن مهدي الفارسي

(٣١٨ – ٤١٦ هـ)

ويليها

رواية ابن الصلد القرشي

أحمد بن محمد بن موسى بن الصلد المجبر

(٣١٧ – ٤٠٥ هـ)

تحقيق ودراسة

حمدي عبد المجيد السلفي

عمدة المحتج في حكم الشطرنج

تأليف

الإمام أبي الخير شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي

(٨٣١ – ٩٠٢ هـ)

رحمه الله تعالى

حققه وعلق عليه

أسامة الحريري — نذير كعكة

الحاوي القدسي

في فروع الفقه الحنفي

تأليف

القاضي الغزنوي

جمال الدين أحمد بن محمود بن سعيد القابسي الغزنوي الحلبي الحنفي

معيد مدرس الإمام الكاساني صاحب بدائع الصنائع

المتوفى في حلب سنة ٥٩٣ هـ

رحمه الله تعالى

تحقيق

الدكتور صالح العلي

أستاذ الاقتصاد الإسلامي والمصارف الإسلامية

في كليتي الشريعة والاقتصاد

عضو هيئة شرعية في عدد من المؤسسات المالية والإسلامية

في مجلدين

ثلاث رسائل في موافقات عمر بن الخطاب

رضي الله عنه

دراسة وتحقيق

عبد الجواد حمام

إدراك المطالب

بحاشية ابن عقيل على

دليل الطالب

وهي حاشية للعلامة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العقيل

على دليل الطالب للإمام مرعي الكرمي الحنبلي

المتوفى سنة ١٠٣٣هـ

جمع وترتيب مع ضبط المتن

الدكتور وليد بن عبد الله المنيس

معاني الأحرف السبعة

«تواتره، مذاهب العلماء فيه، حقيقة مذهب الإمام الرازي

حل مشكله، جمع القرآن... مناقشات وردود»

تأليف

شيخ الإسلام

الإمام المقرئ أبي الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن حسن الرازي

المولود ٣٧١هـ والمتوفى سنة ٤٥٤هـ

حققه وخرج أحاديثه وأكمل فوائده

الأستاذ الدكتور

حسن ضياء الدين عتر

رحمه الله تعالى

فصل القضاء

في أحكام الأداء والقضاء

تأليف

الحافظ العلائي

أبي سعيد صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي الشافعي

المولود سنة ٦٩٤ والمتوفى سنة ٧٦١هـ

رحمه الله تعالى

دراسة وتحقيق

عبد الجواد حمام

كشف النقاب لرشف الرضاب

شرح لمنظومة «رضاب الرتشف في نظم ما في الصحيحين من المؤتلف والمختلف»

من علوم مصطلح الحديث الشريف

نظم وشرح

الشيخ الفاضل الأديب عبد الهادي نجا الأبياري الشافعي المصري

المتوفى سنة ١٣٠٥هـ

رحمه الله تعالى

تحقيق وتعليق

عدنان أبو زيد

دلائل النبوة

تأليف

الحافظ المستغفري

أبي العباس جعفر بن محمد المستغفري

(المولود سنة ٣٥٠ هـ - والمتوفى سنة ٤٣٢ هـ)

رحمه الله تعالى

ومعه رسالة في الحديث تنسب إليه

في مجلدين

تحقيق وتخريج

الدكتور أحمد بن فارس السلوم

رؤوس المسائل

وتحفة طلاب الفضائل

تأليف

الإمام النووي

أبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي الدمشقي الشافعي

المولود سنة ٦٣١ هـ - والمتوفى سنة ٦٧٦ هـ

رحمه الله تعالى

دراسة وتحقيق

عبد الجواد حمام

آثار ذوات السوار

كتاب نسائي أخلاقي أدبي

يحتوي على ما دار بين فاضلات النساء وبين كبار الرجال

من جميل المحادثات وبديع المطارحات الأدبية الجديرة بالاطلاع

تأليف

محمد علي حشيشو

بحث حول سنة

الجمعة القبلية

تأليف

العلامة عبد الرحمن المعلمي

أبي عبد الله عبد الرحمن بن يحيى المعلمي العتمي اليماني ثم المكي

رئيس القضاة في عسير والمصحح في دائرة المعارف

العثمانية وأمين مكتبة الحرم المكي

ولد في أواخر سنة ١٣١٢ هـ في اليمن

وتوفي في أوائل سنة ١٣٨٦ هـ في مكة

أعدها للنشر

ماجد عبد العزيز الزيادي

الرأي المستجاد في قصة بانت سعاد

دراسة أدبية تاريخية تأصيلية لقصيدة بانت سعاد

تأليف

محمد محمد حسن شرّاب

فتح الغفور بشرح منظومة القبور

للعلامة أحمد بن خليل السبكي

تحقيق

أحمد عبد المعين درويش

تاريخ داريا الكبرى

(داريا دمشق)

تأليف

محمد حسام الدين الخطيب الداراني

في مجلدين

مباحث تمهيدية في علم أصول الفقه

تأليف الدكتورة

حنان فتال يبرودي

دكتوراه في الفقه الإسلامي وأصوله

مراجعة الدكتور

باسل محمود الحافي

دكتوراه في الفقه الإسلامي وأصوله

(١)

العفو

عند الأصوليين والفقهاء

يتضمن دراسة تأصيلية تطبيقية لمرتبة العفو
عند الإمامين ابن تيمية والشاطبي

تأليف الدكتور
يوسف صلاح الدين طالب

مشروع ١٠٠
رسالة جامعية سورية

(٢)

النية

وأثرها في العبادات

تأليف
هناء المهاجر طرابزونلي

مشروع ١٠٠
رسالة جامعية سورية

(٣)

أسباب اختلاف المفسرين

في
تفسير آيات الأحكام

تأليف الدكتور
عبد الإله حوري الحوري

مشروع ١٠٠
رسالة جامعية سورية

(٤)

أحكام العدة

في الفقه الإسلامي
وقانون الأحوال الشخصية السوري
(عدة الوفاة - عدة الطلاق)

تأليف الدكتورة
حنان فتال يبرودي

مشروع ١٠٠
رسالة جامعية سورية

(٥)

نظرية المنفعة

في الفقه الإسلامي

تأليف الدكتور

تيسير محمّد برمو

مشروع ١٠٠

رسالة جامعية سورية

(٦)

الأثر الفلسفي

في التفسير

تأليف الدكتور

بكّار محمود الحاج جاسم

مشروع ١٠٠

رسالة جامعية سورية

(٧)

أحكام الغائب والمفقود

في الفقه الإسلامي

دراسة مقارنة

تأليف الدكتور

عبد المنعم فارس سقّا

مشروع ١٠٠

رسالة جامعية سورية

(٨)

أهل الحل والعقد

في نظام الحكم الإسلامي

بحث مقارن

تأليف الدكتور

بلال صفي الدّين

مشروع ١٠٠

رسالة جامعية سورية

(٩)

البدر العيني

وجهوده في علوم الحديث وعلوم اللغة

في كتابه

« عمدة القاري شرح صحيح البخاري »

تأليف الدكتورة

هند محمود سحلول

مشروع ١٠٠

رسالة جامعية سورية

(١٠)

الصناعة الحديثية

عند الإمام البيهقي

في كتابه

« شعب الإيمان »

تأليف الدكتورة

منى عبد الحكيم العسة

مشروع ١٠٠

رسالة جامعية سورية

(١١)

فقه الطفولة

أحكام النفس

دراسة مقارنة

تأليف الدكتور

باسل محمود الحافي

مشروع ١٠٠

رسالة جامعية سورية

(١٢)

الجنسية والتجنس

وأحكامها في الفقه الإسلامي

تأليف الدكتور

سميح عواد الحسن

مشروع ١٠٠

رسالة جامعية سورية

(١٣)

التفرد

في رواية الحديث

ومنهج المحدثين في قبوله أو ردّه

(دراسة تأصيلية تطبيقية)

تأليف

عبد الجواد حمام

مشروع ١٠٠

رسالة جامعية سورية

(١٤)

جرائم الأحداث

في الشريعة الإسلامية

المشكلة والعلاج

دراسة فقهية تربوية

تأليف الدكتور

محمد ربيع صباهي

مشروع ١٠٠

رسالة جامعية سورية

(١٥)

أصول التحقيق الجنائي

في

الشريعة الإسلامية

دراسة فقهية مقارنة

تأليف الدكتور

محمد راشد العمر

مشروع ١٠٠

رسالة جامعية سورية

(١٦)

الفسوق

وأحكامه في الفقه الإسلامي

تأليف الدكتور

بسام محمد صهيوني

مشروع ١٠٠

رسالة جامعية سورية

(١٧)

أثر الفلسفة اليونانية

في علم الكلام الإسلامي حتى القرن السادس الهجري

تأليف الدكتور

محمود محمد عيد نفيسة

مشروع ..١٠٠ رسالة جامعية سورية

(١٨)

التعارض بين الأقيسة

وأثره في الفقه الإسلامي

تأليف الدكتورة

ميادة محمد الحسن

مشروع ..١٠٠ رسالة جامعية سورية

(١٩)

التفتازاني

وآراؤه البلاغية

تأليف

ضياء الدين القالش

مشروع ..١٠٠ رسالة جامعية سورية

(٢٠)

الحرية الاقتصادية

ومدى سلطان الدولة في تقييدها في الشريعة الإسلامية

تأليف الدكتور

محمد جنيد الديرشوي

مشروع ..١٠٠ رسالة جامعية سورية

(٢١)

الموازنة

بين منهج الحنفية ومنهج المحدثين
في قبول الأحاديث وردها

تأليف
عدنان علي الخضر

مشروع ١٠٠
رسالة جامعية سورية

(٢٢)

النقد التطبيقي

عند العرب
في القرنين الرابع والخامس الهجريين

تأليف الدكتور
أحمد محمد نتوف

مشروع ١٠٠
رسالة جامعية سورية

(٢٣)

صنعة أسانيد السنة

في تاريخ ابن عساكر

تأليف
باسل الكسم

مشروع ١٠٠
رسالة جامعية سورية

(٢٤)

صيغ التمويل الزراعي

في التشريع الإسلامي وإمكانيات تطبيقها

تأليف الدكتور
عبد الله محمد نوري الديرشوي

مشروع ١٠٠
رسالة جامعية سورية

(٢٥)

منهج يحيى بن سلام في التفسير

(١٢٤ - ٢٠٠ هـ)

تأليف الدكتور
زكريا هاشم حبيب الخولي

مشروع ١٠٠
رسالة جامعية سورية

(٢٦)

أهلية المرأة في الشريعة الإسلامية

تأليف الدكتورة
غيداء محمد عبد الوهاب المصري

مشروع ١٠٠
رسالة جامعية سورية

(٢٧)

منهج الإمام فخر الدين الرازي بين الأشاعرة والمعتزلة

تأليف الدكتورة
خديجة حمادي العبد الله

مشروع ١٠٠
رسالة جامعية سورية

(٢٨)

الأسس الأخلاقية في العهد القديم مع مقارنتها بالقرآن الكريم

تأليف الدكتورة
ريمة شريف الصياد

مشروع ١٠٠
رسالة جامعية سورية

(٢٩)

نقد أعلام الرواة

الشعر العربي

حتى أوائل القرن الثالث

تأليف الدكتور

عبد الكريم محمد حسين

مشروع ١٠٠

رسالة جامعية سورية

(٣٠)

تعقبات الفارسي

لشيخه الزجاج في «الإغفال»

تأليف

محمد عماد سمير بايزيد

مشروع ١٠٠

رسالة جامعية سورية

(١)

أحكام السجناء

وحقوقهم في الفقه الإسلامي

دراسة مقارنة

تأليف الدكتور

محمد راشد العمر

مكتبة الرسائل الجامعية العالمية

(٢)

حماية البيئة الطبيعية

في الشريعة الإسلامية

دراسة فقهية مقارنة

تأليف

صفاء موزة

مكتبة الرسائل الجامعية العالمية

(٣)

الحرب النفسية

منذ بداية الدعوة الإسلامية حتى نهاية العصر الأموي

تأليف الدكتور

حسين حسن عداي

مكتبة الرسائل الجامعية العالمية

(٤)

الحديث المنكر

دراسة نظرية

في كتاب «علل الحديث» لابن أبي حاتم

تأليف الدكتور

عبد السلام أبو سمحة

مكتبة الرسائل الجامعية العالمية

(٥)

مَعْرِفَةُ أَصْحَابِ الرُّوَاةِ

وَأَثَرُهَا فِي ٱلتَّعْلِيلِ

دِرَاسَةٌ نَظَرِيَّةٌ وَتَطْبِيقِيَّةٌ فِي عِلَلِ أَصْحَابِ الأَعْمَشِ

تأليف الدكتور

عبد السلام أبو سمحة

مكتبة الرسائل الجامعية العالمية

(٦)

لُبَابُ ٱلْمَحْصُولِ فِي عِلْمِ ٱلأُصُولِ

أو

مُخْتَصَرُ ٱلْمُسْتَصْفَى، لِلْغَزَالِيِّ

تأليف

الفقيه الأصولي ابن رشيق المالكي

جمال الدين الحسين بن عتيق بن الحسين التغلبي المصري المالكي

المولود بالإسكندرية سنة ٥٤٩ والمتوفى بمصر سنة ٦٣٢ هـ

رحمه الله تعالى

تحقيق الدكتورة

ثناء محمد علي الحلبي

مكتبة الرسائل الجامعية العالمية

(٧)

الطَّيَالِسِيُّ

وَمَرْوِيَّاتُهُ ٱلتَّارِيخِيَّةُ

تأليف

أحمد عدنان صالح الحمداني

مكتبة الرسائل الجامعية العالمية

(٨)

مَبْدَأُ السَّبَبِيَّةِ

فِي ٱلْفِكْرِ ٱلإِسْلَامِيِّ بِمِصْرَ وَٱلشَّامِ

فِي ٱلْعَصْرِ ٱلْحَدِيثِ

دِرَاسَةٌ تَأْصِيلِيَّةٌ مُقَارِنَةٌ

تأليف الدكتور

محمود محمد عيد نفيسة

مكتبة الرسائل الجامعية العالمية

(٩)

أحكام الإكراه

وتطبيقاته في الفقه الإسلامي

دراسة مقارنة مع القانون

تأليف الدكتور

تيسير محمد برمو

مكتبة الرسائل الجامعية العالمية

(١٠)

الإمام

ابن ناصر الدين الدمشقي

وجهوده في الحديث النبوي

تأليف

زكريا عبد العزيز الجاسم

مكتبة الرسائل الجامعية العالمية

(١١)

السياسة الشرعية

وأثرها في الحكم الشرعي التكليفي

تأليف الدكتورة

نسيبة مصطفى البغا

مكتبة الرسائل الجامعية العالمية

(١٢)

شهادة المرأة

في الفقه الإسلامي والقانون الوضعي

تأليف الدكتورة

غيداء محمد عبد الوهاب المصري

مكتبة الرسائل الجامعية العالمية

(١٣)

تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد

للإمام عبد الرحيم بن الحسين العراقي

(٨٠٦ هـ)

دراسة وتحقيق

بلال محمد أبو حوية

مكتبة الرسائل الجامعية العالمية

(١٤)

زكاة الزروع والثمار

في ضوء تطور الزراعة في العصر الحديث

تأليف الدكتور

محمد قاسم الشوم

مكتبة الرسائل الجامعية العالمية

(١٥)

الشرط الجزائي في الفقه الإسلامي

دراسة مقارنة

تأليف الدكتور

أسامة الحموي

مكتبة الرسائل الجامعية العالمية

(١٦)

ابن فورك

وآثاره الأصولية

مع تحقيق

كتابه

المختصر في أصول الفقه

تأليف الدكتور

محمد حسان عوض

مكتبة الرسائل الجامعية العالمية

سلسلة دراسات في الاقتصاد الإسلامي

معالم التأمين الإسلامي

مع تطبيقات عملية لشركات التأمين الإسلامية
دراسة فقهية للتأمين التجاري والإسلامي

تأليف

الدكتور صالح العلي
أستاذ الاقتصاد الإسلامي والمصرف الإسلامي
في كلية الشريعة والاقتصاد
عضو هيئة شرعية في عدد من المؤسسات المالية الإسلامية

الدكتور سميح الحسن
محاضر في كلية الشريعة
بجامعة دمشق

سلسلة دراسات في الاقتصاد الإسلامي

المؤسسات المالية الإسلامية

ودورها في التنمية الاقتصادية والاجتماعية
يتضمن نماذج عقود صيغ التمويل والاستثمار في بنك سورية الدولي الإسلامي

تأليف

الدكتور صالح حميد العلي
أستاذ الاقتصاد الإسلامي والمصارف الإسلامية في كليتي الشريعة والاقتصاد بجامعة دمشق
عضو الهيئة الشرعية في بنك سورية الدولي الإسلامي

سلسلة دراسات في الاقتصاد الإسلامي

الأجل في عقد البيع

تأليف الدكتور
عبد الله أوزجان

سلسلة دراسات في الاقتصاد الإسلامي

الوساطة المالية

أبرز التطبيقات المعاصرة

تأليف الدكتور
محمد أمين بارودي